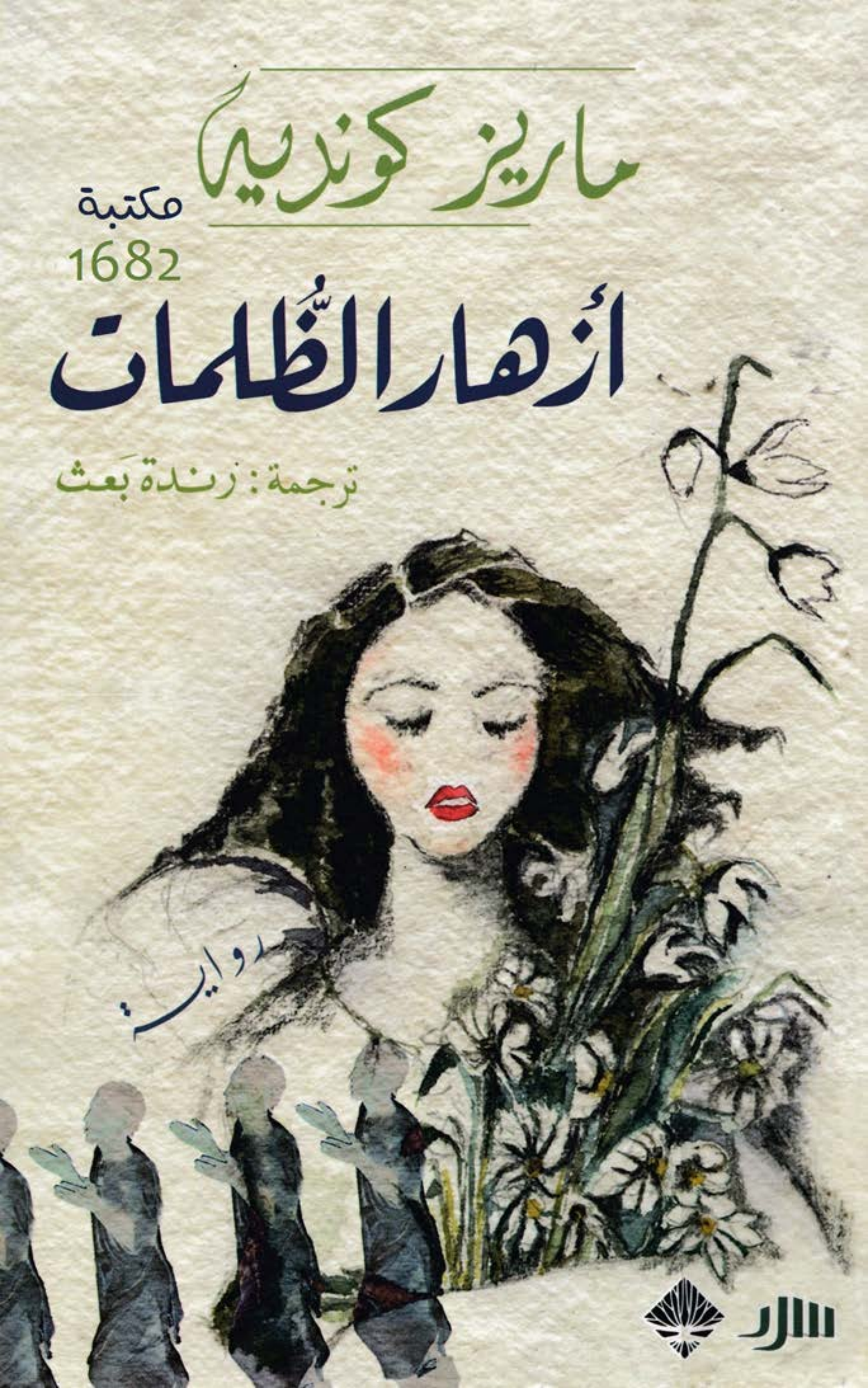

ماريز كونديه
مكتبة
1682
أزهار الظُّلمات
ترجمة: رندة بعث
رواية

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود



أزهار الظلمات

أزهار الظلمات - رواية

تأليف: ماريز كونديه

ترجمتها عن الفرنسية: رندة بعث

Les belles ténébreuses

Maryse Condé



تصميم الغلاف: نجاح طا

3 - 641 - 89 - 4 :ISBN

الطبعة الأولى: 2023



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838

الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.

جوال: 557195187 971+

البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House

twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+

البريد الإلكتروني:

info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:

www.darsard.net

facebook.com /Sard.Publishing

twitter.com /SardPublishing

ماريز كونديه



أزهار الظلمات

رواية

ترجمتها عن الفرنسية:

رندة بعث

الإهداء:

إلى منيرو الذي يعلم أنّ الحياة ليست لعبة ڤيديو!




MOHAMED KHATAB

﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خيرٌ وأبقى﴾.

القرآن الكريم، سورة الأعلى




MOHAMED KHATAB



التحنيط فنٌّ نبيل، لكنّه شديد السرّية. حصلت على كلّ المعلومات المتعلّقة بهذا الموضوع من قراءتي الممتعة لكتاب «جيسيكا ميتفورد» الذي يحمل عنوان: «طريقة الموت الأميركية»: (*The American Way of Death*)، 1963.

كلّ الاقتباسات من القرآن مستقاة من ترجمة جاك بيرك: «القرآن محاولة ترجمة»، منشورات ألبان ميشيل، مجموعة «روحانيات حيّة»، 2002.

ملاحظة الترجمة: كلّ الحواشي من وضع المترجمة.


MOHAMED KHATAB

الأخضر




MOHAMED KHATAB

.1



خرج قاسم من بطن الأرض مثلما خرج من بطن أمه قبل عشرين عاماً، وقد غطّاه الدم، مرعوباً. وفقدَ صوته أيضاً. لم تكن والدته دراستا تعاني من شيء، فتلك كانت ولادتها السابعة وتمّت بسلاسةٍ كبيرة. لذلك أهملتها القابلة وأمطرت إليتيه بالضربات عشرين دقيقة كاملة قبل أن يطلق صيحته الأولى. صدرت عنه صيحة ضعيفة. صيحة فأرة. صريرٌ دشّن حقاً نشازاتٍ لاحقة. كانت شظيّةٌ من القرميد قد حرثت جبهته وأخذ السائل يقطر، أحمر، حارقاً.

الوقت منتصف النهار، ساعة مجد الشمس في خطوط العرض تلك التي ليست «معتدلة» كما في بلدان أوروبا، غير أنّ النهار كان مظلماً. أعتمته آلافٌ مؤلّفةٌ من الفراشات التي يحسب المرء أنّ الليل تقيّأها. عندما أمعن قاسم النظر، لاحظ أنّ تلك الفراشات هي في حقيقة الأمر مزقٌ من اللحم البشريّ ونثراتٌ متطايرةٌ من العظام. بقدر ما يمكن أن يمتدّ النظر، لم يكن المرء ليرى تحت هذه القلنسوة القاتمة سوى المباني المتفتّتة والخرسانة الممزّقة وحطام الزجاج أو الحجارة والخشب المتفحّم الذي يتصاعد منه الدخان. بعد الانفجارات التي تصمّ الآذان، ساد سكونٌ مطبق، كدّرته

حشرجات الجرحى تحت الأنقاض وتأوّهاتهم. لم يبقَ شيءٌ من المجمّع الفاخر المسمّى «دريم لاند». ما من شكٌّ في أنّ إرهابيِّين هم من فعلوها. من هم؟ في الهجمات الانتحارية، يجد المسؤولون عن الرعب الموتَ الذي يستحقّونه من فورهم. يمكن القول إنّهم يعاقبون أنفسهم بأنفسهم لاعتقادهم بأنّهم يضحّون بأنفسهم. أمّا في الحالة التي أمامنا، فقد وضع القنابلَ جبناءٌ لا يزالون حتّى الساعة هاربين، مبتهجين وسعداء.

مدمَّرةٌ هي الأجنحة الأنيقة التي تخفيها النباتات الخضراء. مدمَّرةٌ طوابق المبنى المركزيّ السبعة، إذ انهارت دفعةً واحدة، مثلها مثل البرجين التوءمين الأميركيين، على قاعة الاستقبال بأحواضها المرمرية، وعلى صالات طعامها الثلاث: «قصر نبتون»(*) الذي يقدّم ثمار البحر مثلما يشير إلى ذلك اسمه، و«كهف المينوتور»(**) المتخصّص في اللحوم المطهيّة بألف طريقةٍ وطريقة، واختصاصه شرائح اللحم السميكة، وصالة «أبسانت»، وهي مشربٌ على الطراز الفرنسي. لولا أنّ قاسماً أطاع أمر باولو، كبير الطهاة الإيطالي الذي لم يكن يوفّر عليه المهام الصعبة بسبب عدم تحمّله له، فذهب إلى المخزن لإحضار البندورة المقطّعة إلى مكعّبات من نوع Del Monte، لانتقل من الحياة إلى الموت. مثله مثل الآخرين. مثله مثل الآخرين جميعاً.

وصل قاسم إلى هذا البلد قبل نحو ثمانية أشهر. فبُعيد نيله شهادة المدرسة الفندقية، لم يتردّد في أن يغترب للعثور على عمل. كي يغترب المرء، يجب أن يكون له وطن، أليس كذلك؟ لكن لم يكن لديه وطن. فقد وُلد في سوسي (Sussy)، وهي بلدةٌ صغيرةٌ قرب مدينة ليل (Lille) لم

(*) نبتون إله البحر في الميثولوجيا الرومانية.

(**) في الميثولوجيا الإغريقية، مخلوق نصفه رجل ونصفه الآخر ثور.

يتردّد أهلها في أن يعدّوه، هو وأهله، مجلوبين من الخارج. لماذا؟ يستحقّ هذا السؤال تفسيراً. إذ إنّ والده من غوادلوب وأمّه من رومانيا، جمعتهما هجرات الأزمنة الحديثة وتزوّجا وربّيا هناك أولادهما السبعة. خمسة صبيان. بنتان. لكن فلنتقدّم أكثر من ذلك. فثمة أسبابٌ أخرى لهذا الرحيل غير المتوقّع إلى الجانب الآخر من العالم. أسبابٌ أكثر سرّيةً وغموضاً. وكان قاسم ليفضّل الانتحار على الاعتراف بها. ليست كلّ الحقائق جديرةً بأن ننظر إليها مواجهةً.

لكنّني أسمعك أيّها القارئ، فأنت تريد أن تعلم المزيد. تريد أن تعرف البلد الذي أتى قاسم إليه ليعمل، البلد الذي حدث فيه الاعتداء. لكنّني لن أقول لك أكثر من ذلك. يكفيك أن تعلم أنّه أحد تلك البلدان المشمسة التي تعتّمها -للأسف!- دكتاتوريةُ الرئيس مدى الحياة، ويأتي سكّانها، وقد سئموا من الموت جوعاً على نارٍ هادئة، ليموتوا بسرعةٍ أكبر في حرائق أكواخ باريس. تُطلَق على هذه البلدان تسمية بلدان العالم الثالث، أو البلدان النامية، أو بلدان الجنوب. أنا أفضّل التسمية الثالثة. فهذه الكلمة، «الجنوب»، تتمتّع بقدرة استحضارٍ فريدة. هل تتذكّر أغنية نينو فيرّير(*) الرائجة والتي عنونَها «الجنوب»؟

يخال المرء أنّه في الجنوب
حيث يدوم الوقت طويلاً
والحياة بالتأكيد تدوم
أكثر من مليون سنة
ودائماً في الصيف.

(*) Nino Ferrer (1934-1998): مغنٍّ ومؤلّف أغانٍ فرنسي من أصلٍ إيطالي.

لكنّني أبتعد عن الموضوع.

انتفض قاسم: آنّا ماريا! أين آنّا ماريا؟ لم يخطر ذلك في باله قبلاً.

لام نفسه على كلّ هذا التأخّر في تذكّرها. لا شكّ أنّه بفعل اقترابه إلى هذا الحدّ من النهاية، بفعل ملامسته إيّاها كما يقال، قد أصبح نسّاءً، أنانيّاً. لقد ماتت محبوبته هي أيضاً. في العشرين من عمرها. ورثت ذلك الاسم الساحر عن جدّتها الإيطالية. فلنقُل الحقيقة، لقد اقتصر سحرها على اسمها، إذ لم تكن آنّا ماريا ملكة جمال. ولولا شعرها البنّي الطويل، لما التفتت إليها الأنظار! تعارفا في الطائرة، وكانت طائرة نقلٍ تابعة لشركة «وسترن أتلانتيك». كلّا، لا تُدرِج شركات النقل الجوّي شركة «وسترن أتلانتيك» على قائمتها السوداء، إذ لم يسجّل تاريخها أيّ حادث تحطّم. المقعدان 68 C و68 D. وكما يحدث بين راكبين متجاورين، تبادل قاسم وآنّا ماريا حديثاً لم يكن فيه ما هو استثنائي، كما سنلاحظ.

– هل هي المرة الأولى التي تذهبين فيها إلى حيث نذهب؟

– أجل. أنا لا أعرف إفريقيا. وأنت؟

– ولا أنا. إنّها أصلاً المرّة الأولى التي أغادر فيها فرنسا.

– هل أنت فرنسي؟ في أيّ مدينةٍ درست؟

– باريس! وأنت؟

– أنا في غرونوبل. أنا من غرونوبل.

طيلة الساعات الثلاث عشرة التي استغرقتها الرحلة، استعرضا كلّ شيءٍ ولاحظا أنّهما متشابهان. انعزالٌ في الطفولة. اجتهادٌ في المراهقة. وهكذا، أخذته الحال أثناء بداية رحلة هبوط الطائرة، فوق مشهدٍ من

الحصى، فاقترح عليها أن يسلكا معاً جزءاً من الطريق في هذا الوجود الذي يسير فيه بمفرده. وافقت بحماسةٍ، فوجد نفسه عند الوصول ترافقه شريكةٌ لم يرغب فيها إلّا جزئياً.

الآن، وفي خضمّ ضجيجٍ لا مثيل له، كان عناصر الشرطة الذين هرعوا من مراكز الشرطة كافّةً يوقفون سياراتهم الجيب في حين يقفز الممرّضون وأطبّاء الطوارئ والمسعفون وحمّالو النقّالات من سيّارات الإسعاف، ويسلّط عناصر الإطفاء خراطيمهم.

في الحقيقة، لم يكن هذا الاعتداء مفاجئاً. فقد امتلأ بريد وزارتي السياحة والداخلية برسائل صادرة من منظّماتٍ شتّى، تُنذر بأسوأ الأهوال. ارتأى قاسم، وقد أرعبته قوّات حفظ النظام، أن يسارع ليغلق على نفسه باب بيته. فبسوء الحظ الذي يميّزه، لا شكّ أنّ أحداً ما سيجد في نهاية المطاف ما يلومه عليه.

كان يقطن في آخر الحديقة، متقاسماً هو وآنّا ماريا مع ثلاثة طبّاخين سيّئين آخرين أحد الأجنحة في المجمّع السكني المخصّص للعاملين في المجمّع السياحي، وذلك بانتظار زواجهما الذي خطّطا أن يحتفلا به، تحقيقاً لرغبة آنّا ماريا، في غرونوبل حيث لديها أقارب. كانت شقّتهما تقع في الطابق الثالث من المبنى C. وبعد أن كانت الإطلالة رائعة، باتت تطلّ على حقلٍ من الحطام. فجأةً، أخذ الألم يفعل فعله في قلب قاسم. لن يرى آنّا ماريا بعد اليوم. لن يسمع صوتها البلّوري ولن يعانقها أثناء الحب. اجتاحه اليأس، فملأ كأس فودكا من نوع سميرنوف، وهو كحولٌ يميل إلى تناوله من دون تحفّظ.

آنّا ماريا ماتت.

هذا يعني أحلاماً لن تثمر. ممتلكاتٌ ماديّة، سيّارةٌ وشقّةٌ من ثلاث غرف ومسكنٌ ثانوي وربّما يختٌ للرحلات البحرية، لن تحظى بها مطلقاً. ولأنّها كانت طفلةً وحيدة، فقد حلمت ببيتٍ مليءٍ بالأطفال كما في الأزمنة الجميلة الغابرة، أزمنة ما قبل حبوب منع الحمل. أمّا هو، الضجِر من وجود ستّة إخوة وأخوات، فلم يكن يتمنّى سوى بنتٍ يطلق عليها اسم أوفيليا، وهو اسمٌ عشقه منذ أن تعلّم في المدرسة الثانوية قصيدة رامبو(*) التالية:

ها قد انقضى أكثر من ألف عام مذ أخذت أوفيليا الحزينة
تمرّ، كطيفٍ أبيض، بمحاذاة النهر الأسود؛
ها قد انقضى أكثر من ألف عامٍ مذ بات جنونها العذب
يوشوش أغنيته لنسيم المساء.

جلس أمام التلفاز وشغّله. ليس هنالك ما يعادله في حالات الكوارث، فهو يدفع قلبك للخفقان على الهواء مباشرةً. برنامج «*Eye witness*»! ها هي ذي شبكة CNN التي تبثّ حتّى في ذلك الركن البعيد تقوم بعملها. لقطةٌ قريبةٌ للحطام المحترق ولذلك الأسى كلّه. مقابلةٌ مع أحد الناجين. سائحٌ أميركي يحمد الله على بقائه على قيد الحياة. لكنّه منهار، لأنّ حظّ زوجته وطفليه كان على ما يبدو أقلّ من حظّه فاختفوا. فلنحافظ على الأمل! هذا ما أوصاه به الصحافي المستعجل للانتقال إلى مأساةٍ أخرى. God bless America!

لكنّ جلبةً أمام الباب قاطعت قاسماً. دخل رجال شرطة. قبّعاتٌ مسطّحة. زيٌّ رسميٌّ نيليّ. سحناتٌ عدائية.

(*) Arthur Rimbaud (1854-1891): شاعر فرنسي شهير.

«لم أفعل شيئاً»، هذا ما قاله متلعثماً وهو ينفّذ، من دون أن يطلب منه ذلك أحد، أمرَ «ارفع يديك إلى الأعلى!»، إذ من يدري؟

ضاع احتجاجه في سيلٍ من الركلات واللكمات المتزامنة مع صيحاتٍ شرسة. واقع الأمر أنّ الجنود لاموه على أنه الناجي الوحيد من بين العاملين في المطابخ. وقد انتبه إليه شهود عيان وهو يجول، بنظرة المجرم المحايدة، في أماكن ارتكابه جريمته. بل ثمة ما هو أخطر، إذ لاموه على أنّ اسمه قاسم.

ولأنّ قاسماً اعتاد مثل هذا الخلط الذي يفاقمه لون بشرته وشعره الشبيه بشعر راعٍ بربري، فقد رسم ابتسامةً على فمه المتورّم:

– هذا ليس سوى اسم. فأنا لست عربياً ولا مسلماً! أبي هو الذي أطلق عليّ هذا الاسم. وأبي فرنسيٌّ أصليٌّ من غوادلوب.

– فرنسيٌّ من غوادلوب؟

هل مثل هذه الأشياء موجودة؟

قاطعه أحد رجال الشرطة بقسوةٍ قائلاً: «ما الذي تقوله؟».

رفض قاسم أن يثنيه هذا الجهل، فواصل قائلاً: «لقد منح أسماء تبدأ بحرف K لجميع أطفاله. مثل اسمه هو، كيليرمان. أسماؤنا هي: كيليرمان جونيور وكليوفاس وكارلومان وكلودومير. أما البنتان، فأسماؤهنّ كوميثا وكاثرينا. وفي النهاية أنا، الأخير، قاسم».

قد تبدو هذه الحكاية وليدة الخيال لمن يجهل تباهي الآباء الغوادلوبيّين. لكنّ قاموس لاروس يقدّم لنا المعلومات:

«كيليرمان، فرانسوا، دوق فالمي، مارشال فرنسا»(*).

(*) Kellermann François (1735–1820): ضابطٌ وسياسيٌّ فرنسي.

حصل كيليرمان مايومبه على اسمه الرنّان من أبيه الذي ربّما لم يكن يملك، على الصعيد المادي، أكثر من جلدة مؤخّرته، لكن كان لديه فائضٌ من الاعتداد بالنفس. في مطلع السبعينيات، دفعه البؤس إلى مغادرة مصنع «بون مير» الذي كان يتأهّب، بعد احتضارٍ طويل، لإغلاق أبوابه نهائياً في وجه عمّاله. وبما أنّه كان على الدوام تلميذاً مجتهداً، فقد خطرت في باله فكرة الخضوع لامتحانٍ في هيئة البريد والبرق والهاتف. نجح في الامتحان ووصل إلى سوسي، وهي منطقةٌ لم تعرف أيّ أسودٍ قبله. عمل هناك ساعياً للبريد. يتبعه الأطفال والكلاب في كلّ جولةٍ له على الدرّاجة، إذ لم تكن هيئة البريد في تلك الأيام تمتلك تلك الشاحنات الصفراء الصغيرة بعدُ، الأطفالُ ليشتموه والكلابُ لتحاول عضّ قدميه بملء أشداقها.

لم يصدّق رجال الشرطة كلمةً من هذا الكلام المنمّق الذي يجب أن نعترف بأنّه غير قابل للتصديق، ودفعوا قاسماً عبر الحديقة وصولاً إلى سيارة جيب. عبروا سامسارا عرضانياً. سامسارا ليست العاصمة.

بل إنّ اسم تلك البلدة البعيدة غير موجودٍ على الخرائط التي وضعها الجغرافيّون الفرنسيّون أواخر القرن التاسع عشر. وقد وُلدت ثروتها بعد ذلك بكثير من بحيرة أبريغو المفتوحة مثل عينٍ زرقاء رائعة في مشهدٍ طبيعي قاحلٍ وممزّق. فقد خطرت في بال مروّجين سياحيين فكرة التغلّب اصطناعياً على الصحراء. زرعوا أشجار نخيلٍ ملكية وأشجار جوز الهند والأروكاريا والدفلى والبوهينيا، وبسطوا كيلومتراتٍ من العشب الإنكليزي. ومنذ ذلك الحين، باتت الطائرات النفّاثة وطائرات البوينغ تتقيّأ فيها كلّ يومٍ سويديين ودانماركيين وفنلنديين وألماناً وأميركيين، أي باختصار أنّهم كانوا جميعاً من السكّان الأصليين في الأمم ذات العملات

القوية والشمس الضعيفة. إنّها القاعدة، يا للأسف! ما أمكن منعه هو أن تأتي جماعاتٍ مع أولئك الزوّار عُصَبٌ من البائسين من أرجاء البلاد كافةً، للاستفادة من هذه الفرصة بقدر ما يمكنهم ذلك. ولمحاكمة أولئك الأشخاص غير المرغوب فيهم ومعاقبتهم، شيّدت الحكومة مخافر للدرك ومحاكم وسجوناً. أصبحت سامسارا أكثر المدن التي يمكن تخيّلها بوليسيةً.

توقّفت سيّارة الجيب أمام مبنىً مهيب، هو مركز الشرطة المركزي. نادرون أولئك الذين يخرجون منه مثلما دخلوه.

كانت تلك المرّة الأولى التي يحتكّ بها قاسمٌ بالشرطة، خلافاً لإخوته السيّئين الذين أطلقوا على أنفسهم لقب «عصابة الأربعة»، باستثناء بضع مرّاتٍ تعرّض فيها للتحقّق من هويّته بسبب استهدافه استناداً إلى ملامحه. في الواقع، كان مدلّلاً لدى أبيه بسبب حسن سلوكه. علاماته جيّدة في المدرسة. اسمه مذكورٌ دائماً في لوحة الشرف. مغنٍّ أساسيٌّ في الكورال. خطٌّ مستقيمٌ تماماً مرسومٌ في شعره المطلي بزيت الشعر. اكتشف بذهولٍ شراسة هؤلاء الأوباش، فالواقع تجاوز الخيال وكلَّ ما حُكي له. وصلته دفعةٌ جديدةٌ من الركلات واللكمات في الأماكن المؤلمة. ثمّ رحل أولئك الأفظاظ.

أمضى قاسم ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ وهو يبكي، متقوقعاً على نفسه، تخنقه رائحة المراحيض. الباب يُفتَح مرتين في اليوم وتمدّ له يدٌ قصعةً مليئةً بمزيجٍ سائلٍ مزرٍ ربّما كان حساءً، عافته نفسه.

أخيراً، رماه رجال الشرطة ذات صباحٍ على الرصيف. فقد أقسم رئيس بلدية سوسي في ردٍّ له على رسالةٍ تلقّاها بالبريد الإلكتروني إنّ قاسماً كان

منذ صغره فخراً للبلدة التي وُلد فيها، على الرغم من لون بشرته المؤسف. أمّا الخوري، فقد أكّد في ردٍّ على اتّصالٍ هاتفيٍّ بأنّه أفضل من ينشد *Beatus Vir* للموسيقار فيفالدي.

بدت سامسارا مدينةً ميّتة.

كان رجال الشرطة قد استغلّوا الاعتداء لتوقيف المشبوهين المعتادين: العاطلون عن العمل والمشرّدون والعاهرات والباعة المتجوّلون السنغاليون وبائعو السجّاد العرب. باتت الشوارع خاويةً إلّا من الكلاب. إذ لا يمكن منع الكلاب لا من التجوّل ولا من التزاوج أينما شاءت. لم يعلم قاسم المرتبك إلى أين يذهب، فقرّر العودة إلى «دريم لاند».

يا له من مشهد! فجنّة عدن تلك، التي كانت الليلة فيها تكلّف ثلاثمئة وخمسين دولاراً أميركياً، لم تعد سوى بستان جثسيماني(*) من الأرض المقلوبة. لا يزال رجال الإطفاء والإسعاف ينقّبون بعنادٍ في الأنقاض التي تتصاعد منها روائح كريهةٌ مثيرةٌ للغثيان. ولأنّهم فقدوا الأمل في العثور على أحياء، كانوا يأملون في العثور على جثث. جلس محامو شركة «دريم فيلدز» العالمية، مالكة «دريم لاند»، في الظلّ وأخذوا يسلّمون رسائل للعاملين النادرين الذين نجوا من الكارثة. ظهر جليّاً أنّ «دريم لاند» ليست أبداً طائر الفينيق الذي سينبعث من رماده. فجلّ ما كان بمستطاع أوفر العاملين حظّاً أن يأملوا به هو أن يُعاد توظيفهم في ركنٍ آخر من ذلك الفردوس الأرضي الذي بات يتقلّص باستمرار. ماذا بقي؟ تايلاند؟ سنغافورة؟ ماليزيا؟

تجمّع أربعة محامين لتفحّص حالة قاسم لأنّه، لسوء الحظّ، كان حالةً

(*) إشارة إلى المكان الذي اعتُقل فيه المسيح في الليلة السابقة لصلبه.

قائمةً بذاتها. بدايةً بسبب ذلك الاسم المشبوه. ثمّ لأنّه عاملٌ في «دريم لاند» منذ ثمانية أشهرٍ فحسب. واستنتجوا أنّهم لا يستطيعون فعل شيءٍ من أجله.

قال قاسم، مجرّباً حظّه: «هل أستطيع أن آمل على الأقل في الحصول على تذكرة عودة إلى فرنسا؟».

نظر إليه أحد المحامين شزراً وقال: «هل أنت فرنسي؟».

«أجل»، أكّد قاسم مفعماً بالثقة.

لماذا بقي يرتجف كما لو أنّه يكذب؟ صحيحٌ أنّ الواقع يتجاوز الخيال في حالته أيضاً.

- أمّي رومانية.

وتابع من دون توقّفٍ قائلاً: «لكنّ أبي من غوادلوب وأنا وُلدت في مدينة ليل!».

يا له من خليطٍ عجيب! خليط لم يُعجب المحامين مطلقاً. هزّوا برؤوسهم سلباً وكرّروا أنّهم لا يستطيعون فعل شيءٍ من أجله! فعاد قاسم خائب الرجاء إلى جناحه. آنذاك، أوقفه حارسان واقفان أمام المدخل.

- قف عندك!

فقال متلعثماً: «أنا أقطن هنا!».

وجّهوا إليه الأمر بجمع أغراضه بسرعةٍ لإخلاء المكان.

إلى أين يذهب؟

لم يبالِ الحرس بسؤاله. كلّ ما يهمّهم هو أن يُعاقَب في مكانٍ آخر. اجتاحه شعورٌ بالقدرية. فليحدث ما يحدث! فليغرق مثلما غرقت التايتانيك

إن كان عليه أن يغرق. لمح وهو يدفع الباب ورقةً مدسوسةً تحته، ورقة مزيّنةً بشمسٍ تشرق، صادرةً عن جمعيةٍ تدعو جميع المسلمين للاجتماع مساءً في مبنى نصيري.

هتف قاسم قائلاً: «هذه حماقة! أنا لست مسلماً!».

احتجاجٌ سخيف! فمن جانب، لن تستطيع أيّ أذنٍ سماعه لأنّ الشقّة فارغة. ومن جانبٍ آخر، لأنّه لا يملك في جيبه سوى ما يعادل ستين يورو. في مثل هذه الحالة، لا يدقّق المرء في موضوع الدين. وإذا ما كان المسلمون يستطيعون إغاثته، والشكر للربّ العظيم، فهو مستعدٌّ ليعلن أنّه مسلم. كدّس ملابسه في حقيبة ظهره ولملم صور آنا ماريا ثمّ سلك مجدّداً طريق المدينة.

.2

سقطت الشمس في البحيرة وبات البرد قارصاً. اختفت الكلاب الضالّة. امتلأت الشوارع بالأوراق المتّسخة، تحوّم في الصمت وكأنّها فراشاتٌ كبيرة. يقع مبنى نصيري على بعد خطوتين من مسجد جمال قادر. يُحكى أنّ اجتماعاتٍ سياسيةً حاشدةً عُقدت في ذلك المسجد عندما استقلّ البلد. أمّا الآن، فإنّ مكاتب منظّمة أطباء بلا حدود التي فرغ نصفها تتجاور في المبنى مع مكاتب منظّمات «تنبّهوا للإيدز!» و«الدفاع والحماية من مرض السلّ» و«حذارِ من إيبولا!»، أي باختصار مكاتب كمٌّ من المنظّمات الإنسانية من أوروبا وأميركا الشمالية، تشهد على هذا التضامن في العالم، وهو تضامنٌ يتأكّد باستمرار، مهما قيل عنه.

استجمع قاسم شجاعته وهو يستعدّ لأن يذكر للحرّاس الواقفين أمام الباب تفسيراً مقبولاً. لكنّ المفاجأة تمثّلت في أنّهم لم ينظروا إليه ولم يحاولوا إيقافه.

دُهش عندما دخل. كم من الرجال الذين يرتدون الجلابية أو الكندورة، وكم من النسوة اللواتي يرتدين التشادور! لم يسبق له أن رأى مثل هذا العدد منهم، وشعر بعدم الارتياح إلى حدّ أنّه كان يستعدّ للهرب، عندما لاحظ

مجموعةً من الفتيان الذين يرتدون مثله بلوزاتٍ وسراويل جينز باهتة اللون من ماركة ليفي. إنّ الطيور على أشكالها تقع. اقترب منهم.

كانوا يثرثرون بحماسة:

- هي تستفرغ أحشاءها منذ ثمانية أيام.

- يقولون إنّ غارولاماي، طبّاخها المسلم، هو الذي سمّمها بحلوى العسل التي كان يحضّرها لها كي تتناولها عصراً.

- هذا كلام غير منطقي، فقد كانا عشيقين. لماذا يقتل من يعشقها؟

- بالطبع، هذا كلام غير منطقي. من يريد إغراق كلبه(*)...

لم يستطع قاسم لجم فضوله، فسأل بخجل: «عمّن تتحدّثون؟».

نظر إليه الجميع:

- عن أونوفريا طبعاً!

- ألم تعلم بالقضية؟

أونوفريا هي الابنة المحبوبة للرئيس الدكتاتور مدى الحياة، جان بونوا الخامس الذي يُطلَق عليه عادةً لقب بيغ بوس Big Boss. أين عقل قاسم؟ فمنذ أيّام، احتلّ وصف مرضها النشرات الإخبارية التلفزيونية وبرامج الإذاعة. لم يهمل الصحافيون أيّ تفصيل: الحمّى، الغثيان، الإسهال، الإقياء. نظر الفتيان إلى الجاهل، وبدا أنّ ما رأوه لم يعجبهم.

سأله أحدهم بفظاظة: «من أين أتيت؟ ألست من هنا؟».

لم يرَه أحدٌ يوماً يسجد في المسجد، ولا وهو يشرب كأساً من الشاي

(*) جزءٌ من المثل: من يريد إغراق كلبه يتّهمه بالكَلَب. يعني سهولة الحصول على حجّةٍ للتخلّص من شخصٍ ما بتلفيق التهم ضدّه.

الأخضر بالنعناع في أحد مقاهي ساحة كادريميشا. كان قاسم يستعدّ للردّ بأنّه يعمل في «دريم لاند» عندما تحوّلت الأنظار عنه بالسرعة التي أحاطت فيها به. إذ ظهرت مجموعةٌ من الحرّاس ترافق رجلاً في نحو الثلاثين من عمره. من أيّ عِرقٍ هو؟ خلاسيٌّ يمتزج فيه ألف صنفٍ من الدماء. طوله أقلّ من الطول المتوسّط. يميل إلى النحول. يرتدي كندورةً قاتمة اللون كجلده. وجهه يشدّ الأنظار. بدت عيناه الفاتحتان -غير المتوقّعتين- وكأنّهما تُصدِران حِزماً من الضوء. أسفل شعره الأسود، ظهرت جبهةٌ عريضةٌ تشي بقدراتٍ ذهنية، في حين يفيض الفم الممتلئ بالشهوانية وتوحي الذقن التي تتوسّطها غمّازةٌ بالحنان. لم يسبق أن تأمّل قاسم كائناً بهذه الجاذبية.

أخذ الشباب يتهامسون وقد تملّكهم انفعالٌ كبير: «إنّه هو! إنّه هو!».

الدكتور رمزي النووي، سليل إحدى أقدم عائلات سامسارا، كما أنّه معشوق شمالي البلاد. يقال عنه إنّه حصل على دبلوم من كلّية الطب في ليدز بإنكلترا. لكنّه ليس طبيباً كالآخرين، مجرّد معالِجٍ اعتيادي للأمراض البشرية. فهو يكرّس نفسه حصراً للأبحاث وقد شيّد في أحد أجنحة دارته مختبراً فائق الحداثة، ينساق فيه إلى تجارب على الفئران والقطط والقرود والنباتات. أيّ تجارب تحديداً؟ الجواب صعب! يؤكّد بعضهم إنّه يجري زراعة أعضاء. ويجزم آخرون إنّه يستطيع خلق الحياة. وهذه السرّية تغذّي الإعجاب العامّ به، فيُقارَن بفيكتور فرانكنشتاين(*) ولويس باستور(**)

(*) Victor Frankenstein: الشخصية الأدبية الرئيسة في رواية «فرانكنشتاين، أو بروموثيوس الحديث» التي كتبتها المؤلّفة البريطانية ماري شيلي Mary Shelley عام 1818.

(**) Louis Pasteur (1822–1895): عالمٌ فرنسيّ وكيميائي، رائدٌ في علم الجراثيم.

والجنوب إفريقي كريستيان برنار(*)، وهم جميعاً أشخاصٌ ساندوا قضية الإنسانية.

في ذلك اليوم، تحدّث طيلة ساعةٍ بصوته المريح، المتكلّف قليلاً. في رأيه، على الرغم من أنّ أحداً لم يتبنَّ الاعتداء على «دريم لاند»، إلّا أنّ المرء ليس بحاجةٍ إلى كرةٍ زجاجيةٍ ليخمّن إلى مَن سيُنسب. إلى أهالي الشمال، المسلمين، بعبع النظام. كما أنّ حدثاً أشدّ كارثيةً قد حصل، ولم تجرؤ وسائل الإعلام بعدُ على كشفه: موت أونوفريا. اتُّهم الطبّاخ غارولاماي بتسميمها واعتُقل. إنّها مقدّمةٌ لمطاردةٍ سيحتلّ فيها المسلمون مكان الشيوعيين في أميركا ماكارثي، أو مكانَ اليهود في ألمانيا النازية. لذلك استأجَر حافلات شركة «رام دام» لتذهب بإخوته في الدين إلى عاصمة البلد المجاور كي يكونوا بأمان. فهذا البلد صديق، رغم كونه ناطقاً بالإنكليزية. الموعد محدّدٌ فجراً أمام مقبرة كاميرون. الساعة المتوقّعة للرحيل هي الرابعة صباحاً. هدّأ بيده عاصفةً من التصفيق حيّت هذا العرض - لم يكن الناس يتوقّعون عطاءً أقلّ، وهو المعروف بسخائه الأسطوري. حاليّاً، هو يبحث عن أشخاصٍ ليكونوا أدلّاء مترجمين، يرافقون المرشّحين للرحيل ويخفّفون وطأة منفاهم إلى بلدٍ لا يعرفون لغته. بطبيعة الحال، سوف يتلقّى أولئك الأدلّاء المترجمون أجراً.

سيتلقّون أجراً!

بدايةً، اعتقد قاسم الذي لم يسمع سوى تلكما الكلمتين أنّ أذنيه تخادعانه. ثمّ انتشر الفرح في كينونته. إنّه طوف سفينة ميدوزا، قارب النجاة،

(*) Christiaan Barnard (1922-2001): جرّاح قلبٍ من إفريقيا الجنوبية اشتُهر لنجاحه في إجراء أوّل عملية زرع قلب في عام 1967.

طوق النجاة الذي يتمنّى أن يراه يتراقص على بحر يأسه الهائج. فكغيره من تلاميذ منطقة ليل، جابَه قناة المانش بالعبّارة واستفرغ في أكياسٍ ورقية –قبل أن يتمكّن من أن يحتلّ ببساطةٍ مكاناً في قطار أوروستار–، للمشاركة في إقاماتٍ لغويةٍ لأسبوعٍ أو عدّة أسابيع في مقاطعة كِنت بإنكلترا. لم تعد لغة الطبقة الراقية في إنكلترا تخفي أسراراً عليه. لذلك سارع ليكون أوّل من قدّم اسمه للموظّفة، وهي فتاةٌ ترتدي التشادور، فسجّلته وهي سعيدةٌ لأنّ المرشّحين لم يكونوا كثيرين. فتدريس اللغة الإنكليزية سيئٌ في مدارس العالم الفرنكوفوني، ونادرون هم الذين يتوصّلون بعد سنواتٍ وسنواتٍ من الدراسة لتركيب جملةٍ سليمةٍ مفهومة.

بدت تلك الفتاة متميّزة المظهر وكانت تشكّل مع الدكتور رمزي ثنائياً منسجماً. البشرة المخملية الحليبية المنمّشة التي توحي بوجود ذبابٍ عليها. العينان الساطعتان أسفل الحاجبين المقوّسين. الفم المكتنز. ذكّرته رغماً عنه بالمقطع الأوّل من قصيدةٍ لبودلير(*)، شاعره المفضّل بعد رامبو:

ربّةٌ غريبة، سمراء كالليالي
بعطرٍ ممزوجٍ من المسك والهافانا
صنعه ساحرٌ إفريقيٌّ ما، فاوست السافانا
ساحرةٌ جِيدها عاجيّ، ابنة الليالي الحالكة.

استيقظت رغبةٌ جامحة لدى قاسم. يجب أن نعلم أنّ مغامراته النسائية لم تكن كثيرةً بعدُ بسبب عمره. لم يتجاوز عددها في واقع الأمر مغامرتين. المرحومة آنّا ماريا. وأستاذة مساعدة في ثانوية بول إيلوار(**) في سوسي،

(*) Charles Baudelaire (1821–1867): شاعرٌ وناقدٌ فنّيٌّ فرنسي.
(**) Paul Éluard (1895–1952): شاعرٌ فرنسي.

جعلته أقلّ سذاجةً فجأةً بعد درسٍ في العلوم. ربّما كانت ثقته بنفسه قليلة. لماذا؟ إنها حكايةٌ طويلةٌ سأقصّها في مرّةٍ أخرى. يجب العودة إلى كيليرمان، والده المفرط في تسلّطه، وإلى دراستا، والدته الممحوّة الشخصية والزوجة المسرفة في غرامها بزوجها والمنشغلة بتلبية رغباته كافّةً، لكن القليلة الاهتمام بأبنائها، ظاهرياً على الأقلّ. يجب أيضاً العودة إلى إخوته الذين أهانوه وأساؤوا معاملته، إلى أختيه اللتين تجاهلتاه. المرء يعود دائماً إلى العائلة! إنّها عقدة الأفاعي الأصليّة(*)!

بعد انتهاء الاجتماع، سارع الناس الخائفون إلى التمترس في بيوتهم، فوجد قاسم نفسه وحيداً في الشارع الغارق في العتمة، وعلى ظهره حقيبته نصف الفارغة. بعد تردّد، ذهب إلى ملجأ كاتدرائية القدّيس فرانسوا الأسيزي. كان الموسيقي بونو قد انتهى لتوّه من إقامة حفلٍ ضمَّ أهمّ الأسماء لمكافحة الجوع في العالم. في تلك الكنيسة وبفضل راهبين حيويّين من الأرجنتين، يحصل المحتاجون على حساءٍ ساخنٍ وفراشٍ من القشّ، خشونته مقبولة.

كان قاسم يرتعش برداً في هواء الليل في ساحة شهداء 29 شباط، عندما توقّفت سيارة رباعية الدفع بمحاذاته. فُتح الباب وأشار إليه أحد الحرّاس الضخمين المرافقين للدكتور رمزي بأن يستقلّ السيّارة.

(*) إحالة إلى رواية فرانسوا مورياك (François Mauriac) المعنونة: «Le nœud de vipères» التي صدرت في عام 1932، وتحكي عن محامٍ مسنّ، يشعر أنّ أفراد عائلته يتجمّعون حوله وينتظرون موته كي يرِثوه، فيقرّر الانتقام منهم بحرمانهم من الميراث. في نهاية المطاف، يكتشف البطل أنّه قادرٌ على الحبّ.

.3

كان الدكتور رمزي جالساً مثل كاتبٍ مصريٍّ قديم، مُسنداً ظهره إلى الوسادات، بهيئةٍ وقورةٍ ولطيفةٍ معاً. في مواجهته، تنقر الفتاة ذات التشادور بأسلوبٍ محمومٍ على أزرار حاسبٍ محمول، وهي مقطّبة الجبين. توجّه رمزي، بصوته المميّز، بالحديث إلى قاسم:

- هذه المدينة التي تميّزت في الماضي بالسكينة لم تعد آمنةً اليوم. سأستخدم أسلوباً عامّياً لأقول إنّها باتت مقصلةً ككثيرٍ من المراكز الحضرية على كوكبنا. الويل لمن يغامر بالسير في حاراتها بعد هبوط الليل. هل تريد أن نوصلك إلى بيتك؟

- إلى بيتي؟

عندما رأى قاسم ملامح رمزي عن قرب، شعر بالانبهار. لم يكن سهلاً عليه أن يبقى محدّقاً في عينيه. خجل من الردّ بأنّه ليس لديه بيت، من الاعتراف بإملاقه لمثل هذا السيّد العظيم. لذا، أفلت أوّل كذبةٍ خطرت في باله: «سأعود إلى دريم لاند».

قال رمزي باستغراب: «إلى دريم لاند؟ لكن قيل لي إنّها لم تعد أكثر من غبار؛ لم يبق فيها حجرٌ على حجر».

بوغت قاسم، فصمت. بدا أنّ رمزي خمّن يأسه واستأنف حديثه بعذوبةٍ قائلاً: «ستكون ضيفي هذا المساء».

وأوقف بإيماءةٍ من يده أيّ احتجاج:

- «الضيف هبةٌ من الله». لا تحمّلني إثماً برفضك هذه الدعوة. يا حفصة، أخطري البيت كي يضيفوا صحناً ويجهّزوا غرفة.

تركت الفتاة حاسبها وبحثت في حقيبتها، استخرجت منها هاتفاً محمولاً، وهو جهازٌ فائق الصغر يصدر عنه ضوءٌ زمرّديٌّ متقطّع، ثمّ أخذت تمطر بالأوامر محادثاً غير مرئيّ. يا له من استعراضٍ مخيفٍ للفعّالية! ما هي وظائفها؟ سكرتيرة؟ مساعدة؟ ردّ رمزي على هذه التساؤلات، وكأنّه خمّن الأفكار التي عبرت ذهن قاسم:

- لولا حفصة لكنتُ مجرّد شخصٍ أرعن. إنّها في الآن عينهِ فمي وأذني وذاكرتي وذراعي اليمنى.

هل هي عشيقته أيضاً؟ هذا ما تساءل عنه قاسم، بغيرة، من دون أن يعلم من يحسد أكثر.

لاحظ أنّ رمزي يرقبه خفيةً من خلال أهدابه الطويلة، فاتّخذ مظهراً رصيناً.

وصلت السيارة إلى الحيّ السكنيّ وتوقّفت أمام دارةٍ طويلةٍ واطئةٍ قويّة الإنارة، تقبع وسط حديقةٍ ذات وفرةٍ استوائية. كمٌّ كبيرٌ من أنواع الأشجار والشجيرات، يبعث على الدهشة في هذا المناخ شبه الصحراوي. أبعَد قليلاً، بدا مبنىً آخر مغلق الأبواب، لا شكّ في أنّه المختبر الذي تجري فيه التجارب السرّية.

تنبّهت جمهرةٌ من الخدم لضجيج السيارة، فسارعوا وهم ينهبون

العشب بأقدامهم العارية. قاد أحدهم قاسماً إلى غرفة نومٍ أثاثها غير اعتيادي. إذ تحيط وسادتان وثيرتان مصنوعتان من الجلد بشاشة تلفزيون عملاقةٍ فائقة التسطّح. وعلى طاولةٍ مطعّمةٍ بالخشب المشغول، بدت تحفةً حقيقية، وُضع حاسب توشيبا من آخر طرازٍ وطابعةٌ ليزرية. وازدانت الجدران بلوحات تخطيطٍ في أطرٍ من الفضّة القديمة، تواجه مناظر هائلة لناطحات سحاب نيويورك وأوبّرا سيدني. كما عكست مرآةٌ بالطول الكامل تقليداً لإحدى لوحات موندريان(*). على السرير قفطانٌ حريري، وعلى الأرض خُفّان ينتظران أن يضع قدميه فيهما.

شعر قاسم بأنّه ينتحل هويةً غير هويته. لكن أليست كلّ الهويات مُنتَحلة؟ إنّها على كلّ حالٍ مفروضةٌ فرضاً. مَن منّا اختار عامداً متعمّداً مكان ولادته ولغته ودينه؟ مَن منّا قرّر: أريد أن أكون هذا أو ذاك؟

لكنّه شعر بالاضطراب. ألا يجدر به أن يقول الحقيقة لرمزي: «اسمع يا صاحِ، أنا لست أخاك في الدين. من أنا؟ في الحقيقة، لا أعلم بالضبط. وربّما كانت هذه حال معظم البشر».

أجل! لكن إن اعترف بالحقيقة، فسيطرده رمزي ويجد نفسه مجدّداً في الشارع. أبعدَ الشكوك التي راودته، وهي شكوكٌ أقلّ ما يمكن أن توصف به في مثل حالته هو الترف.

بعد أن استحمّ وتعطّر وارتدى ثوباً منعشاً على مقاسه تماماً، انضمّ إذاً إلى رمزي في الصالون، وهي حجرةٌ بحجم قاعة محطّة قطار، مزيّنةٌ بنخيل الزينة في أصص. أشار رمزي إلى مكانٍ على الأريكة قربه في حين أخذ أحد الخدم يسكب الشاي الأخضر التقليدي بالنعناع.

(*) Mondrian (1872-1944): رسّام هولندي.

سأله: «هل تعرف "بورتو فيراي"؟».

اعترف قاسم بأنّه بعدما وصل إلى «دريم لاند» قبل ثمانية أشهر، عمل بلا هوادة ولم يتسنَّ له الوقت للتفكير في قضاء عطلات نهاية الأسبوع في العاصمة. فضلاً عن ذلك، كانت موارده المالية شديدة المحدودية. فعلى الرغم من سنوات دراسته الثلاث، لم يكن سوى مساعد طبّاخ، لا توكل إليه إلّا مهامّ التقطيع وفرم الأعشاب فرماً ناعماً، وتحميص بذور البهارات وطحنها.

أصرّ الآخر: «إنّها مدينةٌ فائقة الجمال. يخصّص لها دليل لوغيد دو روتار ثلاث صفحاتٍ مفعمةٍ بالمديح. تستطيع أن ترافقني، فعليّ الذهاب إليها غداً».

قال قاسم باستغراب: «ألن تترك البلاد إذاً مع الآخرين؟».

هزّ رمزي برأسه: «لا. لا. لا! سألوم نفسي إن خالطتُ شراذم الهاربين تلك».

شراذم! صُدم قاسم لنبرة الازدراء.

تابع رمزي: «بيني وبينك، فلتعلم أنّ الدين خبزٌ لا أقربه أبداً. سأقول لك إنّني أعُدّه مصيبة البشرية. انظر إلى ما حدث وما يحدث في العالم بسببه».

ربّما كان يقول الحقيقة. لكنّ قاسماً ذُهل. لكأنّه سمع مطراناً ينتقد الأناجيل المقدّسة.

تابع رمزي: «فضلاً عن ذلك، أنا مكلّفٌ بمهمّةٍ عظيمة. لقد كانت أونوفريا صديقتي، وأتجرّأ على القول إنّها كانت أختي. كثيراً ما أتت إلى سامسارا. وبدعوةٍ منها، أمضيت قبل وقتٍ قصيرٍ شهراً في القصر. لم يكن ثمة شيءٌ يوحي بنهايةٍ بهذه الفظاعة. كانت جميلةً ومتألّقة».

اضطرب صوته وهو يستذكر. بدا كأنّه على وشك ذرف الدموع:

- أهديتها بمناسبة عيد ميلادها السابع عشر علبة مستحضرات تجميل. من منتجات نيفرتيتي الجديدة التي تنال استحساناً كبيراً حالياً. كريم أساس، أقلام حمرة، بودرة خدود، بودرة للأجفان. الفتيات مولعاتٌ بها.

لم يسبق أن سمع قاسم بها، إذ لم تكن آنّا ماريا تتزيّن أبداً. استدرك رمزي: «نظراً للروابط التي جمعتنا، وافق بيغ بوس عن طريق إحدى بنات عمي -لديّ قرابة مئة منهنّ، فقد كان لأبي خمسة عشر أخاً- وهي زوجة بيغ بوس الخامسة، على تكليفي بتحنيط جسدها. ينظّم بيغ بوس مآتم على مقاس حزنه. سيستمرّ الحداد الوطني أربعين يوماً، وسيكون على إيقاع "عاداتٍ" سوف يُعاد إحياء تقليدها. هذا يعني أنّ بيغ بوس ينوي ردّ الاعتبار لممارساتٍ منعها المستعمرون، الذين لم يكن ضميرهم يؤنّبهم وهم يضربوننا حتّى الموت. ستنزل مئة عذراءٍ من عمر أونوفريا إلى القبر معها، مصحوباتٍ بكلابها وقرودها وألعابها المفضّلة. ومن المتوقّع أن ينحني ما لا يقلّ عن مليون شخص أمام رفاتها الذي سيُعرَض ثمانية أيام في تابوتٍ زجاجي يُجلب من مورانو كي يتمكّن الجميع من إلقاء النظرة الأخيرة عليه».

قرّر قاسم أن يكون صريحاً: «لن أرافقك إلى "بورتو فيراي". أنا متلهّفٌ للعثور على عملٍ مدفوع الأجر. فمنذ كارثة دريم لاند، لم أعد أملك فلساً في جيبي ولا آفاق لديّ للحصول على المال قريباً».

«لكنّ ثروتي تكفي اثنين»، أجاب رمزي مبتسماً وهو يمسك بيده.

بوصف كيليرمان مايومبه غوادلوبيّاً صالحاً، كان يكره «اللوطيّين». لذلك، نبّه أبناءه الخمسة في عمرٍ مبكّرٍ من أولئك المنحرفين الذين

يتحرّشون بالصبية، وهم كثيرون في سوسي وفي العالم، لسوء الحظ! كان عليهم زيادة حرصهم، لأنّ كونهم خلاسيين سيجتذب اهتماماً مريباً. سحب قاسم يده وسارع للقول: «اعذرني، لكنّني لن أستطيع أن أمنحك ما تتوقّعه مني».

– ما أتوقّعه منك؟

ثمّ أطلق ضحكةً مجلجلة: «أنت مخطئ! أنا لا أخفي أنّه حدث عندما كنت في إنكلترا أن جامعتُ أكثر من فتىً غرّ. لكن في الحالة الراهنة، نواياي سليمة. وإذا ما تحدّثتُ بسوقيّة، سأقول إنّك لست من النوع الذي يعجبني».

في مخالفةٍ للمنطق، شعر قاسم بإهانةٍ بالغة. واصل رمزي: «أنت أخي الصغير. سبق أن قلت لك إنّه كان لوالدي خمسة عشر أخاً. أمّا أنا، فلم أختبر هذه السعادة قطّ. إذ غادرت والدتي هذا العالم لحظة أتيتُه بولادةٍ مقعدية. كانت من إسلام آباد، في باكستان. وقد اشتراها أبي، وكان مهرّباً، مع قطيعٍ من الماشية والماعز والجِمال وصغار الحمير وإناثها. لم تتكيّف يوماً مع سامسارا».

على العكس من ذلك، لم تكن ثمة مقارنة بالنسبة إلى قاسم بين رمزي وإخوته الأفظاظ والمجرّدين من الرقّة واللطف، إخوته الذين أساؤوا معاملته طيلة طفولته. في الواقع، شعر بالإغواء والعذاب في الآن عينه. هل يمكن أن يقع رجلٌ طبيعي أسيرَ سحر رجلٍ آخر؟ ماذا سيكون رأي كيلير؟

سأل وهو يشعر بالخزي من الالتباس الذي وقع فيه ومن مشاعره: «إذا وافقتُ، ما الذي سأفعله إلى جانبك؟».

– تساعدني في عملي في التحنيط. كلّما نظرت إلى يديك، ازداد إعجابي بهما.

هتف قاسم بدهشة: «إنّهما يدا طبّاخ!».

انساق الآخر إلى الافتتان:

- قويّتان وناعمتان في آنٍ معاً. إنّهما مجهّزتان على نحوٍ رائعٍ لأداء أصعب المهام. لجلب الحياة والعمل من أجل الموت.

أثناء تفحّص قاسم بشيءٍ من الرعب يديه، الكنزين اللذين لم يعرفهما على ما يبدو بعدُ، انحنى رمزي إلى الأمام:

- لقد حلمت الشعوب كلّها بالحفاظ على هيئات البشر لأطول وقتٍ ممكنٍ بعد الموت. هكذا، تمنّى الفيلسوف ديموقريطس أن يُحفظ جسده بالعسل. ويحكي لنا المؤرّخ ديودورس الصقلي بأنّ مواطنيه كانوا يستخدمون زيت الأرز للحفاظ على رؤوس من قتلوهم في المعركة. لكن في ما يخصّ التحنيط، وحدهم أميركيّو الولايات المتّحدة يمارسونه بمستوىً يوازي المستوى الذي بلغه المصريّون في مصر القديمة. إذاً، يتقارب شعبان عريقان في الحضارة والثقافة في هذه النقطة. يتمثّل التحنيط في تفريغ الجثمان من الدم والأحشاء والدماغ...

شعر قاسم بالقرف من هذه التفاصيل كلّها، فقاطعه بحدّةٍ وتمتم قائلاً: «سأكون مساعدك بما أنّ هذه هي رغبتك. أشكرك على طيبتك!».

في هذه اللحظة، انزلقت حفصة إليهما. كانت قد استبدلت بحجابها وشاحاً أرقّ، لا يتمكّن من ضمّ شعرها المكوّن من خصلٍ كثيفة. مجدّداً اجتاحت الرغبة قاسماً، فجهد لعدم إظهارها لأنّ رمزي كان يراقبه بنظرةٍ لا يفوتها شيء.

- أخطرتُ الطيّارين. ستكون الطائرة مستعدّةً للإقلاع في الرابعة صباحاً. بذلك ستصل باكراً جداً إلى "بورتو فيراي"، ويكون النهار كلّه متاحاً لك.

أشار رمزي إلى قاسم وقال: «أقدّم لكِ معاونك، مساعدي الجديد».

فوجئت حفصة، لكنّها لم تحتجّ. أمرَ رمزي: «أريد أن تحصلي له على وثائق بأسرع وقتٍ ممكن».

كتبت حفصة الملاحظة، في إظهارٍ للطاعة.

واصل رمزي: «الأدبيات الجيّدة في هذا الموضوع، وكذلك في مواضيع كثيرة أخرى، هي بالإنكليزية. لكنني أعلم أنّك، مثلي، متآلفٌ مع لغة شكسبير وأنّ هذا الأمر لن يكون عقبة. لاحِظ، لن تستطيع الحصول إلّا على معلوماتٍ أوّليّة. أنا المعلّم الوحيد لهذا الفنّ. اخترعتُ سائلاً خاصّاً يزيد مرونة الجلد عندما يُحقَن في الأوعية بدلاً من الدم ويمنحه توتّراً مخملياً أكبر بكثيرٍ ممّا يتمتّع به عادةً».

تنهّدت حفصة التي جلست قربهما وقالت: «تأكّدتُ منه في حالة أختي. كانت وجنتاها حريريّتين أكثر، وشفتاها قرمزيّتين أكثر ممّا عندما كانت عليه وهي على قيد الحياة».

سأل قاسم بتعاطف: «أنتِ فقدتِ أختك؟».

رمزي هو الذي تولّى الشرح: «توءمها آسيا سبقتها في خدمتي. وقد رشّحتْها لي المدرسة الدولية للسكرتاريا الإدارية، بعد أن احتلّت المرتبة الأولى على دفعتها في التخرّج. جوهرة حقيقيّة. لم يكن العمل معها عملاً، بل سعادةً في كلّ لحظة. كانت تقرأ لي سُوَرها مثل شخصٍ تقيّ».

– ما سبب وفاتها؟

قال رمزي متمتماً: «توقّفٌ في القلب. لم يكشف تشريح الجثة أيّ شيءٍ آخر. فبسبب سعيها الحثيث إلى الكمال وهوسها بإرضائي، كانت ترهق نفسها وأنا كنتُ ساهياً، فلم تساورني أيّ ريبة».

أجهشت حفصة بالبكاء من دون أيّ تحفّظ، واحتار قاسم في كيفية التصرّف. بعد برهة، تنهّد رمزي: «يا لجمالها والكفن يغطي كلّ شيء إلّا وجهها! كان يبرز من البياضات وكأنّه زهرة. وأولئك الذين كُلّفوا بدفنها لم يستطيعوا المضيّ في دفن هذه المعجزة من الكمال. بقوا واقفين إلى جانب الحفرة المفتوحة».

قال قاسم باستغراب: «لماذا تحنيطها؟».

– لقد قلت ذلك. جميع البشر يتشاركون الرغبة عينها في الحفاظ على الجمال. والتحنيط هو الوسيلة الوحيدة لتجنيبه اعتداء التعفّن الذي يلي الموت.

قالت حفصة: «لكنّ ديننا يمنعه!».

فأجاب رمزي بفظاظة: «أكرّر أنّ الأمر خطأ! عندما يأتي يوم القيامة، ما الذي سيفعله الموتى عندما يقومون إن لم يجدوا أجسادهم؟ كيف سيقرأ الله الصحف التي ستُفرد حول عنق كلّ منّا؟ ربّما نحوم كأرواحٍ متألمة. وقد تحسّب المصريون لهذا الخطر، إذ كانوا يؤمنون هم أيضاً بيوم القيامة، ولو في سياقٍ مغايرٍ تماماً. أمّا نحن، فلم نتحسّب له».

فهِم قاسم بأنّ موضوع النقاش ذاك كان متكرّراً بين حفصة ورمزي. أمّا هو، فقد بقي صامتاً. إذ لم يكن لديه أيّ تبحّرٍ في هذا المجال ولم يكن له أن يتدخّل في الخصام. آنذاك، أعلن أحد الخدم أنّ العشاء جاهز فانتقلوا إلى مائدة الطعام.

تساءل قاسم: هل أرغب حقاً في أن أصبح مساعده، وفي أن أربّت على جثثٍ مزعجةٍ وسيّئة الرائحة؟

إذ كان الموتى يثيرون فزعه، حاله في ذلك حال معظمنا. لو أنّه ترعرع

في غوادلوب في مرحلةٍ من مراحل حياته، لما توانت العائلة عن أخذه إلى السهر على ميّت، حيث يُرغَم على تقبيل وجه ميّتٍ شديد البرودة والصلابة. أمّا في سوسي، فلم يقترب يوماً من أيّ ميّت.

بعد العشاء، انسحبت حفصة إلى غرفتها. مدَّ رمزي يده بسيجارٍ هائل الحجم لقاسم وسحبه إلى الخارج: «لقد صُنِعَت خصيصاً من أجلي في هافانا. انظر إلى الخاتم، إنّها الأحرف الأولى من اسمي، .R.A.N»؛ وأضاف من دون فاصلٍ انتقالي: «إنّها تعجبك، أليس كذلك؟ لكن حذارِ منها، فهي ساقطة».

.4

عندما بلغ قاسم الخامسة من عمره، وبعد أن كان رفاقه الصغار في دار الحضانة لطفاء عموماً، صنعوا دائرةً حوله وهم يغنّون بشراسة: «زنجي! زنجي!».

كان يجهل تلك الكلمة التي سمعها لأوّل مرّة، لكنّه فهم من تعبير الأطفال أنّها كلمة جارحة، شتيمة. سارع إلى البيت وأخبر أباه بالحادثة. كان كيليرمان في قاعة الرياضة التي رتّبها، يرتدي بيجامة الرياضة ويمارس تمارين البطن بموجب المثل القائل: *mens sana in corpore sano*(*). استمع لابنه وردّ بهدوء: «أنت لست زنجياً، على الإطلاق. أنت خلاسيّ. أبوك أسود من غوادلوب، وأمّك بيضاء من رومانيا. وعلى كلّ حال، لو أنّك زنجيٌّ لكان ذلك شرفاً لك. لعنى ذلك أنّك أتيت من إفريقيا، مهد الحضارة. لا تنسَ أبداً أنّ مصر السوداء قد نشرت الحضارة في العالم».

ثمّ ذهب ليُحضِر من مكتبته مجلّداً ضخماً ذا غلافٍ جلدي هجّأ قاسم عنوانه: إفريقيا الأمّ، مسبوقاً باسمٍ إنكليزي. نظر الابن إلى الصور بفضول،

(*) العقل السليم في الجسم السليم.

فأكّد كيليرمان قائلاً: «كلّ شيءٍ هنا. ستقرؤه عندما تبلغ العمر المناسب لقراءته».

أعاد الكتاب إلى مكانه على الرفوف. عاد قاسم إلى المدرسة مطمئناً، مستعدّاً لمواجهة دوائر أخرى حوله. لكنّ تلك الدوائر لم تتشكّل ثانيةً. غير أنّ الأطفال باتوا يعاملونه وكأنّه مجذوم، فتوقّفوا عن اللعب معه بكلّ بساطة. صار يأكل خبزته وقطعة الشوكولا بمفرده في إحدى زوايا باحة الفرصة.

عندما بلغ الحادية عشرة من عمره، انتسب إلى ثانوية بول إيلوار. كان أستاذ التاريخ مغرماً باليونان، يتغنّى بمعجزاتها من دون كللٍ أو ملل. في الدرس المكرّس لإفريقيا السوداء، أعلن أنّ سكّانها بدائيّون خطرون، لذا كان لا بدّ من استعبادهم لمصلحتهم، لتمدينهم. تذكّر قاسم المجلّد الذي تصفّحه قبل بضع سنوات. لا شكّ أنّ الإجابة تكمن فيه. سارع إلى البيت وركض نحو المكتبة. لم يعد الكنز موجوداً. فاعترف له كيليرمان الذي كان يزرع الخضار ويرويها بموجب توصية فولتير(*): «فلنزرع حديقتنا» بأنّه اضطرّ بسبب نقص الأموال إلى بيع كتبه النادرة لبائعٍ متجوّل. حقد عليه قاسم بسبب هذا العذر الدنيء وبكى كثيراً.

إنّها صورة حياته: لم يمتلك يوماً أدواتٍ يدافع بها عن نفسه عندما يحتاجها. انقضت مراهقته وهو يشعر بالوحدة. لم يكن لديه صديقٌ واحد. ولا فتاة مقرّبة. حتّى بنات الليل شتمنه ولم يردّ عليهنّ.

قبل آنّا ماريا، وباستثناء الحادثة المضحكة المبكية مع أستاذة ثانوية بول إيلوار، وكانت جِماعاً سريعاً بوضعية الوقوف على بُعد خطوتين من

(*) Voltaire (1694-1778): كاتبٌ وفيلسوفٌ وموسوعيٌّ ورجل أعمالٍ فرنسي.

السبّورة السوداء، لم يكن قاسم قد مارس الحبّ حقاً مع فتاة. ليلة نجاحه في الشهادة الثانوية -وكان أوّل الحاصلين عليها في عائلة مايومبه، إذ إنّ أشقّاءه كانوا كسولين، يجلسون في المقعد الأخير من قاعات الدراسة للتفكير في مقالب «عصابة الأربعة»-، انضمّ إلى الرفاق النادرين الذين يقبلون به للذهاب إلى مدينة ليل والتحرّر من القيود. عشاءٌ مصحوبٌ بكميّةٍ كبيرة من الكحول في مطعم ماريو. وبعد ذلك، العاهرات.

لا تتمتّع عاهرات ليل بصراحة مثيلاتهنّ في أمستردام اللواتي يعرضنَ بوضوحٍ مفاتنهنّ المسعّرة. كلّ شيءٍ يتمّ في أحياء مرائية بعيداً عن وسط المدينة، في مبانٍ من الحجارة القاتمة تبدو بريئة المظهر. دقَّ الحاصلون على الشهادة، وقد اشتعلت حواسّهم بفضل النبيذ وفودكا سميرنوف، باباً فُتح على صالةٍ برجوازية، بأثاثٍ عفا عليه الزمن. بدت سيّدةٌ شقراء كلعبة باربي، ترتدي ثوباً واسعاً صُنع بالمخرز وتتعثّر بسبب كعبها الرفيع. اعتذرت، لأنّ الازدحام شديدٌ يوم السبت وجميع الفتيات مشغولات، باستثناء عاهرةٍ تحيك شالاً من الصوف الزهري.

هتفت وهي تشير إلى قاسم: «لا! لا أريد ذاك!».

فسألت السيّدة وهي تسايرها وتداعب خدّ قاسم: «لماذا؟ الصغير لطيف. كنت سأهتمّ به بنفسي لولا أنّني مشغولة».

فأجابت الثانية بحدّة: «ربّما! أمّا أنا، فلا أحبّ أولئك الذين فشلت عمليّة تبييضهم».

فكّر قاسم بكلماتها. قال في نفسه إنّ أحداً لم يطلق عليه قبلاً مثل هذه الصفة!

نهضت العاهرة وأشارت إلى الآخرين بأن يتبعوها. كانت ثقيلةً نوعاً

ما، غير يافعة، وذات شعرٍ لم تُحسِن تصفيفه بمكواة الشعر. تشبه دراستا، والدة قاسم، فتراءى له أنّها نبذته مرّةً أخرى.

وجد قاسم نفسه في الخارج. كانت ليلةً صيفيةً والناس بملابسهم الخفيفة يضحكون على مصاطب المقاهي. استقلّ الحافلة ليعود إلى سوسي وبعد أن دخل غرفته، استمنى على نحوٍ أعنف من المعتاد، وهذا كلّ شيء.

بعد بضعة أشهر، دخل مسرعاً إلى مكتب مستشار توجيهٍ تربوي في ليل. قال له إنّه يبحث عن دراسةٍ قصيرةٍ تضمن له وظيفةً بأسرع وقتٍ ممكن. تنهّد المستشار كما لو أنّ أحدهم عرض عليه أحجيةً مستحيلة الحلّ، وأخرج كومةً من الملفّات من دُرجه: «الاتصالات: مغلق. الترجمة الفورية: مغلق. المعلوماتية: مغلق تماماً...».

ثمّ أضاف بعد قليل: «لا أستطيع أن أقترح عليك سوى مهنةٍ مرتبطةٍ بالسياحة. هذه المهن هي الوحيدة التي تعمل تقريباً».

فسأل قاسم، بريبة: «ما هي هذه المهن؟».

- ثلاث سنوات في المدرسة الفندقية. ثمّ بشيءٍ من الحظ، قد تجد مكاناً كطبّاخٍ أو نادلٍ في مشربٍ أو كمقدّم حفلاتٍ لطيفٍ أو منقذ سباحةٍ في واحدةٍ من تلك الشركات: آكور، إيبيس، ميركور، ميريديان.

فأكّد قاسم: «هذا بالضبط ما يناسبني!».

حزم أمتعته وذهب إلى باريس. شعر كيليرمان بالحنق لأنّه لن يحصل أخيراً على الابن الطبيب أو المحامي أو المهندس المعماري، الذي كان يأمل في الحصول عليه، ولم يأتِ يوماً لزيارته في المدرسة الواقعة في جادّة بونياتوفسكي. ودراستا أيضاً لم تأتِ. على الأرجح خشية إزعاج أبيه. لم

تكن لتفعل شيئاً يمكن أن يثير غضب سيّدها ومعلّمها. فلنعترف بأنّها كانت ترسل إلى قاسم باستمرارٍ حوالات مرفقةً ببطاقاتٍ تحمل الكلمات التالية: «أمّك التي تحبّك». بدلاً من زيارة أهله له، تلقّى ذات مساءٍ زيارةً غير متوقّعة من كيليرمان جونيور، أخيه البِكر. عندما كان الإخوة أطفالاً، تحرّش كيليرمان جونيور بهم واحداً تلو الآخر، وهو الذي كان عملاقاً بلغ طوله في الرابعة عشرة من عمره متراً وتسعين سنتيمتراً، لكنّه لم يمسس قاسماً أبداً. وعندما كان قاسم يسمع الجلَبة القادمة كلّ ليلةٍ من أحد أسرّة «غرفة الصبيان» مثلما كانت تُسمّى، يشعر بالعار من أنّه يعاني هذا الإقصاء ويعذّب نفسه: لماذا ليس أنا؟

كان كيليرمان جونيور يرتدي بزّةً من ماركة جورجيو أرماني. لكن على الرغم من هذه الأناقة، بدا منغَّصاً. يواصل الاتصال بأرقامٍ على هاتفه المحمول، من دون أن يتلقّى جواباً. وأمام كلّ فشل، يكفهرّ وجهه الوغد الجميل. نظر حوله بازدراء: «أمن أجل أن تصل إلى ما أنت فيه أزعجتنا كلّ تلك السنوات؟».

فسأل قاسم مندهشاً: «ماذا تقصد بأنّني "أزعجتكم"؟».

– كنت تبدي تعالياً علينا. تنفخ صدرك: «أنا لا آكل الخبز عينه الذي تأكلونه(*). أنا مختلف».

فوجئ قاسم، وكاد يبكي. كم العالم مختلّ! هكذا إذاً، هذا هو الانطباع الذي يعطيه، هو الذي لم تكن لديه سوى رغبة واحدة: اختراق الحصن الذي بدا له ممنوعاً عليه، احتلال مكانه فيه! أيّ هوّةٍ تفصل بين الكينونة والمظهر!

(*) تعبيرٌ يعني عدم الانسياق للسلوك غير القانوني أو غير الأخلاقي.

تمالك نفسه: «لم تأتِ إلى هنا لمجرّد أن تقول لي ذلك، صحيح؟».
فتمتم كيليرمان جونيور بغموض: «كنت قريباً فصعدت».
ثمّ سأل: «هل أستطيع أن أنام هنا؟».
فسارع قاسم للإجابة وهو يخفي ذهوله بقدر ما يستطيع: «بالطبع!».
فتح ثلّاجته، لكنّ كيليرمان هزّ رأسه: «هل لديك ويسكي؟».
فقال قاسم بنبرة اعتذار: «لديّ قليلٌ من الفودكا فحسب».
عبس الآخر: «لا شيء غيرها؟».

كان قد أفرغ الزجاجة. عندما استيقظ قاسم، اكتشف أنّه رحل. من دون أيّ تفسير، من دون أن يكلّف نفسه عناء ترك رسالة. طيلة النهار، تساءل قاسم: ما الذي لم أفعله وكان عليّ فعله؟ ما الذي كان كيليرمان جونيور يتوقّعه منّي؟

بعد أسبوع، احتلّت صورة كيليرمان جونيور الصفحة الأولى من صحيفة فرانس سوار. مخدّرات. كان من بين أخطر التجّار. مرّةً أخرى، تراءى لقاسم أنّه لم يفهم شيئاً.

جافاه النوم بسبب الإثارة التي تسبّبت بها هذه البلبلة من الذكريات وحداثة عهده بالمكان. فكّر أيضاً بآنّا ماريا التي لن يراها بعد الآن أبداً. ربّما لم تكن فائقة الجمال، لكنّ حبّه لها كان بالغ العذوبة. نظر إلى ساعته. الرابعة صباحاً. نهض وذهب لتنشّق الهواء عند النافذة. رأى في الحديقة نقطةً حمراء تتنقّل تنقّلاً متعرّجاً. سيجار رمزي. ثمّ ميّز لون قفطانه الأبيض. كان يتوجّه، وبرفقته ظلال أشخاص، نحو المختبر الذي بات مضاءً بالكامل. أفي مثل هذه الساعة؟ رأى رجالاً يخرجون منه وهم يحملون شيئاً على أكتافهم. ما الذي يجري؟

لم يكن قاسم يتميّز بالشجاعة، بل بالفضول. تسارع خفقان قلبه. من هو حقاً رمزي؟ يا له من لغز! رجلٌ من صفوة القوم، يعترف بأنّه لا يصلّي. محسنٌ يحتقر رعاياه. شماليٌّ يعامله الجنوبيّون كسيّد. بعد تردّد، انسلّ إلى الممشى. لكن عندما وصل إلى الحديقة، لم يكن ثمّة ما يتحرّك. اختفى الرجال. والمختبر ينام في العتمة.

ظنّ أنّ ما رآه أضغاث أحلام.

وبّخ نفسه: «ما علاقتي بهذا كلّه؟»، وعاد للنوم. «في كلّ الأحوال، ليس من شأني معرفة من هو رمزي حقّاً».

.5

بعد بضع ساعات، طرق خادمٌ بابه لإيقاظه. نهض وارتدى ثيابه باستعجال.

في تلك الساعة الصباحية، بدت السماء بلون بُركةٍ من الحليب. الأرض غارقةٌ في ضبابٍ، أبيض هو الآخر، ينبثق منه في بعض المناطق لون الأشجار الأخضر، مثلما يطفو حطام سفينةٍ غارقةٍ فوق ماء البحر.

تأرجحت طائرةٌ صغيرةٌ على مدرج المطار الفارغ، فقد تأثّرت رحلات وكالات السفر الدولية بعد أن وصلها خبر الاعتداء بفضل نشرات الأخبار التلفزيونية - ثمانية عشر قتيلاً ومئات المفقودين. تستطيع جوهرة التقنية الغربية هذه أن تنقل تسعة مسافرين. انتشر الحرّاس الشخصيّون الستّة على جانبي أبواب الطائرة في حين استقرّ في الخلف رمزي وقاسم وحفصة، حفصة التي لم يكن ممكناً التعرّف إليها ببرقعها الأزرق المخطّط الشبيه بما ترتديه النساء الأفغانيات التعِسات. بدأت تنقر على أزرار حاسبها المحمول بأصابعها السمراء، من دون أن تضيّع لحظةً واحدة.

فكّر قاسم: ألا تبالغ؟ تبدو أشبه بممثّلةٍ تؤدّي دورها بأفضل ما تستطيع!

يخال المرء أنّها تريد إثبات كونها المساعدة الممتازة. وإذا ما تابعت على هذا النحو، فسوف تسير في طريق أختها! أزمة قلبية تنهي حياتها في لحظة!

سألها: «على ماذا تعملين؟».

فردّت بنبرةٍ متغطرسة: «على خطاب تأبين! أنا شبه متأكّدة من أنّ الرئيس سيَرجو الدكتور أن يلقي خطاب تحيةٍ لأونوفريا».

أمّا رمزي، فقد غرق في قراءة كتابٍ أصغر بكثيرٍ من أن يكون القرآن. لوى قاسم عنقه وتمكّن أخيراً من قراءة العنوان.

مكيافيللي(*)، الأمير.

ماذا يمكن أن يكون هذا الكتاب؟ رواية؟ دراسة؟

شرح رمزي الذي خمّن أفكاره مرّةً أخرى: «إنّها دراسةٌ عن سلوك البشر». لم يكن ذلك الشرح واضحاً، لكنّه لم يقل أكثر من ذلك وغرق ثانيةً في كتابه. وبما أنّ أحداً لم يكن لديه وقتٌ يكرّسه لقاسم، فقد ألصق أنفه بالكوّة واستغرق في تأمّل المشهد الطبيعي.

تتّخذ خريطة البلد بصورةٍ تقريبيةٍ شكل مثلّثٍ متساوي الساقين. يشتهر الشمال المسلم بأنّه متخلّفٌ ويؤوي المناطق الأكثر فقراً. فتلك البادية التي تنتشر فيها أعشاش النمل الأبيض والصبّار الشمعداني، وتجوبها الأفاعي السامّة، هي مملكة الأنبياء المتزيّنين بالثوب الأبيض والمنادين باحترام كلمة الله، وكذلك الجماهير التي تتضوّر جوعاً والمستعدّة دائماً لإطاعتهم. وباستثناء سامسارا، لم يكن هنالك أيّ تجمّعٍ سكنيٌّ كبير، بل ليس فيها إلا قرىً متباعدة ترصّع القحل.

(*) Machiavelli (1469–1527): منظّرٌ إيطاليٌّ في السياسة والتاريخ والحرب، كما أنّه شاعرٌ ومؤلّفٌ مسرحي.

كلّ شيءٍ تغيّر من دون حلٍّ وسط. إذ يتكوّن الجنوب من مجموعةٍ من المقاطعات الكاثوليكية رسمياً، لكنّها في الحقيقة فيتيشية، إحيائية حسب قول بعض الناس وحسب قول بعضهم الآخر مشركة، وهي تسميةٌ قويمةٌ سياسياً. يتراءى للمرء أنّ عصا ساحرٍ سحرية حوّلت الحصى إلى أحد بلدان الحليب والعسل التي يعِد بها الكتاب المقدّس من يختارهم. ففي كلّ مكان، يحلّ الأخضر محلّ البنّي أو الأصفر الصحراوي. تتدفّق الأنهار والجداول وسط كثافة الغابات التي يتراقص المحيط على أطرافها. احتفظ قاسم من مخيّمات العطل في بحر الشمال، حيث كان يذهب في طفولته، بذكرى امتدادات رملٍ لا تنتهي، يكنسها هواءٌ لاسعٌ وتحاذي ماءً داكناً. أمّا هنا، فتقفز أمواجٌ زمرّديةٌ إلى داخل تجاويف عميقة في صخورٍ هائلة، قرمزيةٍ أو رماديةٍ داكنة.

وصلوا إلى «بورتو فيراي» في الصباح الباكر.

بعد أن تجاوزوا مدن الصفيح المزدحمة بالسكّان، بحصّتها من البؤس والقذارة بحيث لا تعود العين تلاحظها، سُحر قاسم بعمران المدينة. فعلى الرغم من قذارتها وحالة تدهورها الراهنة، يستطيع المرء تخمين أنّها كانت فريسةً مرجوّةً لأممٍ أوروبيّةٍ متعاقبة. سقطت نهائياً في القرن الثامن عشر في يد الفرنسيين الذين جعلوا منها إحدى درر إمبراطوريتهم الاستعمارية. وقد احتفظت ببقايا مغوية، وكأنّها امرأةٌ جميلةٌ في أوائل شيخوختها. كنائس باروكية، أبنيةٌ ذات شرفاتٍ من الحجر المخرّم، داراتٌ غير منتظمة الأشكال. أمّا النباتات، فتثير الدهشة. إذ تنتشر في كلّ مكانٍ الجهنّمية والخطمي وجنسٌ من الأكاسيا ذو كراتٍ كبيرةٍ كالشموس.

علامةً على الحِداد، وُضعت مكبرات صوتٍ في تقاطعات الطرق تبثّ

قدّاساً جنائزياً لدفوراك(*) وهي مقطوعةٌ كانت أونوفريا تحبّها كثيراً، وهي الموسيقيّة الماهرة.

سكنُ الرئيس مدينةٌ حقيقية. تخيّلْ مجموعةً من الأحياء التي تفصل في ما بينها مساحاتٌ غير منتظمةٍ من الغابة الاستوائية، أعاد بيغ بوس تشكيلها شجرةً شجرة بعد رحلةٍ له إلى البرازيل. الماهوغاني والعرعر والإيروكو. وتنتهي بغابة مانغروف كاملة بأشجار المانغروف والقرام ذات الجذور المتقوّسة والمتطاولة. المبنى الرئيسي هو القصر الرئاسي، وهو مبنىً من المرمر الأبيض يشبه كعكة جبنٍ نيويوركيةٍ مهيبة. وبما أنّ أحداً لا يجرؤ على معارضة نزوات الأقوياء، فقد رسم الرئيس مخطّطاته بنفسه. والحال أنّه لم يكن صاحب خبرةٍ في هذا المجال، بل على العكس تماماً! لذلك، ومنذ خمسةٍ وعشرين عاماً، تاريخ صعوده على أثر انقلابٍ دمويٍّ على الكرسي الرمزي للملك أميناغو الأول الذي ورثه عن أسلافه ضمن سحابةٍ عجائبيةٍ قرمزية اللون، حاول مهندسون معماريون إعادة موازنة بنيته وإصلاح ميول أسقفه وإعادة قولبة كلابه الجالسة وإطالة سطيحاته. أعادوا عشرات المرات ترتيب حمّاماته السبعين، غير أنّ الماء رفض الصعود في مرشّات الحمّامات، وأخذت صنابير أحواض الاستحمام المذهّبة تبصق سائلاً لزجاً يميل إلى السواد. لم تكن جلبة التمديدات الصحية محتملةً، ليلاً نهاراً.

شعر قاسم بالنشوة.

ليس لهذه العيوب الصغيرة في البناء أهمية! هو لم يرَ يوماً شيئاً مماثلاً في حياته! سحرته أعمدته التي تحمل رواقاً دائرياً وجدرانه المزيّنة بالرسوم

(*) Dvořák (1841-1904): يُلفظ اسمه أيضاً دفورجاك، مؤلّفٌ موسيقيٌّ تشيكي.

الجدارية وجناحه الواقع في الطابق الثالث. الجناح يطلّ على مسكبةٍ من الخيزران الياباني الذي يغنّي وفق أهواء الرياح. لاحظ أنّه، شأنه شأن البشر جميعاً، يحبّ الفخامة التي جرّب شيئاً من طعمها في الليلة السابقة عند رمزي. لا شيء ممّا يمكن مقارنته بالمساكن البائسة التي عاش فيها حتّى الآن.

ففي سوسي، بعد أن انتقلت العائلة قرابة عشر مرات، استقرّت في بيتٍ يشبه بيت كاديه روسيل(*). أطلق عليه كيليرمان بفكاهةٍ غير معهودة لديه تسمية «التخشيبة». اشتراه بسعرٍ زهيد، وأمضى بسبب ذلك أوقات فراغه كلّها في سدّ ثغرات السقف وتمديد المياه الجارية والتدفئة المركزية وإضافة غرفة غسيل وصالةٍ للدراسة وصالةٍ للّعب وأخرى للرياضة، أي كلّ ما ينقصها بشدّة. على مدى السنوات، اكتسب البيت قيمةً وكان يؤكّد أنّه يمكن أن يباع الآن بمليون يورو.

غاص قاسم في السرير الوثير وصدرت عنه تنهيدة ارتياح. آه! أيّ أحلامٍ سعيدةٍ سيرى! أيّ حياةٍ جميلةٍ سيعيش في هذا الإطار الجديد! أثملته فكرة أنّه لم يعد شغّيلاً.

فجأةً، دخل رمزي الذي يحتلّ الملحق المجاور من دون أن يطرق الباب. لم يشعر قاسم بالصدمة بسبب ألفته، بل بسبب زيّه. هل سيمثّل في نسخة فيلم رعب جديدة؟

على خصره مئزرٌ من المطاط البنّيّ الغامق. وعلى رأسه إحدى تلك القبّعات المصنوعة من اللدائن البلاستيكية الخضراء الفاتحة، القليلة الملاءمة، التي يضعها الجرّاحون، ولا سيما الأميركيّون منهم. على أنفه

(*) Cadet Roussel: شخصية أغنية فرنسية شهيرة للأطفال من القرن الثامن عشر.

نظّارةٌ ويجرّ خلفه صندوقاً فتحه وهو يشرح قائلاً: «هذه أدوات عملنا. أبدأ بالمبزل».

فسأل قاسم متلعثماً وهو ينظر إلى الأداة الرهيبة: «بماذا يفيد؟».

أجاب رمزي بلطف: «بإفراغ الدماغ. فلتعلمْ أنّ مقرّ الذكاء هو أيضاً العضو الأكثر قابليةً للتلف في الجسم البشري. ينبغي نزعه، والأفضل أن نفعل ذلك عبر المنخرين. وإلّا فهو سيُفسِد بقيّة الجسد في وقتٍ قصير».

أمره قائلاً: «هيّا، ارتدِ ملابسك! إلى العمل! ليس لدينا وقتٌ لنضيعه».

اضطرّ قاسم للنهوض وارتداء ملابس مماثلة.

سلكا درباً يمرّ بغابةٍ روائحها لا توصف، وصولاً إلى جناح إيزابيل سيلينا. هذا المبنى المرمري المنفّذ على طراز تاج محلّ يخلّد اسم والدة بيغ بوس. قدّيسة! توفّيت قبل ذلك بثلاث سنواتٍ وتُنسب إليها نصف دزّينةٍ من المعجزات. فقد أنطقت الخرسان وأخرجت العميان من الظلمات التي كانوا يعيشون فيها. حالياً، هنا يرتاح جثمان أونوفريا، قبل أن تُسلّم لتبجيل الجماهير الشعبية لها. وعلى الرغم من فخامة المكان، فإنّ قداسة البابا لم يلقِ يوماً بالاً للكرادلة الذين توسّلوا إليه ليقيم فيه قدّاساً، على الرغم من كونه محبّاً للسفر من أجل الربّ. فكان يُتّهم همساً بالعنصرية. هل يمكن أن يكون بابا عنصرياً؟ ولمَ لا؟ فإن لم أكن مخطئةً، وُجد بابا متعاونٌ مع النازيّين، محبٌّ للجرمانيين، بل يمكن القول إنّه كان مناصراً للنازية.

وصل رمزي وقاسم بُعيد انسحاب الرئيس ليرتاح بعد أن استبدّ به الألم. لم يبقَ سوى الأقارب والمقرّبين، يشربون ويأكلون ويبكون ويصلّون. طردهم رمزي دونما مراعاةٍ لهم.

خلافاً لما كان الناس يتهامسون به في طول البلاد وعرضها، لم يمارس

بيغ بوس الحبّ يوماً مع أونوفريا، على الرغم من أنّه كان يحبّها حبّاً جمّاً. ليس لأنّه لم يكن يرغب فيها. ثمّ إنّ تاريخ العائلات الملكية كافّةً مليءٌ بزنا المحارم. بل يمكن القول إنّ زنا المحارم ملكيّ. لكن كلّما صارت مداعباته لأونوفريا أكثر إلحاحاً، أوقفته تلك القدّيسة الصغيرة، فانسحب وهو يشعر بالعار. كانت القدّيسة، ذلك الملاك المتجسّد، قد فقدت عذريّتها بين ذراعي برنار فيرديه، وهو فرنسي، أي مستعمرٌ قديمٌ أصبح مدير مركزٍ لمكافحة الإيدز. ثمّ كرّست نفسها للأعمال الخيرية قبل أن تُغرَم بقاتلها، الطبّاخ المسلم غارولاماي. وبخصوص هذا الأخير، خطّط بيغ بوس لإعدامه علناً. لم يكن ممكناً استخدام الكرسي الكهربائي بسبب مشكلاتٍ مرتبطةٍ بالطاقة، كالانقطاع المتواصل في التيّار الكهربائي، وهو انقطاعٌ يُغرِق البلد في عتمةٍ تدوم ساعاتٍ عدّة، جديرة بنيويورك. ما هو الحلّ الأمثل إذاً؟ الشنق؟ الرجم؟ قطع الرأس؟ لا أحد يعلم لماذا اختار أعضاء المجلس السرّي الخنق على الدُّرجة الإسبانية القديمة.

طيلة ما تبقّى من النهار، عمل قاسم ورمزي بدأبٍ حول المرحومة أونوفريا. استنتج قاسم الذي لم يرَها قطّ، وهي حيّةٌ، من جثتها أنّها كانت بالغة الجمال. شعَر بضيقٍ شديدٍ وهو يربّت على أكثر أعضائها حميميةً. وبدءاً من ذلك اليوم، كرِه عمله. لم يكن يتوقّع أن تكون مهنة التحنيط مُضنيةً إلى هذا الحدّ. الرائحة بخاصّةٍ كانت رهيبة. مزيجٌ من المطهّر ومضادّات الإنتان والعطور واللحم في بداية تحلّله. لكن في نهاية عملهما، اضطرّ للإقرار بأنّ الجسد الذي تأثّر بأسبوعٍ من الإسهال الشديد والتجفاف بدا وكأنّه استعاد زهوة الحياة.

آنذاك، قال له رمزي: «اذهب لتنال قسطاً من الراحة. أنا لا أثق بأحدٍ عندما أصل إلى اللمسات الأخيرة. انظر، تبدو في بعض الأماكن آثار

حروقٍ تعود إلى المواد الكيميائية. سوف يخفيها تزيينٌ مدروس. مساحيق نيفرتيتي هي الأفضل في هذا الصدد».

خرج قاسم إلى الحديقة الغارقة آنذاك بالعتمة، وتنفّس بعمقٍ الهواء النقي.

فجأةً، انفصلت حفصة عن جذع إحدى الأشجار، ترتدي ملابس على الطريقة الغربية. اختفى التشادور والبرقع. قميصٌ من نسيجٍ ذي مربّعات لا أكمام له وسروالٌ قصيرٌ مصنوعٌ من القطن الأميركي. بدت وكأنّها أصبحت شخصاً آخر. بدا أنّ حدس قاسم يتحقّق. حفصة ممثّلة. إنّها تخفي لعبة! لكن أيّ لعبة؟

همست بصوتٍ مستتار: «أين هو؟».

– مَن؟

– رمزي بالطبع! عمّن تريد أن أتكلّم؟

أشار إلى الجناح: «إنّه هنا في الداخل. يهتمّ باللمسات الأخيرة...».

قاطعته بغضب: «لماذا تركته بمفرده؟ لم يكن يجدر بك فعل ذلك.. لم يكن يجدر بك تركه قيد أنملة».

لم يُبدِ قاسم تأثراً بغضبها، إذ أخذ يتأرجح من ساقٍ إلى أخرى ويغسل عينيه بالمشهد: ساقان ممشوقتان، ذراعان ممتلئتان، صدرٌ صلب! آه! ثمة نساءٌ خُلقن حقّاً لدفع الرجال إلى التهلكة!

أمرته قائلةً: «يا لك من أبله! عُدْ من حيث أتيت! اذهب لترى ما يفعله!».

أبله؟ لم يقبل قاسم هذه الشتيمة. فهو لم يعبر البحار ليتلقّى الشتائم.

ردَّ مستاءً: «عودي إلى هناك بنفسك! أنا ذاهبٌ إلى النوم».

أدار لها ظهره وواصل طريقه بخطواتٍ واسعة.

.6

شهد اليوم ما بعد التالي مأتم أونوفريا في كنيسة سيكست، التي مُدّت عليها الأوشحة البيضاء وتكدّست فيها جبالٌ من الأزهار القادمة من فرنسا بالطائرة. أقام الصلاةَ أمام جمهورٍ مُصغٍ الأحبارُ الأربعة الذين ارتدوا أثواباً من البروكار القرمزي، حَبرٌ عن كلّ منطقةٍ إداريةٍ في البلد. أتى عازف الأرغن اليهودي، أحد أشهر العازفين في مجاله، من فيينّا، وأتى الكورس من جوهانسبورغ، في إفريقيا الجنوبية. وفي حين احتلّ رمزي مكانه بين الشخصيات المهمّة، وجد قاسم نفسه محصوراً بين الجمهور في أحد المقاعد الأخيرة. ومن حيث جلس، أخذ يلوي عنقه لرؤية الرئيس الذي لم يكن يعرف قسماته إلّا من صور التلفزيون. بدينٌ مدوّر الوجه له شاربا مغنٍّ كوبي. وجهٌ طيّب، على النقيض ممّا يمكن أن يتخيّله المرء بخصوص شخصٍ دمويٍّ شهير. كان الناس يؤكّدون أنّه اغتال إخوته الأربعة بدفعهم لتناول طبقٍ مسمومٍ من العدس، وهي نسخةٌ جديدةٌ للمأساة التوراتية. ربّما كانت المعلومة خاطئةً وربّما مات إخوته موتاً طبيعياً لمجرّد تناول صلصة سمكٍ فاسدة لم يأكل هو منها. إنّها المخيّلة الشعبية السرّية للحكايات، تلك المخيّلة التي يتراجع أمامها أشدّ الكتّاب الروائيين جرأةً.

كافح قاسم لكيلا ينام، لشدّة ما كان الجوّ ضاغطاً، بحرّه وبما يحمله من عطر الأزهار. فهذه الروائح والشموع والموسيقا تذكّره بالزمن الذي كان فيه صغيراً ويحضر القدّاس الكبير مع أمّه وإخوته وأختيه.

لم يكن قاسم محقّاً عندما اعتقد أنّ دراستا لا تكنّ مشاعر لأبنائها. ففي الحقيقة، بلغ من حجم حبّها لكيليرمان أنّه حجب حبّها لأبنائها، وكان بذلك أشبه بتلك الأشجار النهمة التي تنشر الظلّ واسعاً بحيث لا ينمو شيءٌ تقريباً حولها. ترعرعت دراستا في مزرعةٍ بائسةٍ في رومانيا. ثمّ توفّي والدها، إنهاكاً على الأرجح. تخلّت مع أختها أراكسي عن أمّهما العجوز التي لم تعِش طويلاً بعده، وباعتا الدجاجات والديكة الرومية، وسلكتا طريق فرنسا، حيث توجد ألف طريقةٍ لكسب العيش حسبما سمعتا من الناس. بقيت أراكسي في باريس حيث أخذت تمارس البغاء في غابة بولونيا. أمّا دراستا، فوحده الله يعلم كيف حطّت الرحال بها في سوسي حيث عملت بالتنظيف في المدرسة الحكومية. استقرّت في المسكن الذي خصّتها به البلدية: غرفتان بحجم منديل جيب، تقعان في آخر باحةٍ تنمو على بلاطها الأشنيّات الخضراء. ذات يوم، طُرق الباب. رسالة مسجّلة! من يمكن أن يكون المرسل؟ لكنّ دراستا لم تطرح على نفسها ذلك السؤال، ولم تنظر إلّا إلى ساعي البريد الذي أخذ يتصفّح دفتره ذا الأرومة وهو يلتهمها بنظره.

- وقّعي هنا!

كم كان وسيماً! أسود. بأجمل درجات السواد. لم تتمكّن من مقارنته إلا بملكيور، الحكيم المجوسيّ حامل البخّور والمُرّ. ما الذي حمله لها هذا الشاب؟ لن تتأخّر في اكتشافه: الجنس. متعة لم تحلم بها مطلقاً. ما

الذي كانت أمّها ستقوله لو سمعتها وهي تتأوّه وتصيح بين ذراعين من الأبنوس؟

لحسن الحظ، العجوز بعيدة! في ريجاكفيك!

لم يتزوّجها كيليرمان، بسبب عدم استعجاله، إلّا لدى ولادة الطفل الثالث، وكان هو الآخر صبياً. ربّما استسلم آنذاك لفهم أنّ الوجود لا يخبّئ له أيّ حوافز، أيّ هديّةٍ غير متوقّعة. بعد سنواتٍ أمضتها الأسرة في مساكن مؤقّتة، انتقلت إلى «التخشيبة»، وهي مبنىً لم يكن غنياً إلّا بالمساحة التي تُغسل فيها الحفّاضات يدوياً في مياه الشمال المثلجة. تحمّلت كلّ شيء: صمته وسورات غضبه وتأنيبه الظالم وخياناته، لأنّه كان يجتذب النساء في سوسي، جميع النساء، حتى أولئك اللواتي يزممن شفاههنّ ويصفنه بأنّه «حقير» أو «وضيع» عندما لا يكنّ بمفردهنّ. مضت الحياة رتيبةً، وتخلّلتها ولادة الأطفال وأسنانهم الأولى وخطواتهم الأولى. في شهر كانون الأول من إحدى السنوات، قَدِم إيلير، ابن إحدى أخوات كيليرمان، لقضاء عيد الميلاد في سوسي. هو أيضاً اضطرّ لمغادرة البلد وانتسب إلى سلك الشرطة. في مرسيليا. أثناء مراقبة الخال وابن أخته طهي السجق وتحميرهما لحم الخنزير على نارٍ هادئة، استمعا بهناءٍ لموسيقا السالسا. في السنة التالية، عاد إيلير مع زوجته، جزائرية لا تأكل لحم الخنزير، ويكفي أن نقول ذلك. ثمّ اختفى.

كان قاسم سيُفاجأ لو علِم أنّه المفضّل في قلب دراستا. آخر العنقود الذي أنجبته وهي في حدود الأربعين من عمرها. لم تكن أفكار الشيخوخة قد بدأت تجوب ذهنها فحسب، بل إنّ كيليرمان لم يعد آنذاك نهماً لجسدها، فأخذ يهملها من أجل الشابّات الجسورات اللواتي يبعن

الدواجن في السوق، يوم الأحد. في عينيها، كان قاسم هو الأجمل، أسمر ومخملياً مثل فاكهةٍ في آخر الموسم. صحيحٌ أنّه كان ضعيف البنية. كما أنّ خجله وحساسيته جعلا جميع الناس يستغلّونه. لكنّه كان ملْكاً لأبيه. فمنذ ولادته، مارس كيليرمان حقّه في الشفعة قائلاً: هذا لي أنا!

بعد نشيدٍ أخيرٍ أدّته الجوقة، توقّفت الموسيقا. خرج الجمهور مهرولاً. تكدّس الناس العاديّون في الحافلات التي صودرت من أجل نقلهم إلى المقبرة، في حين استقلّ أصحاب النفوذ سيّاراتهم البرّاقة. تأمّل الغلمان بإعجابٍ سيارة رولز رويس تعود لسفيرٍ سابقٍ في المملكة المتّحدة.

بقي قاسم بمفرده، فسلك طريق القصر.

في الأسبوع التالي، توفّيت خمس شابّاتٍ في محيط الرئاسة. عاملة بياضات ومساعدة مطبخ وثلاث نسيبات لبيغ بوس. تطابقت أعراضهنّ مع أعراض أونوفريا؛ فقد أفرغن كلّ ما في أجوافهنّ عبر كلّ الفتحات من دون أن تتمكّن القطرات والمضغوطات والكمّادات والحقن من فعل شيء. وفي اليوم بعد التالي، نُعيت عشر ضحايا في «بورتو فيراي». بقي قابض الأرواح وفيّاً لسمعته، فلم يوفّر أحداً. لا بنات الأثرياء ولا بنات المُعدَمين. كان من بينهنّ ثلاث بناتٍ لمديري مصارف، وثلاث عاهراتٍ يجتذبن الزبائن عادةً على أطراف سوق سِت ميزير، وأربع طالباتٍ في الثانوية في ضاحيةٍ مكتظّة بالسكّان.

آنذاك، بات واضحاً أنّ الأمر يتعلّق بوباء. كما بات واضحاً أنّ غارولاماي لم يدسّ السمّ.

لكن قبل ثمانية أيّامٍ من ذلك، نُفّذ فيه حكم الإعدام شنقاً في ساحة الحبل بلا دنس، في مواجهة الكنيسة التي تحمل الاسم عينه. ذهب

قاسم، مدفوعاً بفضولٍ غير صحّيّ، واتّخذ مكاناً على المقاعد المدرّجة التي شُيّدت كي يتمكّن الشعب الطيّب من الاستمتاع بالمشهد. جلس في الصفوف الأولى تلاميذ الصفوف النهائية مع أساتذتهم في مادّة التربية المدنية، وهي مادّةٌ إلزاميةٌ في المناهج الدراسية في شمال البلاد وجنوبها على حدٍّ سواء. كيف ينتهي خائن؟ هل يختلف موته عن موتِ مخلص؟ كان على المراهقين التفكير في هذا الموضوع.

عندما ظهر غارولاماي -كان في العشرين من عمره فحسب، عمل في الماضي راعياً في جبال فرهوس وتغذّى بحليب النعاج- وهو يرتدي زيّاً تقليدياً أبيض اللون، تراءى لقاسم أنّه يعيش حلماً مُنذراً. اجتاحه رعبٌ تطيّري. فذات يوم، وبكلّ تأكيد، سيكون هو في موقع المتّهم في مواجهة الجمهور، بيدين مقيّدتين، يتلو صلواته الأخيرة ونظره مصوّبٌ إلى الأرض. أثّر غارولاماي في أذهان معاصريه وهو يقبل عذابه بهدوءٍ وكرامة. لم ينطق سوى بجملةٍ قبل أن يتأرجح في الفراغ: «سيحكم عليّ التاريخ».

نستطيع أن نتعرّف هنا على جملة فيدل كاسترو الشهيرة. غير أنّ تلك كانت مجرّد مصادفة. إذ لم يسبق أن سمع لا غارولاماي، ولا قاسم، بالقائد الأعلى. فخلافاً لما يتخيّله الكاريبيون، سواءٌ أكانوا كوبيين أم غوادلوبيين، منطقتهم ليست مركز العالم.

.7

بعد إعدام غارولاماي، اندلعت في البلاد موجة أحداثٍ غير مسبوقة.

فقد أنجبت بِكرٌ في السابعة والعشرين من عمرها توءماً لهما أنف خنزير، يثغوان كالخراف. وجابت في غبار القرى كائناتٌ ذات رؤوسٍ كرؤوس القِردة أو الفيلة، شبيهةٌ بالآلهة الهندوسية، وألقت خطاباتٍ مدوّية. غير أنّ تلك الكائنات لم تبثّ الرعب في النفوس بقدر ما بثّه متنبّئٌ معوجّ القدمين، جاب الشمال وهو يعرج. أُطلقت عليه تسمية المُلهِم. كان يعرض صورةً لغارولاماي ويعلن إنّه قدّيسٌ وشهيد، ويضيف إنّ الوباء هو عقاب الله. فمنذ خمسةٍ وعشرين عاماً، تكيّف البلد مع بيغ بوس الذي شنّ حروباً ظالمة وعذّب أبرياء وقتل إثنياتٍ كاملة. لم يحدث أيّ تمرّدٍ أو عصيان. لم يعترف أحدٌ بأنّه آن أوان أن يُشهَر في وجهه السيف الذي لطالما شهره في وجوه الآخرين.

تابع قاسم الأخبار برعب، وحثّه رمزي على تجاهل هذا كلّه. فهو لا يهتمّ إلّا بشؤونه الشخصية. أيّ شؤون؟ بدا على نحوٍ يوميٍّ متزايدٍ أنّه يصوّب على هدفٍ لم يتمكّن قاسم من تبيّنه.

اتّخذ رمزي قراراً بعدم العودة إلى سامسارا. أعلن أنّه قادرٌ على

مكافحة الوباء، بشرط أن يُمنح الوسائل. وعن طريق قريبته، زوجة بيغ بوس الخامسة، طلب من الرئيس مكاناً واسعاً بما يكفي ليحتوي على عيادةٍ وغرفة عملياتٍ في آنٍ معاً. لم يزعم أنّه سينهي من فوره داءً غامضاً أدهش العلماء. لكنّه أكّد أنّه سيبذل قصارى جهده، مستنداً إلى معرفته الواسعة بالنباتات المحلّيّة، إذ لم تعد هذه النباتات مستغلقةً عليه نظراً للتجارب التي أجراها طيلة سنواتٍ في مختبره. واستباقاً لمواجهته أكثر من فشل، فقد أعدّ صالات عزاءٍ يتجمّع فيها تعساء الحظّ من الأهالي للبكاء على أمواتهم. منحه الرئيس صلاحياتٍ كاملة. ومنذئذٍ، أخذ رمزي، وإلى جانبه قاسم وحفصة، يجوب أرجاء «بورتو فيراي» دونما كللٍ أو ملل. بعد أيّامٍ من التجوال، اختار بيتاً مهجوراً في الحيّ المسمّى بحيّ الدبّاغين، على الرغم من أنّ نقابتهم المهنية انتهت قبل مدّةٍ غير قصيرة. يتميّز هذا القطاع، البعيد نسبياً عن مركز المدينة، ببيوتٍ صغيرةٍ متماثلةٍ مكوّنةٍ من طابقين، يعلوهما سقفٌ أفقيٌّ كانت توضع عليه الجلود لتجفّ. أُطلق على البيت الذي اختاره رمزي لقب «بيت الأرواح» بسبب زعم أنّ المرحوم صاحبه، الذي أفلس في أعمالٍ مريبة، وجد صعوبةً في تركه لصاحبه الجديد. كلّ ليلة، تُضاء الأنوار على نحوٍ غامضٍ خلف النوافذ. وتتصاعد موسيقا وأصوات محادثاتٍ من الصالة. ثمّ تظهر أطباقٌ من الكسكسي وحِملانٌ كاملةٌ مشويةٌ على الطاولات وتختفي.

سأل رمزي الذي لم تكن تخيفه الأقاويل الشعبية: «ما رأيكما؟ إنّه ممتاز، أليس كذلك؟».

لم يكن رأي قاسم بالبيت حسناً البتّة. فقد أخافته فكرة أنّ أرواحاً تحتفل فيه. تذكّر كوابيس طفولته عندما كانت «التخشيبة» تبدو، عندما تمرّ

عبرها رياح الشمال، وكأنّها تتأوّه بألف طريقة. كثيراً ما أمضى فيها الليل من دون أن يغمض له جفن. لكن كالعادة، لم يلقِ رمزي بالاً للاعتراضات، فوضع العيادة وصالة العمليات في الطابق الأوّل، وصالات المآتم الستّ في الطابق الأرضي، في حين احتلّت الشقق الخاصّة الطابق الثاني. تكوّمت النباتات الخضراء في السطيحة. واختتاماً للاستعدادات، وظّف طاهيةً وحارسَيْ أمن، لأنّ «بورتو فيراي» باتت مكاناً خطراً بقدر خطورة جوهانسبورغ، يعمل فيها أنواع الآثمين كافّةً، فيسرقون المساكن في وضح النهار ويقتلون الأهالي ليلاً.

سرعان ما بلغ متوسّط الوفيات اليوميّة ثلاثين وفاةً.

أخذ رجال العلم يجتمعون باستمرارٍ في مؤتمراتٍ وندواتٍ واجتماعاتٍ مغلقة. وما كان يضلّلهم هو أنّ الوباء بدا انتقائيّاً. إذ لم يُصِب أيّ رجل، سواءٌ أكان بالغاً أم مراهقاً. كما لم يُصِب أيّ طفلٍ أو رضيع. والغريب أنّه لم يُصِب أيّ مسنّ، على الرغم من أنّ المسنّين مؤهّلون عادةً ليكونوا ضحايا الجائحات وموجات الحرّ الصيفيّة. لم يكن الداء يصيب إلّا الفتيات. ويفضّل أولاء اللواتي يتزيّنّ ويضعن المساحيق على وجوههنّ. والغريب أنّ القبيحات المتبحّرات في العلم، ذوات النزعات الأدبية، اللواتي لا ينظرن أبداً إلى المرآة ولا يحاولن التأثير في الطبيعة لصالحهنّ، كانت لديهنّ كلّ الفرص للإفلات من الإصابة.

طرحت مجموعةٌ من منظّمة «أطباء بلا حدود» احتمال أن يكون الوباء ناجماً عن فقدان المواد التالي للعقوبات الاقتصادية التي فرضتها الأمم المتّحدة منذ آخر رعونات بيغ بوس. فكرةٌ سخيفة. إذ لا يعاني من هذا النوع من نقص المواد إلّا الفئات الدنيا من الشعب، تلك التي لا علاقة

لها بالسوق السوداء. والحال أنّ الفئات الاجتماعية كلّها أُصيبت. الغنيّة منها والفقيرة. ثمّ إنّ هذه المحاجّة التي فاحت منها أكثر ممّا يجب رائحة الليبرالية اليسارية لم تعجب السلطة. ولهذا السبب، طُرد أولئك الأطباء شرّ طردة.

فكّر آخرون في إخطار القوى الدولية، منظّمة الصحة العالمية. وبالفعل، ألا يمكن أن يصبح هذا الوباء وباءً عالمياً مثل إنفلونزا الطيور؟ لم يحظَ هذا الاقتراح بالرضا، فأُسكت أولئك الثرثارون.

نحتاج إلى قلم شاعرٍ ملحميّ، إن لم نجد قلم مؤرّخ، لنرسم الآن صعود رمزي الأسطوري.

فسرعان ما بدا جليّاً أنّه على الرغم من وعوده عاجزٌ عن القضاء على الوباء. ومن عيادته التي أطلق عليها تسمية «إيمان»، لم تكن المريضات يخرجن إلا محمّلات. لم تحدث حالة شفاءٍ واحدة. غير أنّ أحداً لم يفكّر في تحميله المسؤولية. بل على العكس. فعلى الرغم من هذا العجز، فرض نفسه على البلد بأكمله. ظهر في التلفزيون في ساعات ذروة المشاهدة، «prime time» مثلما يقول الاختصاصيون الأميركيّون، ليوصي بمشروعٍ يمكن أن يبعث على الدهشة. تحنيط المتوفّيات. أعاد تسمية هذه العملية، فأطلق عليها تسمية «التزيين». أنتم معي في أنّ كلمة «تزيين» أخفّ وطأةً من الكلمة الأخرى. ألا يعني «التزيين» الترتيبَ ومنح مظهرٍ ألطف؟ تأثّر أولئك الذين رأوا رمزي في تلك الأمسية بهيئته أكثر ممّا تأثّروا بكلماته. شكّوا بدايةً في أنّه شماليّ، أحد أولئك الذين يشربون الماء الصرف ويأكلون اللبن الرائب، ويعجزون عن تحمّل قطرة كحولٍ في جسدهم. ثمّ شكّوا في أنّه مجرّد شخصٍ فانٍ. استهوى رمزي النساء والرجال على حدٍّ سواء، لأنّ غموضه جعله قادراً على أن يلعب على الحبلين.

بدءاً من ذلك اليوم، وعلى الرغم من كلفة «التزيين» الباهظة، بات مؤسّسةً شبه إلزامية. أمر بيغ بوس المصارف بالموافقة على قروضٍ بفوائد تفضيليةٍ لدعم ذاك الذي بات يبدو الأكثر حظوةً لديه يوماً بعد آخر.

ما الذي حلَّ بقاسم في هذه الأثناء؟

من واجبنا تجاه الحقيقة أن نقول إنّه لئن كان نجم رمزي صاعداً، فالأمر لم يكن مماثلاً بالنسبة لنجم قاسم. ولم يقتصر الأمر على المسكن، فهو لم يرَ أيّ شبحٍ في «بيت الأرواح».

لم يعد قاسم يستطيع تحمّل عمله. إذ تمثّلت مهمّته في مساعدة رمزي في الظروف كلّها، فيناوله، حسب الحاجة، الإبرة والوتر والملقط والمحقنة المبرّدة والمبضع والمبزل. كانت جلسات التزيين تستمرّ أحياناً طيلة الليل. وعندما ينسحب منهكاً في الفجر، تاركاً رمزي يضع لمساته الفنّية الأخيرة، لم يكن قادراً سوى على إلقاء نفسه على سريره كي ينام سويعاتٍ قصيرة. فضلاً عن ذلك، لم يكن رمزي سخيّاً إلّا بالكلام. يا له من ثرثار! أو بالمداعبات! إذ يعانق قاسماً ويضمّه إليه دائماً ويقبّله، لكنّه يدفع له أجراً بالغ السوء. لكن لا تذهبنّ بكم الظنون مذهباً! فلم يكن لتلك المداعبات أيّ معنىً جنسي، بل تشبه تلك التي يقدّمها المرء لحيوانه المنزلي أو للعبته المفضّلة. لم يكن المسكين قاسم قادراً على أن يهدي نفسه بطاقةً لحضور فيلمٍ يتأمّل فيه توم كروز في فيلمه «أضرار جانبية» أو «حرب العوالم». أو الذهاب إلى مشربٍ ليثمل بفودكا سميرنوف. وبسبب ما عاشه من إحباطاتٍ على الأرجح، أخذ انجذابه لحفصة التي يراها كلّ يوم يتحوّل إلى هوس. فهي على الأقلّ حارّةٌ وتنبعث منها رائحة الحياة. ليست كالفتيات اللواتي «يزيّنهنّ» ليلةً إثر ليلة!

ذات مساء وأثناء تناول العشاء، أعلن رمزي: «يجب عليّ الذهاب غداً إلى نابرول، في الريف الشرقي. فقد خسر حاكمها ابنته الوحيدة المحبوبة أوريلي. وبما أنّه نسيب بيغ بوس، فسيكون المأتم مهيباً. الرئيس وزوجاته وأكثر من عشرة وزراء ووزراء دولة يستعدّون للسفر. سأذهب من دونكما».

ارتجف قاسم فرَحاً لفكرة تلك الأيام القليلة التي ستمضي من دون «تزيينات». أمّا حفصة، فقد احتجّت. ألا تتمثّل مهمّتهما في مرافقته في كلّ مكان؟

هزّ رمزي رأسه: «كلاكما بحاجةٍ إلى الراحة. فلتنعما بها! سأحرّركما منّي طيلة أسبوع تقريباً».

في اليوم التالي إذاً، تأخّر قاسم في نومه واستيقظ بعد انتصاف النهار. كانت شمسٌ لامعة تتغلغل من خلف الستائر. ملأ حوض استحمامه ومزج بمياهه الفربيون والإذخر الليموني والأوكالبتوس على أمل تبديد رائحته! لكن رغم فركه جسمه بالعطور، ظلّ لديه انطباعٌ ببقاء نتانةٍ صفراء عالقة على جلده. كان يضع قدمه في حوض الاستحمام عندما فُتح الباب. حفصة! دخلت كنيزك. متخلّصةً من زيّ الممرّضة ومن حجابها. ترتدي بنطال جينز مهدّباً مقصوصاً أسفل الركبتين. يخال للمرء أنّها هربت من حرَمٍ جامعيٍّ أميركي.

قال متلعثماً: «أنتِ؟ أنتِ؟!».

لم تردّ. لم ترفع عينيها عن قضيبه. لكن ليس بالشبق الذي كان يمكن أن يأمل به، باعتبار أنّ حجم قضيبه كبيرٌ نسبياً. لكنّها قالت متلعثمةً، بذهولٍ مرعوب: «أنت غير مختون؟!».

أيَّ قصّةٍ سيخترع؟ الصمت من ذهبٍ في حالاتٍ كهذه، لأنّ قلقته تكلّمت نيابةً عنه.

سألته: «أنت غير مسلمٍ إذاً؟».

أعقب ذلك صمتٌ يائسٌ من قاسم. ولدهشته، هزّت منكبيها بلامبالاة: «أتعلم؟ ليس للدين أهميّةٌ لديّ! لا بدّ أنّ لديك أسباباً لزعم أنّك واحدٌ منّا. على الرغم من أنّنا أصبحنا فرائس ينبغي قتلها في أيّامنا هذه، وأرغب حقّاً في معرفة أسبابك».

لكنّها لم تلحّ أكثر من ذلك لأنّه لم ينبس ببنت شفة، ثمّ قالت: «حسناً! الأمر لا يتعلّق بذلك. فلتحتفظ بأسرارك. هل أنت مستعدٌّ لمساعدتي؟».

غمغم قائلاً: «بماذا أساعدك؟».

جلسَتْ على مقعدٍ لا مسند له وفتحت حافظة أوراقها، ثمّ نثرت أوراقاً وقالت بحزم: «اسمعني جيّداً. لم يخرج أيّ شخصٍ اسمه رمزي النووي وهو يحمل شهادةً من كلية الطبّ في ليدز عام 1998. في المقابل، أوقفت الشرطة عام 1995 شخصاً بهذا الاسم لأنّه اختار السكن في مقبرة. أُطلق سراحه ثمّ وُضع تحت المراقبة في قسم الطب النفسي بمستشفى فيكتوريا. وفي عام 1999، أوقف مجدّداً واتُّهم بنبش قبر، قبر خطيبته. أثار الأمر ضجّةً حينذاك، لأنّ خطيبته اختفت قُبيل ذلك في ظروفٍ مريبة. دارت الظنون بأنّ الأمر يتعلّق بقتلٍ مموّهٍ على شكل انتحار. وعشيّة محاكمته، هرب وعاد إلى البلاد».

استغرقها سردها ولم تعد تلتفت إلى صفات قاسم، فقرّر ارتداء ملابسه.

تابعت بشغف: «لدى عودته إلى سامسارا، وظّف مجموعةً متتالية

من السكرتيرات، وكانت أختي هي الرابعة. أتسمع؟ الرابعة. فضلاً عن المسؤولات عن أقفاص طيوره، والمسؤولات عن أحواض أسماكه، والمسؤولات عن البيت الزجاجي الذي يزرع فيه الأزهار النادرة. وقد توفّين واحدةً تلو الأخرى».

تمتم قاسم وهو يحاول السخرية: «*That is the way of all flesh!*».

فقالت حفصة بغضب: «افتح عينيك يا صاح! هو ليس من تظنّه؛ ليس صديقاً ولا محسناً سخيّاً. إنّه مجرمٌ خطر! منحرف! مجنون!».

- أريد إثباتات!

فاقترحت: «هل أنت مستعدّ لمقابلة خطيبي فايل؟».

أدرك أنّ لديها خطيباً!

- إنّه ابن عمّ رمزي. ترعرعا في التجمّع العائلي عينه وتشاركا غرفةً في ليدز. سوف يقصّ عليك أموراً سيّئةً عنه. أقترح أن نتناول الغداء معاً.

على أثر ذلك، وفي حين كان قاسم ينهي بحزنٍ ارتداء ملابسه، سحبت هاتفها المحمول وانطلقت في محادثةٍ مفعمةٍ بالحيوية، هيمنت عليها كلمة «رمزي».

خرجا.

«بورتو فيراي» مدينةٌ جميلةٌ بلا ريب. العيش في مدينةٍ جميلةٍ أمرٌ مهمّ. مهمٌّ بقدر أهمّية العيش مع رجلٍ جميل، زوجٍ أو شريك، لا يهمّ. فعينا المرء تمتلئان بالتناغم فور استيقاظه، ويبدو النهار جميلاً منذ بدايته.

نعلم أنّ لدى الكائن البشري القدرة على التأقلم مع أسوأ الأوضاع. فالسائح (لم يكن هنالك سيّاحٌ في «بورتو فيراي»، لكن لنتخيّل ذلك)

الذي يشقّ طريقه عبر الشوارع المزدحمة بالمارّة والحيوانات والسيارات اللامعة لن يلاحظ شيئاً. وعلى الرغم من المآتم والأسى بسبب الوباء، أربعون وفاةً في الأسبوع المنصرم وحده، يتابع السكّان وتيرة حياتهم. الشمس ترشق سهامها التي لا تكلّ أبداً. المتاجر تفيض بالبضائع الإيطالية أو الفرنسية التي دخلت البلاد تهريباً. وعلى الأرصفة، يعرض «واضعو المآزر» برتقالاً خالياً من البذور من يافا، وليموناً هندياً وردياً من فلوريدا، وعنباً أسود من كاليفورنيا، وتمراً فائق الطراوة من إزمير. العلامة الوحيدة عن اضطراب الأوضاع هي مكبّرات الصوت المثبّتة على تقاطعات الطرق منذ وفاة أونوفريا، والتي تبثّ بالتبادل «دروس الظلمات» لكوبران(*) و«القدّاس الجنائزي» لغوسيك(**).

عندما جلس قاسم على سطيحة إيسكال، مطعم ثمار البحر الذي سيوافيهما فايل إليه، أدرك مجدّداً أنّ حياته لا تتوافق مع آماله. فهو ليس أكثر ابتهاجاً ممّا كان عليه أثناء عمله في «دريم لاند». فضلاً عن ذلك، كانت معه آنذاك آنا ماريا التي تُثمِله بمداعباتها. أمّا الآن، فهو ينام وحيداً. لم يعد لديه الوقت لتفحّص لائحة الطعام واختيار النبيذ وملء رئتيه بنسيم البحر، تلك المتع الصغيرة التي تخفّف أسى حياة البشر. لاحظ أنّ الرجال الجالسين على الطاولات المجاورة يحدّقون بحفصة. إنّها بلا شكّ مغرية. أذكى طمعُ الآخرين بها رغبتَه، فمال نحوها وسأل: «أنا إذاً لا أعجِبك؟».

بدت وكأنّ الكيل طفح بها: «أنت أخي الصغير. لا تلحّ عليّ! لن يحدث بيننا شيءٌ مطلقاً. لستَ أبداً من الصنف الذي يستهويني!».

(*) Couperin (1668–1733): مؤلّف موسيقي فرنسي.

(**) Gossec (1734–1829): مؤلّف أوبرا وموسيقا وسمفونيات وكورال فرنسي.

هي أيضاً! صنف مَن هو إذاً؟

رجاها وقد خاب أمله: «احكي لي عنك! نحن متجاوران منذ عدّة أسابيع من دون أن يعرف واحدنا عن الآخر شيئاً».

– وما الذي تريدني أن أقوله لك؟

– كيف تربّيتِ. من هم أهلك. ما إذا كنتِ من عائلةٍ فقيرة، غنية، كبيرة، متّحدة.

ردّت باستياء: «يتحدّر أبي من سلالةٍ من القضاة الشرعيين. وبعد أن ألغى بيغ بوس هذا المنصب، صار يعلّم اللغة العربية في جامعة ميدارا الإسلامية. كبرتُ في عائلةٍ الموسيقا الوحيدة المسموح بها فيها هي الأذان، خمس مرّاتٍ يومياً. كنّا ننام بعد صلاة العشاء. نصوم. نكبت شهواتنا. نتصدّق. لكنّ ذلك كان مجرّد قشور. فالقلب بقي قاسياً، غير متسامح. وكان التجمّع العائلي كلّه يكره أمّي ويعذّبها، لأنّها على الرغم من كونها مسلمة، كانت زرقاء العينين وقَدِمت من الاتّحاد السوفييتي السابق. عندما كان أبي يدرس في الاتّحاد السوفييتي، كانت تقدّم حساء الشمندر الأحمر والكْريما الحامضة في مطعم U. حبٌّ من النظرة الأولى. زواج. أعادها معه إلى بلاده، لكنّه، عندما وصل إليها، صار يخجل من لونها ويُبعدها إلى إحدى الزوايا. لم يعودا يمارسان الحبّ منذ سنوات. لم يعد يوجّه لها الكلام إلّا ليوبّخها على المصروف. أردنا أختي آسيا وأنا أن نعيد إليها الابتسامة، وأن نُظهِر لوالدنا الوغد ما الذي تقدر عليه بنتان خلاسيّتان».

قال قاسم: «إنّها قصّتي إلى حدٍّ ما. لطالما أقسمتُ أنا أيضاً على الانتقام. لكن يبدو أنّني جبان، فأنا لم أتصدَّ لأيّ تحدٍّ».

لم تكن تستمع إليه واستأنفت كلامها: «آسيا وأنا كنّا توءمين. خرجَتْ

من بطن أمّنا أولاً وتصرّفت على الدوام وكأنّها الابنة البكر. وكنتُ أطيعها طاعةً تامّة. أعبدها. لم نكن نفترق. درسنا معاً. احتللنا كلانا المرتبة الأولى في دفعتنا. أنا أردتُ أن أكون صحافية. وبما أنّني كنتُ عاطلةً عن العمل، فقد عدتُ للعيش عند أهلي. أعطي دروساً في اللغة الإنكليزية. أمّا هي، فقد ذهبت من فورها إلى سامسارا لتعمل في خدمة هذا "الدكتور" رمزي. سرعان ما أُغرمت به. حكت لي كلّ شيء، كتبت لي رسالتين أو ثلاث رسائل يومياً».

سأل قاسم: «وما الذي قالته لك؟».

نشقت وقالت: «كانت تؤكّد أنّ رمزي هو أروع الكائنات، أكثرها حساسيةً، أكثرها سخاءً. وللأسف أكثرها خجلاً! لم يجرؤ على لمسها».

رمزي خجول؟ أمرٌ لا يصدّق! بل على العكس تماماً. إذ كان أميَل للتفاخر والتيقّن من جماله وذكائه وطيب محتده.

– لم يحسم أمره على الرغم من مبادراتها. وفجأةً، تلقّيتُ برقية. أنت تعرف التتمة، ما زُعم أنّه إرهاق، توقّفٌ في القلب: لقد ماتت.

لاحظ قاسم: «لا أرى شيئاً مريباً في ما تحكينه».

نشقت ثانيةً: «انتظر! ذهبت العائلة كلّها إلى سامسارا بأسرع ما يمكن. لدى وصولنا، علِمنا أنّ آسيا توفّيت قبل أكثر من ثلاثة أيّام. لماذا لم يبلغنا أحدٌ بذلك لدى وفاتها؟ من دون أن يطلب الإذن من أحد، حنّطها، "زيّنها" كما يقول. أغلق الباب على نفسه معها وأمرَ بألّا يزعجه أحد. وعندما قرّر أخيراً أن يدفنها، وضعها في حديقة بيته، في مقبرةٍ خاصّةٍ تحتوي دزّينةً من القبور المصفوفة جنباً إلى جنب. كان الأمر رهيباً».

أصرّ قاسم: «ما الذي تلومينه عليه بالضبط؟».

فتحت فمها ثمّ أغلقته، كما لو أنّ ضخامة اتّهامها تبثّ الخوف في نفسها، وقالت متلعثمةً: «سيشرح لك فايل ذلك. الرجال يقولون مثل تلك الأمور بأفضل ممّا تقوله النساء. هم لا يخافون من صورٍ معيّنة».

أيّ أمور؟ أيّ صور؟ انتظرا أكثر، نصف ساعة، وكلٌّ منهما منغلقٌ في أفكاره. ثمّ اقترب منهما نادلٌ وأعلن أنّ فايل يرجوهما عدم انتظاره بسبب اضطراره لحضور اجتماعٍ مهمّ.

.8

في الأسابيع التالية، هدأ الوباء.

لم يمت أحد. لا في أكواخ الضواحي ولا في دارات الأغنياء المريحة، لا في تجمّع الوزراء السكني ولا في القصر. لم تعد أجراس الكنائس تعلن عن الوفيات. صمتت مكبّرات الصوت على مفترقات الطرق. وبدلاً من الأناشيد الجنائزية، صدحت زقزقة العصافير المنسيّة وضحكات الأطفال وهم يلعبون الحجْلة في باحات المدارس.

لم يكن لدى قاسم وحفصة ما يفعلانه في العيادة الخاوية. باتت تبدو وكأنّها تتجنّبه بسبب مللها من فتوره. وهو نفسه استعاد مراراً وتكراراً محادثتهما. إلى أين تريد أن تصل؟ بماذا تحديداً تتّهم رمزي؟

صحيحٌ أنّ بعض الشكوك غير المألوفة راودت ذهنه. لماذا يحرص رمزي على البقاء بمفرده مع المتوفّيات؟ ما الذي يفعله لهنّ؟ ما هي لمساته الأخيرة؟

ذات مرّة، وأثناء مداعبة كتف إحداهنّ، قال: «أزهار الظلمات! عندما يكنّ على قيد الحياة، تراهنّ ثرثارات، متطلّبات، قاسيات. أنا أكرههنّ. هؤلاء وحدهنّ جديراتٌ بأن يشتهيهنّ المرء».

لا شكّ في أنّ تلك كانت مجرّد واحدةٍ من تلك الدعابات الملتبسة والخليعة التي يتقنها. لكنّ هذا لا يستدعي أن يظنّه المرء قادراً على ارتكاب جرائم يستنكرها الخيال!

تفاقمت إحباطات قاسم بسبب هذا الانخفاض في الوفيّات والبطالة التي استتبعته، مقرونَين بغياب رمزي، فاحتار في ملء وقته. ذات مساء، نفد صبره فذهب ليجوب «بورتو فيراي» من دون هدفٍ محدّد. كان يعرف الأحياء الجميلة ويعرف مدن الصفيح. أين توجد المواخير؟ إنّها تقع عادةً على الأطراف وقرب المرفأ.

انساق إذاً لرائحة المحيط تقوده وتسكّع في الشوارع. بعد ساعة، وصل إلى غايته. لم يخطئ التقدير. إذ وجد الفتيات بشعورهنّ المستعارة وأثوابهنّ البرّاقة يساومن على لحمهنّ وهنّ يتجمّعن حول أعمدة الإنارة مثلما يتجمّع الذباب على فطيرةٍ بالعسل. فنادق اللقاءات العابرة تعجّ بالنزلاء. صفٌّ من القوارب الحزينة تنام على الماء القذر بين بقع القطران وأكياس القمامة. هل ستطرده البنات في حال اقترب منهنّ مثلما حدث في آخر مرّة؟ اضطرّ للاعتراف لنفسه بأنّه يموت خوفاً.

التجأ إلى أحد المشارب العديدة في الحيّ. وهناك، جلس بخجلٍ إلى النضد. أعلى رأسه، كان المذياع يخور بأحد الألحان الإفريقية الكوبية العزيزة على أبيه، وهي ألحانٌ لم يسمعها منذ أن غادر سوسي:

Por el camino del sitio mío
Un carretero alegre pasó

بدا الأمر أشبه بلقاء شخصٍ من المعارف القدامى في الطرف الآخر من العالم. بالمصادفة المحضة. من دون أن يتوقّع المرء ذلك. احتبس دموعه.

وعندما تنازل الساقي ذو الرأس الحليقة والحلَق واقترب منه، طلب فودكا سميرنوف. غير أنّ الآخر زمجر وهو يمسح النضد بخرقة: «كنت أعتقد أنكم لا تقاربون الكحول. اذهب من هنا فوراً! لا أريد مشكلاتٍ بسببك».

قال قاسم متلعثماً: «أيّ مشكلات؟».

- لا أريد أشباهك هنا!

قال تلك الكلمات وأدار له ظهره.

تساءل وهو يشعر بالدهشة والقلق معاً: أشباهي؟ لي أشباهٌ إذاً؟

ما الذي يصدم في هيئته؟ تساءل عمّا إذا كان ذلك اللباس الإسلامي الذي يرتديه منذ أن بات يخالط رمزي. قفطان. بابوج. قلنسوة جلدية صغيرة أعلى شعره. صحيحٌ أنّ أحداً في ذلك المشرب لم يكن يرتدي ملابسَ كملابسه. الجينز والبلوزات في كلّ مكان. بضع بزّاتٍ غامقة. لكنّ الزيّ لا يصنع الراهب. هل بات هذا القول المأثور طيّ النسيان؟ انتابته الرغبة في أن يصيح به لأولئك الذين يتفحّصونه.

لحسن الحظّ، أتى لنجدته واحدٌ من أولئك الرجال صيّادي الرجال الذين يجدهم المرء تحت السماوات كلّها. ياباني، ذو عينين مائلتين، بتعبيرٍ حالمٍ أسفل الشعر القاسي المقصوص على شكل فرشاة، أكّد بنبرة واحدٍ من الروّاد: «إنّه معي. اسكب لنا يا باولو!».

امتثل النادل بامتعاض. تفرّس الياباني في قاسم، وطرح عليه السؤال الذي بات معتاداً: «من أين أتيت؟ ألست من هنا؟».

قال قاسم متلعثماً: «أنا فرنسي».

مفاجأة! بدا كأنّ الآخر وجد الإجابة طبيعيةً ولم يقهقه كما لو أنّه يسمع أسوأ التخرّصات. بعد ذلك، أفرغا كأسيهما. كان الياباني يدعى

كونيو. وُلد في سابورو. عمل ضابطاً على ناقلات نفط. وبعد بضعة أشهر من السجن بسبب تسرّبٍ نفطيٍّ في بحر الشمال، بات يكتفي بأعمالٍ أكثر تواضعاً. وهو حالياً يعمل طاهياً على متن سفينة فلور دي مايو التي تحمل علم ليبيريا.

«أنت طاهٍ! أنا أيضاً كنت طاهياً»، قال قاسم بنبرة حنين، لأنّه بات يتذكّر حياته في «دريم لاند» كزمنٍ من الجنّة. أكثر ما كان يفتقد إليه هو رائحة البهارات. الزعفران. الكمّون. الحبق. المريميّة.

عندما صار كونيو أكثر إلحاحاً، سارع قاسم للهرب. لم يكن مستعدّاً لمثل هذا النوع من المغامرات.

بعد ليلةٍ صاخبةٍ وكثيرٍ من الرغبات المكبوتة، فتح عينيه على وجه رمزي. بدت منه حركة تراجعٍ لا إرادية لم يبدُ أنّ الآخر انتبه لها.

- تنام بمفردك؟ ألم تسِر الأمور إذاً مثلما كنت تأمل؟

انتصب قاسم على وساداته: «ماذا تعني؟».

- حفصة؟

هزّ قاسم بكتفيه: «كش ملك. إنّها مخطوبة، ألا تعلم؟».

قهقه رمزي: «الفايل؟ هذه مزحة. فايل ابن عمّي. هو لا يحبّ سوى الرجال. يلاحقني منذ أن كان صغيراً. لذلك تحوّلت رغبته إلى كراهية. حالياً، هو لا يسعى إلّا إلى الإضرار بي».

على الرغم من تبسيطية هذه الرواية للوقائع، إلّا أنّها طمأنت قاسماً المستعدّ لابتلاع كلّ ما يمكن أن يبرّئ صديقه.

قال رمزي ساخراً: «ما الذي اخترعه عنّي؟ إنّه روائيٌّ ماهرٌ في مجال الرواية السوداء».

أثناء حديثه، أخذ يتفحّص قاسماً الذي دافع عن نفسه: «لم أرَه».

ثمّ سمع نفسه، بتأثير هذه النظرة الملحّة، وهو يسرد بالتفاصيل المملّة المحادثة بينه وبين حفصة. وعندما صمت، لم يطرح رمزي إلّا سؤالاً واحداً، كما لو أنّه السؤال الوحيد الذي يهمّه: «هل صدّقتها؟».

ردَّ قاسم وكأنّه مصابٌ بالفواق: «بالطبع لا!».

غمره الآخر بالقبلات كما لو أنّه يكافئه على ثقته، ثمّ أمره قائلاً: «ارتدِ ملابسك، سنذهب في جولة!».

كانت «بورتو فيراي» تخرج من سباتها الليلي، وآخر المحتفلين الذين أذهبَ الفجر سُكرهم يسارعون للعودة إلى بيوتهم للتأكّد ممّا إذا كانت بناتهنّ على قيد الحياة، ممّا إذا عاد الوباء في غيابهم ليضرب مجدّداً. أخذ الكسيحون يحتلّون المواقع الكفيلة بقطع الطريق أمام الورعين الراكضين نحو الكنائس لإرغامهم على التعاطف معهم. وخلف الجبال، اصطدم القمر في طريقه للأفول بالشمس الآخذة في الشروق. ومن هذه الصدمة، وُلد ضياءٌ عاتمٌ يخفي وضوح الحوافّ ويحوّل الجوار إلى مسرحٍ لاواقعي.

أمسك رمزي بذراع قاسم وشرح بصوتٍ كسير: «لم يكن قلبي تعلّق بأحدٍ عندما تلاقت طريقانا. كان أصل آوا من نيجيريا، عبر أهلها. لكنّها كانت يتيمة أرضها بسبب ولادتها في ليدز. وأيضاً يتيمة أمّها التي ماتت لدى ولادتها. كان ذلك عبئاً مزدوجاً، ثقيلاً، أثقل ممّا تتحمّل وكانت أيّامها تتلوّن بلون شتاءٍ أبديّ. مثّل لقاؤنا مرفأ رحمةٍ لنا كلينا. فأنا توقّفتُ عن التنقّل بين عشرات الأسرّة. وهي، منحها حبّي شمساً ابتلعها وحش الألم. لكن يا حسرتاه! فقد أعمتني سعادتي وافتقرتُ إلى التنبّه. لم ألحظ العلامات التي كان يجب أن تنبّهني. فذات مساء، قتلت نفسها.. بُعيد تركي

لها. وذلك على الرغم من أنّنا مارسنا الحبّ كالعادة. بعد ذلك، فقدت صوابي. لم أشأ قبول خسارتي لها. لم أعد أستطيع الشرب أو الأكل أو الاغتسال. كنت أمضي أيامي ولياليّ راكعاً على قبرها، أتوسّل إليها أن تعود إليّ. لا أشعر بالراحة إلّا في المقبرة، لأنّني اكتشفتُ أنّ هذا المكان مناسبٌ للتأمّل. وهناك أوقفني رجال الشرطة. اعتقدوا أنّني مجنون. وكنتُ بالفعل مجنوناً. مجنوناً بسبب اليأس».

هل هذا الرجل المثير للشفقة والمجروح هو عينه من تنعته حفصة بأنّه منحرف، مجرمٌ خطر؟

تمتم قاسم وقد تغيّر رأيه تغيّراً كلياً: «مسكينٌ يا صديقي! كم عانيت!».

همس رمزي: «لم أُشفَ حتّى اليوم. وهذا هو السبب في أنّني لا أتحمّل ضجيج النساء اللواتي على قيد الحياة. فثرثرتهنّ وضحكاتهنّ وصيحاتهنّ تمزّق سمعي».

قاما ببعض الخطوات وسط ضجيج عربات حمّالي الماء، ضجيجٍ يصمّ الآذان. كانت الشمس قد قرّرت أن تترك سريرها وبدأت صعودها الرتيب.

استأنف رمزي وقد انقلبت نبرته رأساً على عقب: «لديّ خبرٌ عظيمٌ لك. تقرّر ذلك في نابرول. طلب منّي بيغ بوس أن أكون "المزيّن الرسمي". تردّدتُ كثيراً، ثمّ وافقت. سننتقل في غضون بضعة أيّامٍ ونعود إلى القصر الرئاسي».

هتف قاسم مذهولاً: «ماذا؟ هل ستعمل أنت عند الرئيس؟».

– لمَ لا؟ هو نادرٌ في لطفه عندما نعرفه. كلّ ما في الأمر أنّ المحيطين به سيّئون.

– ليس هذا ما أقصده. أنت مسلم! ما الذي سيقوله أعضاء مجلسه الخاص؟

سخر رمزي: «فليقولوا ما يشاؤون. أنت تعرف رأيي: مسلم، كاثوليكي، الأمر سيّان».

أخرجت هذه الكلمات قاسماً عن طوره، فصاح: «كيف تستطيع القول إنّ الأمر سيّان؟».

أعلن رمزي بحصافة: «في هذه الحالة وتلك، هذا يعني التخلّي عن الفكر الحرّ، الخضوع لإرادةٍ مزعومةٍ من ذاك الذي يقال إنّه "سيّد الأكوان"، من يمتلك السماوات والأرض. من يحيي ويميت. يقول القرآن: ﴿وما لكم من دون الله من وليٍّ ولا نصير﴾. ما رأيك بهذا؟».

مرّةً أخرى، لم يكن قاسم قادراً على مناقشة موضوعٍ كهذا، لافتقاره إلى المعرفة الأوّلية بالأديان، على الرغم من أنّه ذهب في سوسي إلى دروس الدين المسيحي، مكرّراً كالببّغاء ما يتعلّمه. استسلم وهو يعترض: «لن يستمرّ الوباء إلى الأبد. ما الذي سنفعله عندما لا يعود هنالك أمواتٌ يجب "تزيينهم"؟».

قال الآخر مبتسماً: «سيكون هنالك دائماً أموات. الراحة هي أقلّ ما ينقصنا. إذا وضعنا جانباً تجمّع الوزراء السكني، أتعلم كم من الناس يؤوي القصر وحده؟ عائلة بيغ بوس وعائلات بعض إخوته وأخواته، وعائلات زوجاته، وعائلات حرّاسه الشخصيّين ورجال شرطته وأطبّاءه والعرّافين والمعالجين والموسيقيّين وخدمه بأنواعهم كافّةً. وهذا يعني آلاف الأشخاص واحتمال وجود آلاف الجثث في المستقبل».

شعر قاسم بأنّه محاصر. كسجينٍ يرى أبواب الزنزانة تنغلق عليه. فبعد

إمعان التفكير، لم يعثر لديه على أيّ رغبةٍ في اللحاق برمزي والعودة إلى القصر الرئاسي. كان ليفضّل أن يتمتّع بالشجاعة الكافية لتوديعه، حتّى لو بدا ناكراً للجميل.

الهرب! لكن بأيّ اتّجاه؟ لم يكن لديه صديقٌ غيره على هذه الأرض. لمن يلتجئ؟ ما من شخصٍ ينتظره، يمكن أن يساعده. العودة إلى كيليرمان ودراستنا في سوسي؟ أيّ «كرّاس عودةٍ إلى البلد الأمّ» سيكتب؟ كيف سيستقبلانه؟ من يدري؟ ربّما تُسعدهما رؤيته مجدّداً. ربّما يفتح له كيليرمان ذراعيه ويهتف كوالد الابن الضالّ: «أحضروا من فوركم أجمل ثوبٍ وألبسوه إيّاه. ضعوا خاتماً في إصبعه وخفّاً في قدميه. أحضروا العجل المسمّن واذبحوه. فلنأكل ولنبتهج لأنّ ابني هذا كان ميتاً وعاد إلى الحياة. كان ضائعاً وعُثر عليه».

لم يبدُ أنّ رمزي خمّن مشاعر رفيقه، فخلُص إلى القول بنبرة انتصار: «سوف نغتني. ربّما يهاجمنا الحاسدون بشراسة. لكنّهم في النهاية سيفشلون».

آنذاك، أدّى رقصةً قصيرةً مسعورةً وسط الشارع. لم يكن ما فعله يتوافق كثيراً مع الشخصية الرصينة والرزينة التي يؤدّي دورها عادةً، لكنّه باح بحماسته في فجر حياته الجديدة.

.9

في اليوم التالي مباشرةً، توقّفت الاستراحة واستشرى الوباء من جديد.

ففي أقلّ من أربعٍ وعشرين ساعة، حصد منجل الموت أكثر من ستين فتاةً في أرجاء «بورتو فيراي». ومكبّرات الصوت التي احتفظت بصمتها، مثيرةً ارتياحاً كبيراً بين الأهالي الذين يستمتعون برقصة السالسا أو برقصة الهيب هوب أكثر من استمتاعهم بالموسيقا الكلاسيكية، أذاعت على التتالي مقطوعتي «الأمّ كانت واقفة» إحداهما لبوتشيريني(*) والأخرى لفيفالدي(**). في هذه الخلفية من الألم والأجساد الباهتة والمحطّمة، بدت حفصة مفعمةً بالصحة أكثر منها في أيّ وقتٍ مضى، إذ كان جلدها يلمع كإناءٍ خزفيّ يخرج من الفرن، وتشعّ عيناها بالنور، مغويةً إلى حدّ إضرام النار في جرن الماء المقدّس. أكثر ما خشي منه هو النظرات التي يلقيها عليه رمزي، غير الغافل عن مشاعره، من وراء محاقنه وملاقطه.

بعد بضعة أيّامٍ من عودة رمزي، أخبر حفصة بالوظائف العليا التي سيحتلّها من الآن فصاعداً، بوصفه «مزيّناً رسمياً».

(*) Luigi Boccherini (1743–1805): مؤلّفٌ موسيقيٌّ وعازف تشيلّو إيطالي.

(**) Antonio Vivaldi (1678–1741): مؤلّفٌ موسيقيٌّ وعازف كمانٍ وكاهنٌ إيطالي.

صفّقت بيديها: «مرحى! مرحى! متى سننتقل؟».

ألقى رمزي عليها نظرةً متفحّصة: «هل تتمنّين حقاً أن تتبعينا إلى القصر؟ ما الذي سيقوله أهلك؟».

قالت ضاحكةً: «إنّهم متعصّبون، وأنت تعلم ذلك حقّاً. سيقولون، وأنا أسمعهم من الآن: "لقد باعوا أنفسهم للكافر". لكنّ المهمّ هو رأيي أنا. فمن المكان الذي ستحتلّه لدى بيغ بوس، ستكون قادراً على تقديم خيرٍ وفيرٍ لهذا البلد!».

فكّر قاسم وقد أصابه هذا الكمّ من النفاق بالغثيان: يا إلهي! كم تتساق!

لم يزده ذلك إلّا إعجاباً بصديقه في سريرته. فهو يعلم أنّها تمدحه في حضوره وتذمّه في غيابه. لكنّه لم يبُح بشيء.

بدا الليل طويلاً.

كانت بانتظارهم عذراوان أحضرتهما عائلتاهما الباكيتان إلى العيادة في اليوم السابق. لكن يا حسرتاه! فعلى الرغم من كلّ الجهود، انطفأتا وباتتا ممدّدتين في صالة «التزيين» بانتظار الرعاية التي ستعيد لهما الجمال، كأنّهما وردتان مقطوفتان بدأتا تذبلان.

في حدود الثالثة صباحاً وبعد انتهاء الجزء الرئيسي من العمل، حرص رمزي ككلّ مرّةٍ على البقاء وحيداً في غرفة العمليات. اصطدم قاسم أثناء خروجه بحفصة، تراقب من ثقب الباب وهي جاثية. تمسّكت بذراعه من دون إبداء أيّ حرجٍ في أن يفاجئها بمثل هذا الوضع الشنيع: «لا أرى شيئاً. ما الذي يفعله في هذه اللحظة؟».

فردّ بجفاء: «ما الذي تخالينه؟ إنّه يضع، ككلّ مرّة، اللمسات الأخيرة على "التزيين". أنا لم أتقن اللمسات الأخيرة».

صاحت: «لكنّني أوصيتك بألّا يغيب عن نظرك! أيّها الوغد، عُد من حيث أتيت! بسرعة!».

كانت تلك المرّة الثانية التي تشتمه فيها. ما الذي يجعلها تعرّض به بهذه الطريقة؟ أعماه الغضب، فدفعها أرضاً لتستقرّ على بضعة أمتارٍ منه، ثمّ سلك الدرج المؤدّي إلى الشقق من دون أن يعيرها انتباهاً.

اضطجع على سريره.

لكن سرعان ما بدت له فظاظته مع حفصة غير مقبولة. ما الذي كان كيليرمان يكرّره؟

«لا تُضرب المرأة ولو بوردة!».

لكنّ ذلك لم يمنعه من تسديد الضربات المبرّحة لدراستا، عادةً يوم السبت، بعد أن يفرط في الشراب. استعاد قاسم النظرة المندهشة، المجروحة، التي رمته بها حفصة. أضناه الندم، فغادر غرفته.

لم يسبق له أن ذهب إلى شقّتها، في الطابق عينه، في الطرف الآخر من الممرّ. طرق بابها طرقاً خفيفاً. وعندما لم يحصل على جواب، طرق بقوّةٍ أكبر. عبثاً. كان يستعدّ للذهاب عندما لاحظ أنّ الباب موارب. تغلّب عليه فضوله، وهو فضولٌ نعلم أنّه شديد، فدخل. لو أنّه توقّع أن تكون الغرفة من الداخل مزيّنةً بالتحف الفنّية وبالأشياء العديمة القيّمة، بالطلاوة التي يقال إنّ النساء يتمتّعن بها، لخاب ظنّه. فالحجرة بتقشّفها كانت ستعجب راهباً. السرير مقعدٌ ضيّقٌ تغطّيه ملاءاتٌ بنّية اللون. وعلى المكتب حاسبٌ من أحدث طراز. أمّا على الأرض، فأكوامٌ من الملفّات في مصنّفاتٍ متعدّدة الألوان. ما من صورةٍ على الجدران، ما من نسخةٍ للوحة، ما من ملصق، لا شيء يمكن أن يضفي لمسةً شخصية.

كاد أن يقترب من المكتب، لكنّه امتنع. ماذا لو فاجأته وهو يدسّ أنفه في شؤونها؟

من هي؟

نزل الدرج من جديد. في الطابق الأرضي، كان البهو خاوياً. لاحظ شيئاً لامعاً بين أحواض النوافير التزيينية. إنّه حلقٌ يدعى «كريولياً» كانت تضعه. أداره حول إصبعه. متى سقط؟ تساءل محتاراً.

خرج.

سحبه الليل، الحارّ والرطب كمهبل امرأة. ما من هلال قمر. على حدود الأفق، أخذت الخيوط المائلة إلى البياض والتي تعلن اقتراب النهار تزحف. لذلك أخذ اللامرئيون يسارعون إلى مساكنهم التي غادروها للاختلاط بالأحياء. وتسبّب ذلك بفوضى عارمة للأشكال التي تتدافع من دون أن تنتبه، تتصادم، يمرّ بعضها فوق بعض.

عندما قرّر العودة، اصطدم في البهو برمزي الخارج من صالة العمليات وفي فمه سيجار.

قال رمزي مندهشاً: «ألست نائماً؟ ظننتك في سريرك».

فأجاب قاسم متلعثماً: «أنا أبحث عن حفصة».

أخذ يشرح، من دون أن يعرف السبب: «لقد تشاجرت معها. أردتُ أن أعتذر لها».

أومضت عينا رمزي بالفضول: «تشاجرتَ معها؟ لماذا؟!».

لم يحتجْ قاسم إلى مزيدٍ من الرجاء كي يسرد بسرعةٍ الحكاية كلّها، ذاكراً تفاصيل غير مهمّة. لم تكن تلك المرّة الأولى التي يتراءى فيها له أنّ

رمزي يسيطر على إرادته، فيرغمه على أن يكشف له ما كان ينوي الاحتفاظ به لنفسه.

استمع إليه رمزي من دون أن يقاطعه، وعلّق فحسب: «هي تراقبني إذاً؟ لماذا؟ ما الذي تأمله؟».

بدرت عن قاسم حركة جهل.

استأنف رمزي: «هيّا! لا تعذّب نفسك من أجل تفاهاتٍ كهذه!».

ثمّ أنهى حديثه بعذوبة: «اذهب لترتاح!».

صعد قاسم إلى غرفته، لكنّه لم يتمكّن من النوم. بدا له أنّ هدوء رمزي يخفي في الواقع غضباً عارماً، وأنّه يجب عليه ألّا يُباغَت بالمجرى الذي ستتّخذه الأحداث. في ساعات الصباح الأولى، انتهى به الأمر لأن ينام وهو يتعرّق ويرتجف كالمحموم.

.10

يمتلك الموت خاصيّةً غريبة: على الرغم من أنّه مسجّلٌ في صحيفة البشر، فهذا لا يمنعه من أن يثير الفوضى عندما يأتي.

فما إن شاع خبر وفاة حفصة حتّى تدفّق الجيران إلى «بيت الأرواح» وهم يبكون ويعوِلون. لقد كانت في نظرهم جميعاً ملاكاً. إذ اعتادت التوقّف أمام كلّ بابٍ ولم تبخل أبداً بعبارة «السلام عليكم» للكبار وبمداعبةٍ للصغار وببعض النقود للمحتاجين. أمّا يوم الجمعة، فتتدفّق من حقيبتها سيولٌ من الصدقات.

الموت مِلكٌ للنساء في بعض البلدان. فبعد انقضاء لحظات الارتباك الأولى، استولين على جسد المتوفّاة. قمن بتسخين الماء لغسلها. وأجهشت بعضهنّ بالبكاء على هذه الصبيّة التي انطفأت إلى الأبد وهنّ يستخدمن الإسفنجات والفراشي. وأخرياتٌ بكين على ألم المرأة التي حملتها بين أضلاعها. فما الذي يبعث على الأسى أكثر من الثمرة الفجّة التي تقع قبل الثمرة الناضجة؟ تمتم بعضهنّ بالترنيمة التقليدية:

وادي الموت مفعمٌ بالصمت.

تحضّري يا طفلتي للعثور على دربك فيه،
ولا تضلّي الطريق!

أمّا الرجال الذين أبعدوا بسبب عدم نفعهم كما يحدث في كثيرٍ من الأحوال، فقد تدفّقوا فوق الأدراج أو اجتاحوا العتبات أو تجمّعوا للتحدّث على الرصيف. رأى بعضهم أنّ موتاً مباغتاً كهذا غير طبيعي.

وكان قاسم من بين هؤلاء.

قال في نفسه من دون أيّ برهان: «رمزي هو الذي قتلها».

استعاد الأحداث الأخيرة. كانت الساعة في حدود السادسة صباحاً. كان نائماً بعمقٍ عندما هزّه رمزي بعنفٍ من كتفيه: «انهض. حفصة ماتت!».

فصاح مذهولاً: «ماتت؟!».

- أجل، أتيت بحثاً عنها قبل قليل لأمرٍ طارئ فوجدتها وقد تصلّبت.

قال متلعثماً: «كيف يمكن ذلك؟».

ردّ رمزي برزانة: «لا أدري. الأرجح أنّها أزمةٌ قلبية».

حاول رمزي عرض تسلسل أفكاره بهدوء. لسوء الحظّ، ليس هنالك عمرٌ للموت. لا! نحن لا نعلم أبداً متى يتقاطع دربنا مع درب الموت. ألسنا حشراتٍ يكنسها الخالق بظاهر كفّه؟

بعد وقتٍ وجيز، ظهَر فايل، يسنده عمّه، وهو شابٌّ يجسّد صورةً ممتازةً للطالب الياساروي الذي تعلّم في الجامعات الفرنسية، بكلّ تفاصيله، وصولاً إلى نظّارته من ماركة «راي بان» بعدساتٍ معتمة. ارتمى بين ذراعَيْ قاسم وشدّه إليه، ثمّ قال وهو يجهش بالبكاء: «كثيراً ما تحدّثت لي عنك. كانت تحبّك كثيراً. تحبّك كأخيها الصغير».

فكّر قاسم: هذه هي المأساة تماماً! لطالما تمنّيتُ أن تكونَ لي الحبّ بأسلوبٍ مختلف.

بعد وقتٍ قصير، نزل من سيارة بيجو مستأجرة أعمام حفصة وعمّاتها وأخوالها وخالاتها وضرائر أمّها الجسيمة ذات العينين اللتين يميل لونهما إلى الأزرق الباهت. لم يحضر الأب، إذ منعه التهاب المفاصل. قطع هؤلاء الناس جميعاً من دون توقّفٍ الكيلومترات المئتين والخمسين التي تفصل ميدارا عن «بورتو فيراي» وهم يحملون في ملابسهم مظهر الريف القديم والبالي.

في حدود الحادية عشرة، انتزع رمزي نفسه من مرضاه وظهر أمامهم لأوّل مرّة. وما إن ظهر في الحجرة حتّى أنّبه فايل: «يا كلب! أنت من قتلها! أنت! ستدفع الثمن حتّى لو عملتُ على ذلك حتّى رمقي الأخير».

كاد الرجلان يتعاركان بالأيدي، أمام ذهول الجميع.

آنذاك، وصل حمّالو النقّالة. أتوا بطلبٍ من والد حفصة لأخذ الجثمان كي يخضع للتشريح. وكان قد أوكل التشريح للبروفيسور فرانكل، وهو أميركيٌّ يقع فوق مستوى الشبهات ويمارس عمله في كلّية الطبّ، سوف يمنح الإذن بالدفن إن لم يلاحظ شيئاً غير طبيعي.

تواصلت فترة ما بعد الظهر مفعمةً بالبكاء والصلوات. في الساعة الثالثة، الساعة التي تشهد الأحداث العظيمة في تاريخ البشرية مثل موت المسيح وانتحار هتلر على سبيل المثال، حصل حدثٌ كان له وقع الصاعقة. فقد أتى خبرٌ يفيد بأنّ البروفيسور فرانكل يرفض منح الإذن بالدفن، لأنّ رأس المرحومة يحتوي كدمةً بشعة، إضافةً إلى أعراضٍ أخرى أكثر إثارةً للقلق بكثير. لذلك كتب خمس صفحاتٍ سرّية موجّهة للشرطة. آنذاك، سارع

فايل وأعضاء الأسرة، ويضمنهم الأمّ على الرغم من إنهاكها، للذهاب إلى مفوّضية الشرطة المركزية.

تبادل الناس النظرات. ماذا يعني هذا كلّه؟

تحايلاً على وقت الانتظار، سارعوا إلى بيت فايل الذي يسكن في طرف المدينة الآخر حيّاً يُعلِن انتماءه الديني. يكاد المرء يعتقد بأنّه في بلدٍ آخر. فواجهات المنازل مزيّنةٌ بكتاباتٍ باللغة العربية، وثمة غلمانٌ يتوجّهون إلى المدارس القرآنية وهم يتأبّطون ألواحهم. أمّا المسجد، فمحاطٌ كالمتوقّع بطوقٍ من العجزة والمعاقين والمتسوّلين الذين يلوّحون بصخبٍ بقصعات الصدقة. ثمة أيضاً رجالٌ بالقفاطين يقرؤون بصوتٍ مرتفعٍ سوراً من القرآن.

التجمّع العائليّ نفسه يُدعى «صلاة»، وهي كلمةٌ لم يكن قاسم يعرفها.

هناك، اجتاحه قلقٌ مفاجئ. إذ لا شكّ في أنّ أحداً ما في مثل هذا التجمّع سيكشفه على حقيقته ويلاحظ أنّه ليس سوى نصّاب. لكن لا، فهؤلاء المجهولون جميعاً يرتّلون صلواتٍ يجهلها وينظرون إليه بحُسن نيّةٍ ويبدون مخدوعين بمظهره. الرجال والنساء يتناقشون في مجموعاتٍ منفصلة، غير أنّ مواضيع الحديث متطابقة. متى سيُعرف سبب موت حفصة الحقيقي؟ هل سيُعرف يوماً في هذا البلد الحافل بالأسرار؟ لا، لن تُعرف الحقيقة أبداً. كما دارت أحاديث عن بيغ بوس، وهو موضوعٌ لا ينضب. فقد استفاد من شائعةٍ لا يمكن تصديقها، شائعة انقلاب، لاعتقال آخر مجموعةٍ من معارضيه، بصرف النظر هذه المرّة عن دينهم، كاثوليك، مسلمين، فتيشيّين – عفواً، مشرِكين. ألا تزال ثمّة أماكن في المعسكرات العديدة؟ ما الذي تفعله منظّمة العفو الدولية؟ أكّد أصحاب عقولٍ تميل

إلى الاختلاق أنّ الجيش الوطني أخصى الرجال المتّهمين بالعصيان في قريتين من قرى الشمال. وتأكيداً على أقوالهم، عرضوا الأخوين فاليلو اللذين نجوا بأعجوبة لأنّهما نزلا في ذلك اليوم إلى «بورتو فيراي» لبيع مواشيهما. انطفأت الكلمات عندما قدّمت النساء الشاي بالنعناع وقطعاً فوّاحةً من لحم الخروف، بما أنّ المرء لا يستطيع الجمع بين البكاء والطعام.

كان قاسم يملأ طبقه عندما تفرّسه أحد الرجال بنظرة تشكيك: «هيه! ألست أنت من رأيتُ قرب رمزي؟».

مثلما أنكر بطرس في حديقة الزيتون يسوعاً، أنكر قاسمٌ سيّده. أكّد أنّه لا يعلم من هو رمزي. أصرّ الآخر وهو يخاطب الجمهرة ليسمع الآراء: «أجل، إنّه أنت! كنت أصحب قريبتي المرحومة إلى عيادته. فاطمة غادرتنا. ليرحمها الله. لم تشأ العائلة أن "تُزيّن". التزيين باهظ الكلفة. لن تتخيّلوا كم عانينا كي نستردّ جسدها».

أقسم قاسم ثانيةً إنّه لا يعلم من هو رمزي.

تابع الرجل، غير مقتنع: «من أين أتيت؟ أنت لست من هنا، أليس كذلك؟».

هذه الأسئلة تبثّ الرعب في نفس قاسم، كما نعلم. وعندما طُلب منه الكشف عن هويّته، انتابه شعور الهلع المعتاد. بماذا يجيب؟

«أنا فرنسي»؟ «أنا من مدينة ليل»؟

سيقهقه الجميع قائلين: «هل تظنّنا حمقى؟ هل رأى أحدٌ يوماً فرنسياً بلونك؟».

ماذا يفعل إذاً؟ هل ينتحل هويّة الأب؟ هل يعلن: «أنا من غوادلوب»؟

لن تتورّهم هذه الكذبة أكثر. لا أحد منهم يستطيع تحديد مكان غوادلوب على خريطة. هل ينتحل هويّة دراستنا ويقول: «أنا روماني»؟ سيكون الأمر أكثر سُخفاً!

فضّل التسلّل إلى الخارج وهو يشعر بأنّه يهرب من خطر. ثمّ ركض باتّجاه العيادة حيث كانت تنتظره مفاجأةٌ كبيرة: شاحنة نقل أثاثٍ تقف على الرصيف. في البهو، كان رمزي يعطي أوامر لنصف دزينة من الرجال الأشبه بالغوريلا، يرتدون ملابس عملٍ زرقاء. أبواب صالات المآتم مفتوحةٌ على مصاريعها، وهي التي تكون عادةً مغلقةً بعناية. رجالٌ يفكّون لوحات الممرّ ويحملون النباتات في أصصها.

هتف قاسم: «ماذا يحدث؟».

أمره رمزي: «اذهب لتحضير أغراضك. نحن راحلون».

- إلى أين؟

أبدى رمزي نفاد صبرٍ وقال: «إلى القصر الرئاسي. ألست تعلم؟».

- الآن؟

- أجل!

لماذا هذا الاستعجال؟ سيبدو ذلك مريباً. ألا نستطيع الصبر؟ انتظار يوم غد؟ سحبه الآخر بعيداً عن العمّال: «اسمعني، اضطررتُ لاتّخاذ هذا القرار عاجلاً بسببك».

صاح قاسم: «بسببي؟ لكنّني لم أفعل شيئاً!».

حنى رمزي رأسه: «تدور في كلّ مكانٍ شائعةٌ مفادها أنّك كنت مغرماً بحفصة وأنّها صدّتك، فضربتها ضرباً مميتاً بسبب حنقك لأنّها قاومتك».

طاش صواب قاسم وصاح: «أنت تكذب! أنت تكذب! الناس يشكّون فيك أنت. أنت!».

قهقه رمزي: «أنا؟ من يجرؤ على التقوّل على من يحميه بيغ بوس؟ من الذي يفتري عليّ؟ هات أسماءً. أريد أسماءً. هيّا! تكلّم!».

صعد قاسم إلى غرفته وذهنه مضطرب، وبدأ في ترتيب أغراضه.

عندما نزل، رأى سيّارة مرسيدس بنز يرفرف عليها علم الرئاسة واقفةً بمحاذاة الرصيف. كان المتسكّعون قد تجمّعوا لكيلا يفوتهم شيءٌ من المشهد الذي سيضيفون إليه تفاصيلهم الخاصة. الحقائب المكدّسة في صندوق السيّارة، السائق بالزيّ العسكريّ، الحمّالون بالمشمل، رمزي وهو يوزّع الإكراميات، قاسم وكأنّه خروفٌ يُساق إلى المسلخ. بدا هذا الرحيل في ظلام الليل أشبه بهرب زوجٍ من الآثمين.

قطعت سيارة المرسيدس بنز بسرعةٍ المسافة التي تفصلهما عن القصر. ابتعدت الأشجار مكفهرّةً عندما اخترقتها مصابيح الإنارة. كانت تُرى هنا وهناك ظلالٌ هاربة، غير واضحة. حيواناتٌ أُزعجت وهي نائمة أو وهي تتسافد؟ انطوى قاسم على نفسه ولم يعد يتذكّر أنّ هذا المكان سحره بخُضرة لونه أثناء زيارته الأولى له. في ذلك المساء، أثناء التغلغل داخل الغابة، انتابه إحساسٌ بأنّه ينخرط في محيطٍ من الآثام والمخاطر. رأى بيغ بوس كدابّةٍ لاحمةٍ تتضوّر جوعاً، أو كالعنكبوت العملاق أنانسي(*)، يقبع في شجرة المانغروف الاصطناعية الخاصّة به. فكّر مرّةً أخرى بالهرب. لكن إلى أين؟

(*) أنانسي هو مخادع محتال يستطيع أن يتحوّل إلى عنكبوت في الميثولوجيا الإفريقية، ويظهر في عدة حكايات شعبية في غرب إفريقيا، وفي جزر الهند الغربية.

فجأةً، قطعت كتيبةٌ من الجنود الطريق أمامهم. سلّط قائدهم مصباحاً قوياً. وعندما تعرّف إلى رمزي، تمتم بنبرةٍ متندّمة: «أهذا أنت يا أبي؟ لم أتعرّف عليك. سامحني!».

«أبي» تعبيرٌ عن الاحترام، يُخَصّ به المسنّون. لذا كان له رنينٌ غريبٌ عندما صدر عن رجلٍ كهذا، بعمر والد رمزي. اعتدل الآخر في جلسته. رفع يده اليمنى كما لو كان سيقدّم مباركته ورسم على شفتيه ابتسامةً ملائكية ثمّ تمتم قائلاً: «هيّا، أنت تقوم بواجبك فحسب!».

انطلقت السيّارة مجدّداً. ارتعش قاسم.

.11

فتح قاسم عينيه اللتين أغمضتهما عتمة الليل.

قال في نفسه وهو يبكي: أنا سجين. سجين.

كان كلّ شيءٍ حوله نائماً. عدا الحيوانات البرّية القابعة في مكانٍ غير بعيد، في حديقة الحيوان الرئاسية، إذ أخذت تجأر بحنَق. كان يُحكى في «بورتو فيراي» أنّ عدداً كبيراً من المعتقلين السياسيين قضوا نحبهم مسحوقين بين فكوكها القويّة بعد رميهم في الحلبات مثل المسيحيين الأوائل. وكان يُحكى أيضاً أنّ توتو، البوما الملَكي، المحظيّ الذي اصطيد في غابات البنغال الكثيفة، مغرمٌ بلحم الأطفال الصغار، الرضّع. لذلك كانت نساءٌ من منبتٍ متواضعٍ يخضعن للتسمين خصيصاً لينجبنهم، ويوضعن في جناحٍ بعيدٍ عن القصر. صحيح؟ خطأ؟ لقد سبق أن قلت لك أيّها القارئ رأيي بالمخيّلة الشعبية.

صحيحٌ أنّ القصر كان سجناً، قلعةً لا يخرج المرء منها على هواه. ولمكافحة «التدخّلات الخارجيّة»، لم يكن يُسمح لأيّ قناةٍ إذاعيةٍ أو تلفزيونيةٍ بالدخول إليها. توجد فحسب دارةٌ داخلية تبثّ باستمرارٍ خطابات بيغ بوس وكذلك نشاطات الرئاسة والموسيقا الكونغولية. لأنّ بيغ بوس لم

يكن يساير عصره، فلا يحبّ موسيقا الريفي أو الراب أو الهيب هوب، بل يعشق السيّد روشرو والموسيقا الزائيرية. وكان الناس في القصر مقطوعين تماماً عن أخبار البلد والعالم.

كان قاسم منشغل البال. ما مصير التحقيق حول موت حفصة؟ ماذا حلّ بفايل؟

غير أنّ الانعزال في القصر لم يكن يعني السلام أو السكينة. ففور هبوط الليل، تبدأ مفسَقةٌ تمنع النوم. إذ تتجوّل أرواح أولئك الذين عذّبهم بيغ بوس بحيث لا يراها البشر، وتصدر أصواتٌ قويّةٌ ناجمةٌ عن تأوّهاتٍ وتنهّداتٍ وهياكل عظميةٍ متصادمةٍ على السطيحات والأروقة. في بعض الأحيان، كان قاسم يركض على شرفات جناحه، فلا يرى سوى جدار الأشجار وسواد السماء أو خدماً يعملون على تلبية رغبات سيّدهم الليليّة. ذات يوم، توغّل في الحديقة فوقع على شخصٍ بَدينٍ بوجهٍ مدوّرٍ يحزم كرشه في منامةٍ مخطّطة. الرئيس! ما العمل؟ إلقاء التحيّة عليه؟ كان لا يزال يطرح السؤال على نفسه عندما اختفى الآخر بين الأشجار. لم يكن بيغ بوس، المصاب بالأرق، يميّز النهار من الليل، تعذّبه حسب الأقوال ذكرى إخوته. كان بوسعه أن يعقد مجلسه حتى ساعات الصباح الأولى، فيرسل من فوره إلى معسكر الاعتقال أولئك الذين شاء سوء حظّهم أن يتثاءبوا. وبعد المجالس، لا بدّ من تسليته، وهو أمرٌ عويصٌ حقّاً. فيتتابع قرّاءٌ لقراءة رواياتٍ بوليسية لسان أنطونيو(*)، وهي القراءة الوحيدة التي يتحمّلها. وتتوالى فرقٌ من الموسيقيّين والممثّلين ومحرّكي الدمى المتحرّكة ولاعبي التوازن والمروّضين في مسرحه الخاصّ. فضلاً عن ذلك، وعلى أثر

(*) San-Antonio: مجموعةٌ من الروايات البوليسية كتبها فريديريك دار Frédéric Dard (1921–2000) لكنّه كان يوقّعها باسم سان أنطونيو.

موت أونوفريا السابق لأوانه، لم يعد يجامع. فأخذت زوجاته ومحظيّاته الخمسمئة والستّون يواسين أنفسهنّ مع رجالٍ أو بأدوات متعة.

لم يكن الأمر على هذا النحو في الماضي. إذ يتذكّر وُصَفاؤه أنّهم عرفوه رجلاً مرحاً، هاوياً لأنواع النبيذ الفاخرة وللمخدّرات وللحم الصبايا، لتلك المتع التي لا تُعدّ ولا تُحصى ولا تكون الحياة جديرةً بالعيش لولاها. كان هنالك موظّفون مكلّفون بأن يجوبوا القرى بحثاً عن عذارى ممتعات، لأنّه لم يستحبّ يوماً لا الرجال ولا الغلمان الذين يقترحهم عليه بعض المساعدين الأوروبيّين.

لكن منذ شهرين، ولدهشة الجميع، بدا أنّ الوباء قد خمد.

غير أنّ الوفيّات، مثلما تنبّأ رمزي، لم تكن قليلة. ففي جناح إيزابيل سيلينا الذي جُهّز ليكون عيادةً وصالات مآتم، مات عددٌ كبيرٌ من المرضى بسبب الحمّى أو الاضطرابات التنفّسية أو فشل القلب أو الداء السكّري أو السرطان، أي باختصارٍ بسبب كوكبة الأمراض البشرية. ومن بينهم كثيرٌ من الشابّات اللواتي كان رمزي وقاسم «يزيّناهنّ».

الناس لا يعيشون الحِداد بطريقةٍ متماثلة.

فبالنسبة للناس العاديّين، هو مجرّد محنةٍ قصوى في قافلة الإحباطات والأحزان التي يتكوّن منها وجودهم. أمّا بالنسبة للوجهاء، فهو فضيحةٌ لا تُحتمل. وإذ لم يكونوا قادرين على التعرّض لرمزي، فقد أثقلوا قاسماً بصنوف اللوم والاتّهام، بل والتهديد، ما عزّز شعوره بعدم الارتياح. ما السبيل إلى استعادة حرّيته، إلى الخروج من عشّ الدبابير هذا؟ كان يحلم بأنّه يستقلّ الطائرة إلى وجهةٍ بعيدة. أبعد ما يمكن. في الطرف الآخر من الكرة الأرضية. طوكيو. اليابان. بيرث. أستراليا.

منذ أن بات قاسم يسكن في القصر مع رمزي، ازدادت الحياة سوءاً بالنسبة إليه، لأنّ رمزي لم يعد رمزي. تشكّل لديه الانطباع بأنّه يعيش مع غريب. فليكن! لم يكن رمزي يوماً تقيّاً حقيقياً. ولئن كان يذهب إلى المسجد، فللظهور فيه برأسه المعمّم مثل واحدٍ من آيات الله، متأبّطاً نسخاً من القرآن. كثيراً ما ينسى أداء صلواته، ثمّ إنّه يشرب الكحول ولا يصوم. وإذا كان لا يقاوم مطلقاً متعة ترصيع أقواله بآيةٍ من القرآن أو بحديثٍ شريف، فالأمر عنده يتعلّق بالسمع، إذ إنّه مغرمٌ بالكلام الجميل.

انتهى ذلك كلّه بين عشيّةٍ وضحاها.

فقد اكتشف لنفسه عمّاً يُدعى باتيستو روميرو فيكو، وهو مفكّرٌ حرّ، مؤلّف دراسةٍ لاذعةٍ عنوانها «الأديان المُنزلة»، وبات يمتدحها في كلّ مكانٍ ويطنب في الحديث عن العلمانية: «لن يكون الإنسان حرّاً إلّا إذا تخلّى عمّا نطلق عليه "التسليم" بالله. إلّا إذا تحمّل مسؤولية أعماله. إلّا إذا نسبها لنفسه».

لئن لم يبدُ هذا التحوّل مزعجاً لرمزي على الإطلاق، فقد أزعج أكثر من شخصٍ وتأثّرت بسببه سمعته تأثّراً حقيقياً. نظر إليه بعضهم بوصفه انتهازياً مجرّداً من الأخلاق، مستعدّاً لفعل أيّ شيءٍ ليبقى محظيّاً لدى السلطة. لم يعد قاسم يراه إلّا في أوقات «التزيين»، أي عندما لا يكون مستغرقاً في اجتماعاتٍ ومحاضراتٍ ومقابلاتٍ إعلامية. والمفارقة هي أنّه أخذ يعيش تطوّراً مناقضاً لتطوّر صديقه. فقد بدا له أنّ هذا الدين الذي استعاره بصورةٍ عشوائية أصبح دينه وبات يغيّره.

ذات يوم، ظهر رمزي في الرابعة من بعد الظهر تقريباً. بدا مرتبكاً، غير مرتاح، على عكس العادة، فلطالما طفح بالثقة بالنفس وبسهولة التحدّث.

ما الذي يهيّئ له هذه المرّة؟ بعد زجاجةٍ من النبيذ الأبيض الكاليفورني، قرّر التحدّث: «هل تقبل بالعودة إلى مطابخك العزيزة على قلبك؟».

في الاقتراح ما يدعو إلى الاستغراب. أبدى قاسم تمرّداً غير منطقي، إذ إنّ «التزيينات» تثقل عليه أكثر كلّ يوم. ها هو ذا مرّةً أخرى ضحيّة استبعاد. ما الذي ارتكبه ليستحقّه؟

قال بانفعال: «ألم تعد راضياً عن خدماتي؟».

هزَّ رمزي رأسه بشدّة: «هذه ليست القضية. لا يمكن أن أحلم بمساعدٍ أكثر كمالاً منك. لكن تملّكت بيغ بوس نزوة، أن يرافقني في عملي».

– ماذا؟ يريد هو أيضاً أن «يزيّن»؟!

– أجل! إنّه يملّ من كلّ شيءٍ وطيلة الوقت. يعتقد أنّ ذلك سوف يسلّيه.

يسلّيه؟ فكّر قاسم وهو يشعر بالغثيان. يا لها من طريقةٍ رهيبةٍ للتسلية! لكنّها، بعد النظر في كلّ شيء، أفضل من القتل والاغتيال وسجن الأبرياء، وهو ما شكّل حتّى ذلك الحين «تسلياته» المفضّلة. ربّما ينسى لوقتٍ ما إذكاء الآلام وصنوف التعذيب.

لم تغمض لقاسم عينٌ طيلة الليل. فقد تخيّل الرئيس وهو يتعامل بالمبضع ويضمّ الإبر بدلاً منه، ولم يدرِ ما إن كان عليه أن يضحك من تلك الصور.

في اليوم التالي إذاً، استبدل بقميصه وقناعه وقفّازيه المطاطيين مئزراً واسعاً مخطّطاً يصل حتّى كعبيه، وقبّعةً بيضاء. تحتلّ مطابخ القصر مبنىً تطلق عليه تسمية جناح لوكولوس.

عبَر الحديقة. كان نسيمٌ خفيفٌ يتلاعب بساق الخيزران. راقبته عن بعدٍ

ظبيةٌ فضوليةٌ من فصيلة إمبالة. في الحقيقة، انتابه إحساسٌ عميقٌ بالارتياح، بالتحرّر، بالراحة. دمٌ أكثر ابتهاجاً بات يتدفّق في عروقه. أخذ النهار يستعيد ألوانه.

في جناح لوكولوس، تُحضَّر أكثر من ثمانمئة وجبة يومياً من أجل عائلة بيغ بوس الضخمة العدد. وهذا يعني عملاً معتبراً، فالأفواه التي يجب تغذيتها شرهةٌ ومتطلّبة. الطاهي الرئيسي فرنسي، جنوبيٌّ ملتحٍ، كثّ الشعر، يُدعى بيير لونورمان. عمل لمدّةٍ في أحد مطاعم لاس فيغاس. لكن بسبب غرامه براقصات الاستعراض، إضافةً إلى ديونٍ كبيرةٍ نجمت عن القمار، أُرغم على الالتجاء إلى هذه البقعة البعيدة في إفريقيا. يترأّس لونورمان مجموعةً كبيرةً من المساعدين من كبار الطهاة، من الطهاة المساعدين، من الطهاة المتدرّبين، من المتمرّنين، ممّن يضيفون الملح، من المتذوّقين، من المتخصّصين في المشروبات الكحولية، وهم من الأجناس والجنسيّات كلّها. استقبل بيير لونورمان قاسماً بحرارة: «يا رجل، قيل لي إنّني سأستقبل فرنسياً!».

أجاب قاسم معتذراً عن خيبة الأمل التي تسبّب بها: «هو أنا. أنا من مدينة ليل».

وسرد الحكاية المعتادة.

صاح بيير متمسّكاً بكلمة واحدة: «غوادلوب! عشتُ فيها ثلاث سنوات. طاهياً في فندق ميريديان في سان فرانسوا. أتعلم؟ أنا أتحدّث الكريولية. *Si ni chapô, pa ni bobo*».

نفخ صدره لتذوّق الأثر الناجم. لكن وا أسفاه! فقاسم لا يتحدّث الكريولية. لم يتعلّمها، ولم يتعلّمها لا أشقّاؤه ولا شقيقتاه.

- أنت غوادلوبي؟ أحببتُ مغنّية زوك لاف(*) اسمها ماريا ماريانو. أتعرفها؟ لم ترغب بي أبداً، أنا الأجنبي. أنتم هناك عنصريون!

فكّر قاسم: وأنتم!

غير أنّ الخصام لم يكن وارداً في تلك اللحظة. إذ إنّه لم يشعر منذ وقتٍ طويلٍ بسعادةٍ كهذه، بحرّيةٍ كهذه. تسارعت ضربات قلبه وتهلّل لرائحة البهارات التي شعر بالنشوة وهو يستعيدها.

أوكل بيير أمره لشابٍّ كونغولي، اختير من بين كوكبة المساعدين المحيطين به، اسمه أديمار. لم يكن في أديمار ما هو كونغوليٌّ سوى اسمه. لم يكن يعرف لا مدينة برازا ولا مدينة ليو(**). فقد وُلد وترعرع في روما حيث صمد والده كسفيرٍ على الرغم من تغييرات تسمية البلد وتبديل الوزراء وتراكم رواتبه غير المدفوعة. لم يقبض راتبه منذ قرابة سنة وكان عليه أن يُطعِم سبعة أفواه. أتعبه هذا الوضع وعاد ليشتكي في البلد، فرُمي في السجن واختُرعت مؤامرةٌ قيل إنّه حاكها، وأُعدم حسب الأصول. ولا تنتهي القصة هنا. فبعد أن أصبحت الزوجة التي نالت في الماضي لقب ملكة جمال نغوما أرملةً، لم تتأخّر في الزواج ثانيةً بأميرٍ من فينيسيا يملك قصراً على القناة الكبيرة. لسوء الحظ، أُغرم الأمير بابن زوجته الجميل. وهرباً من زوج الأمّ المغرم جنسياً بالأطفال، احتمى أديمار فور أن تمكّن من ذلك بكلّ مساحة البحر والأراضي والصحارى. حصل على مكانةٍ على الرغم من سنواته الثماني عشرة، فقد حضّر ديكاً مسمّناً بالزيتون الأسود والبرتقال البوربوني المرّ، تناول منه الرئيس لقمتين. ومنذ ذلك الحين،

(*) zouk love: نوعٌ موسيقيٌّ غنائيٌّ من جزر المارتينيك.

(**) المقصود هو مدينتا برازافيل وليوبولدفيل (تحوّل اسمها لاحقاً إلى كنشاسا).

لم يتكرّر الإنجاز. إذ أبعد بيغ بوس على التتالي أطباقاً من صنعه: كُريمة فطر بورتوبيلّو الرقيقة ولحم الضأن بالفطر والخضار المقطّعة قطعاً صغيرةً وحتّى معكرونة الفيتوتشيني المطبوخة بلحم فرخ البطّ وصلصة ألفريدو.

سرعان ما انسجم أديمار وقاسم، المتقاربان في السنّ، إلى حدّ أنّ الأوّل عرض على الثاني أن يشاركه شقّته. كان يعيش في حيٍّ من أحياء القصر لا يقلّ ازدحاماً عن قريةٍ في الغرب الإفريقي. إذ ترى فيه أطفالاً يتحرّكون عراةً تماماً وأعضاؤهم معرّضةٌ للهواء، ونساءً يطبخن في الهواء الطلق، ومسنّين ينامون في كراسي قابلةٍ للطيّ، ومتعطّلين يدخّنون. في الأسواق تتكدّس فواكه وخضار. أخبر أديمار قاسماً بأنّ جزءاً من المجموعة الإثنية التي ينتمي إليها بيغ بوس يعيش هناك، ما يجعلهم خزّاناً يقدّم له مجنّدين لمسيرات الدعم السياسية الكبيرة. في البيت الصغير الذي يتقاسمه مع ثلاثة طبّاخين مساعدين آخرين، غابت معالم الفخامة. لكن لا يهمّ! الودُّ يقوم بالباقي.

كرّر أديمار: «على الأقلّ، ستكون بأمانٍ إلى جانبي. صديقك رمزي يخيفني. أتساءل كيف تتحمّله! يبدو كأنّه مجنون. يهمس الناس إنّ "تزييناته" هي في حقيقة الأمر قداديس شيطانية. يترأسها إبليس شخصياً. ويقول آخرون أيضاً إنّه يأكل لحم البشر وإنّ أقسامه المفضّلة هي الكبد والقلب وكذلك (هنا، خفض صوته) عانة المتوفّيات الشابّات».

ودَّ قاسم لو يقبل هذا العرض، لكنّه عجز عن إدارة ظهره لرمزي. فضلاً عن ذلك، ألزمه شعورٌ بالولاء. غباء! فهل سينتبه الآخر لو أنّه اختفى؟ هكذا فكّر بمرارة. هكذا تنتهي علاقاتٌ بدأت بالصداقة. هل تنتهي العلاقات الإنسانية كافّةً على هذا النحو؟

كان أديمار شاباً يحبّ الاحتفال حبّاً جمّاً، ولم يؤثّر في ذلك الميل الجوُّ الثقيل المنبعث من القصر الرئاسي. كانت لديه آذانٌ في كلّ مكان ويدري كلّ شيء: التسونامي في آسيا وأنفلونزا الطيور في آسيا أيضاً والهزّة الأرضية في كشمير وحتّى عودة زين الدين زيدان إلى المنتخب الفرنسي ورحيله، والاتّهامات الموجّهة ضدّ لينس أرمسترونغ بتناول المنشّطات، فيخلط التافه بالمهمّ. بعد انتهاء يوم العمل في المطبخ، يمضي مع قاسم بسيّارة موستانغ مكشوفة اشتراها من عنصرٍ من عناصر كتيبة حفظ السلام عاد إلى بالتيمور. أدرك قاسم أنّه لا يعرف هذه المدينة، مع أنّه يقيم فيها منذ أشهرٍ طويلة. فعلى الرغم من الرعب الذي يبثّه فيها رجال الشرطة، المستعدّون دائماً لتفريق التجمّعات والضرب بعصيّهم الغليظة وتوقيف الأشخاص الذين لا مأوى لهم والمتسوّلين بل والمتسكّعين وكأنّهم مجرمون، هذه المدينة حارّة، محمومة. فهي تمتلك المرَح الرائع المميِّز لبلدان الجنوب، المتناسب عكساً مع صعوبة العيش فيها. حرصاً على الاقتصاد في النفقات، حُوِّلت مكبّرات الصوت التي نُصبت بعد موت أونوفريا فباتت تبثّ سيرة بيغ بوس الشخصية الثريّة، المعروفة إلى حدٍّ كبير -توجد أيضاً على شكل رسوم متحرّكة- ولم يكن أحدٌ ينصت إليها. لم تكن المدينة سوى باراتٍ ومشارب وصالات احتفالٍ تدوّي فيها موسيقا الهيب هوب. وكان أديمار يعرف أركانها كما يعرف جيبه، ويقود فيها قاسماً.

في ما يخصّ الوباء، طرح رجال العلم أخيراً، بعد مدّة، تفسيراً له. فقد قالوا إنّ الأمر يتعلّق على الأرجح بمرضٍ ناجمٍ عن تلوّثٍ معقّد، حدث في خزّانات المياه الواقعة على ارتفاعٍ كبير. وهو يؤثّر في أجساد الشابّات

اللواتي أضعفهنّ بلوغهنّ الحاصل قبل مدّةٍ وجيزة. لم تُرضِ النظرية، المتسرّعة نوعاً ما، أحداً. لهذا السبب، واصل الشعب تداول أساطيره.

وحدها حفنةٌ من الطلّاب أصغت إلى الأقوال العلمية الأكثر تفصيلاً، والتي قدّمها البروفيسور فرانكل بهذا الصدد. فقد لاحظ أنّ جميع المتوفّيات امتلكن بين أغراضهنّ الشخصية صندوقاً من مستحضرات نيفرتيتي. كما أكّد أقاربهنّ أنّهنّ كنّ يسهبن في مديح أحمر شفاهٍ اسمه تانغو. ألا يجب توجيه التحقيقات باتّجاه الشركة التي تصنّعها؟ كان هذا المؤتمر سيحظى بالصدى الضعيف المخصّص عادةً للأبحاث الجامعية لولا أنّ فرانكل طُرد بعد أقلّ من أسبوع بتهمة التآمر مع مجموعةٍ متّهمةٍ بالإرهاب: «مجاهدو الله». لم يتحمّل طلّابه تلك الإساءة لسمعة أستاذهم، المعروف بآرائه المناهضة للإرهاب. وقد فقد أحد إخوته في اعتداءات الحادي عشر من أيلول في نيويورك. استشمّوا رائحة المؤامرة المحبوكة، فجعلوا من أنفسهم محقّقين واكتشفوا أنّ مخترع منتجات نيفرتيتي، وهو إيطاليٌّ اسمه ألدو مورافيا، قُتل مع ابنه الذي كان ذراعه الأيمن قبل شهرين في حادث سيّارة. عادت أرملته إلى مدينة بولونيا. في خضمّ إصرار الطلّاب، توصّلوا إلى الحصول على دفاتر طلبيّات الشركة التي صُفّيت وتفحّصوها، فوقعوا على هذا الواقع الغريب: كان ألدو مورافيا المزوّد الرسميّ للدكتور رمزي الذي يشتري منه مساحيق وكْريمات التجميل المكرّسة لـ«التزيينات». وعندما لم يتمكّنوا من الاقتراب من رمزي، المحميّ بوظائفه السامية لدى بيغ بوس، ذهب وفدٌ منهم للالتقاء بقاسم في مطعمٍ يرتاده.

رآهم وقلبه يخفق، ثلاثة شبّانٍ وفتاة، خجولون لكنّهم مُهدِّدون، خانعون لكنّهم مقاتلون. بدأت المقابلة بأحاديث عاديّة:

- درسنا مع البروفيسور فرانكل الموجود حالياً في جامعة كولومبيا. لا شيء يواسيه على منفاه وهو يتأسّف كثيراً لمغادرته «بورتو فيراي».

- ذهابه خسارةٌ حقيقيةٌ للجامعة!

انضمّ قاسمٌ إلى ذلك التوافق في الآراء: «بل للبلد بأكمله».

ثمّ غامر أحد الشبّان قائلاً: «نحن لا نفهم اهتمامكم بمنتجات نيفرتيتي. أليست "التزيينات" وظيفةً دينيةً محضة؟».

شرح قاسم، مستذكراً خطابات رمزي المسهبة العنيفة: «عليك ألّا تقلّل من شأن إحدى سماتها، وهي أساسيةٌ على الرغم من كونها ثانوية. يجب أن يتشرّب من بقي على قيد الحياة بأفضل صورةٍ ممكنةٍ لذاك الذي خسره إلى الأبد. ينبغي إذاً أن نجعل المتوفّى جذّاباً من أجل هذا الوداع الأخير. الدكتور رمزي بارعٌ في فنّ المكياج، ونحن هنا أمام فنٍّ حقيقي. عدم خيانة شخصية المتوفّى. "تجميله". إبراز مزاياه وقسماته المميّزة ببساطة».

كان الطلّاب الأربعة يدوّنون بورعٍ ملاحظاتٍ على دفاتر كبيرةٍ مسطّرة. سأل أحدُهم: «هل تعرّفت شخصياً بالسيّد مورافيا؟».

هزَّ قاسمٌ رأسه: «لا».

- وهل كان الدكتور رمزي يعرفه شخصياً؟

- لا أعتقد. أتذكّر أنّ السكرتيرة هي التي كانت تطلب مستحضرات نيفرتيتي بالفاكس، وأنّ تلك المستحضرات كانت تُسلَّم بطرودٍ بريدية. هذا كلّ ما في الأمر.

جانبَ قاسم الحقيقة. فعندما كانا في «بورتو فيراي»، قدّم له رمزي ألدو مورافيا وابنه غويدو. ولاحقاً، رآهما مرّاتٍ عديدة، إذ ذهب الأب

والابن مراراً إلى «بيت الأرواح». بل إنّه هاجم غويدو بسبب طريقته في التفرّس في حفصة صراحةً. غير أنّ حدساً غامضاً أوحى إليه بأنّ كتم ذلك كلّه أفضل، لأنّه يقترب من سرٍّ محفوفٍ بالخطر يبعث على التخوّف. لدى عودته إلى القصر، راودته نفسه أن يحكي لرمزي بصراحةٍ عن تلك المقابلة. أليس مثيراً للقلق أن يقترن اسمه بالوباء؟ لكن عندما عاد، بدا رمزي بعيداً، منشغلاً بأفكاره، ففضّل الصمت.

تميّز ذلك الأسبوع بطعمٍ مرّ.

فبعد يومين من زيارة الطلّاب، أخبره أديمار، الذي تصله الأخبار بأسلوبٍ غامض كالعادة، بأنّ فايل اتُّهم بالانتماء هو أيضاً إلى منظّمة «مجاهدو الله». وهو ينتظر في زنزانةٍ مشدّدة الحراسة ساعة شنقه علناً في ساحة «سيّدة الحبل بلا دنس»، الساحة ذات الصيت السيّئ. أجهش قاسم بالبكاء وقال محتجّاً: «هو لم يفعل شيئاً! لم يفعل شيئاً. إنّه بريء».

نصحه أديمار: «وما أدراك؟ لا تتدخّل في هذا الأمر! السياسة ليست لأمثالنا أنت وأنا. يجب أن يكون المرء مسنوداً بقوّةٍ كي ينغمس فيها».

وأضاف: «لا أريد أن يحدث لي ما حدث لأبي».

تخفيفاً عن قاسم، أخذه إلى مكانٍ للنخبة اسمه «تربيع الدائرة»، وهو مرقصٌ لا ترتاده سوى ذرّية الوزراء والوجهاء في «بورتو فيراي». وكان يُقبَل فيه بشرط ألّا يتجرّأ فيدعو شابّةً لمراقصته. استقرّا إذاً في ركن، يحتسي أحدهما فودكا سميرنوف ويحتسي الآخر كأس مارتيني مزدوجاً مع الزيتون. ثمّة ما يثير الاهتمام في تأمّل ذوي الحظوة. إيماءاتهم الصغيرة. الوضعيات التي يتّخذونها. «*The Beautiful People*» كما يُلقَّبون. لكنّ ذلك كلّه لم يبعث السرور في نفس قاسم.

تساءل بمرارة: ما الذي لديهم أكثر ممّا لديّ؟ لقد وُلدوا في المكان الصحيح، هذا كلّ شيء. لم يولدوا من تزاوج مهاجرٍ أسود دُفع من حقول قصب السكّر في جزيرته التي تفرّخ العاطلين عن العمل، ومهاجرةٍ شقراء أدارت ظهرها لدواجنها، نصف أمّية. شعر بظلمٍ لا يوصف. فالكائنات الرائعة التي تتدافع في متناول الاشتهاء محرّمةٌ عليه. لماذا؟

سحرته واحدةٌ منهنّ بخاصّة. صغيرةٌ لكنّها تُذهب العقل، وضعت في ذهنه بصورةٍ لا يمكن مقاومتها المقطع الثالث من قصيدة بودلير التي يعرفها:

بهاتين العينين الكبيرتين السوداوين، نافذتَيْ روحك
يا شيطاناً لا رحمة لديه! اسكبي لي مقداراً أقلّ من اللهب
أنا لست ستيكس(*) لأقبّلك تسع مرّات.

صدّارها يؤوي قنبلتين حارقتين. يحيط بها بلاطٌ حقيقي. عندما ترقص، يتوقّف الجميع ويتحلّقون حولها لتأمّلها بإعجاب. لقبُها إيبوني ستار، وانتُخبت قبل وقتٍ قصيرٍ ملكة جمال البلاد، بعد واحدةٍ من تلك المسابقات التي يوجد كثيرٌ جدّاً منها اليوم، ملكة جمال العالم، ملكة جمال العالم الثالث، ملكة جمال العالم الرابع، ملكة جمال أميركا الشمالية، الوسطى، الجنوبية. هي ابنة وزير الداخلية، ابن عمّ الرئيس. شعر قاسم بلهب الرغبة المعتاد يستهلكه وأثقل على نفسه بضروب اللوم: «لماذا لحمي ضعيفٌ إلى هذا الحدّ؟ لم تكد آنّا ماريا تقضي حتّى أصبحت أتحرّق لحفصة. ولم تكد حفصة تُدفَن حتّى بتُّ على وشك فقدان عقلي من أجل إيبوني ستار هذه».

(*) إلهةٌ من الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية، تشخّص نهر ستيكس، أحد أنهار العبور إلى الجحيم.

بعد الساعات التي أمضاها في «تربيع الدائرة»، بدا له كلّ شيء أكثر بؤساً في القصر.

في تلك الليلة، كانت الأرض تمرّ بين الشمس والقمر. وبما أنّ الحدث نال دعايةً كبيرةً من وزارة العلوم، لأنّ الاهتمام بما يحدث في السماء وسيلةٌ لإخفاء ما يجري على الأرض، فقد امتلأت الحديقة بأصوات الأطفال والنساء والخدم، يترقّبون على أمل حدوث إعتامٍ كاملٍ للسماء. لكن خاب انتظارهم. فقد انقضت الساعات وبقي القمر مائلاً للاحمرار.

تناسى قاسم الضجيج أسفل نوافذ غرفته، وكان يستعدّ للخلود إلى النوم عندما دفع رمزي الباب بخشونة.

ارتمى على الأريكة منهكاً وكأنّه لاعب ماراتون كينيٌّ في نهاية إنجازه وشدّ إليه قاسماً، في حركة حنانٍ لم تصدر عنه منذ وقتٍ طويل، وقال بحماسة: «اقترح الرئيس أن أُسمّى المرشد الأعلى للثورة».

«أيّ ثورة؟»، سأل قاسم باستغراب.

فأجاب رمزي بجفاء: «لا تطرح مثل هذه الأسئلة، فقد تضرّك. في بلداننا توجد دائماً ثورة، حتّى لو لم يلحظ ذلك أحد».

لم يكن لهذا الكلام معنى. استفهم قاسم: «هل ستوافق؟».

فقال رمزي: «لا أدري بعد. سأقول لك إنّ السلطة السياسية لا تغويني بأكثر ممّا تغويني السلطة الدينية. طموحي هو التأثير في الناس بوسائل أخرى».

- أيّ وسائل؟

استأنف رمزي بهيئةٍ حالمة: «أنا ما زلت أبحث. أودّ أن أبقى في ذاكرة الناس. مثل نيرون على سبيل المثال. أن أكون الأعظم في مجالٍ

غير مألوف، مجالٍ لافتٍ للنظر. أنا أعلم أنّ من يطرحون الأسئلة بصددي كثُر. "من هو؟ إنسان؟ ملاك؟ ساحر؟". أرغب في المضيّ أبعد. أرغب في إرباك العالم».

غير أنّ قاسماً لم يتوقّف عن التساؤل: ماذا يعني «المرشد الأعلى للثورة»؟ ما الذي سيخترعه رمزي أيضاً؟ ألن يستدعي ذلك أعداءً جدداً له؟ إنّه يستدعي أصلاً احتقار كثيرٍ من الناس ويشاع عنه بأنّه أحد أخطر الناس في البلاد. وقد أقسم بعضهم على إهلاكه.

كيف ستتغيّر حياتهما ثانيةً؟

في اليوم التالي، حضّر قاسم في المطبخ وهو كئيبٌ قِطعاً من الديك الرومي من دون أن يلقي بالاً لمزاح رفاقه. انقضى النهار بكآبة. وفي المساء، جلس من دون حماسةٍ خلف إحدى أشجار نخيل «تربيع الدائرة» الموضوعة في أصص.

كانت إيبوني ستار ترقص ببراعةٍ على الحلبة. في ذلك المساء، ومن دون سابق إنذار، اتّجهت نحو طاولتهما مباشرةً، وسألت قاسماً دونما نظرةٍ إلى أديمار: «هل أنت مساعد الدكتور رمزي؟».

تمتّع بالشجاعة اللازمة ليهزّ رأسه سلباً: «لا، أنا طبّاخٌ في القصر».

لم تستسغ إجابته وقالت بغضب: «أتدري؟ أيّاً كانت قبّعتك وأيّاً كان اسمك، تبقى الرجل عينه».

تحت نظرتها النارية، شعر قاسم على الفور بأنّه اختُزل إلى كومةٍ ضئيلةٍ من الجمر.

أمرته قائلةً: «تعال للرقص!».

قال قاسم متلعثماً: «لا يحقّ لي ذلك. الإدارة لا تسمح لنا...».

– هي تسمح بما أريده أنا.

أمسكت ذراعه. وتحت قبضتها، انتقل من الظلّ إلى الضوء. لم يكن قاسم راقصاً بارعاً. لم يبرع يوماً في هذا المجال. وهي النقطة الوحيدة التي خيّب فيها أمل كيلير الذي لطالما علّم أبناءه في ساعات فراغه كيف يتخلّعون.

يقول له ساخراً: «أنت أشبه بأمّك!».

عادت إلى ذاكرته ملاحظات أبيه ومداعبات إخوته الساخرة، السعداء بتفوّقهم، حتّى لو لم يكن ذلك إلّا في هذا المجال، فزادت خَرَقه. لم تسعَ إيبوني ستار وأصدقاؤها إلى إخفاء ابتساماتهم.

همس لأديمار عندما انتهت المقطوعة وعاد إليه: «ما الذي تريده؟».

– أتساءل عن ذلك. لا شكّ أنّها لا تريد أمراً حسناً.

ثمّ نهض وقال: «فلننسحب من هنا بسرعة. إنّها أكثر خطورةً من أفعى مامبا».

تبعه قاسم متأسّفاً. شرح أديمار في السيارة قائلاً: «لا أدري من الذي قال إنّ الهرب هو المخرج الوحيد في بعض الحالات. لدى إيبوني ستار بالتأكيد فكرةٌ خفيّة. هي تريد استغلالك. وصدّقني، لن تستغلّك من أجل أمرٍ حسن!».

لماذا لا يستطيع أن يتخيّل أنّه لفت نظرها فحسب؟

أمضى قاسم بقيّة الليل وهو يحلم. كانت إيبوني ستار عاريةً في سريره. تشدّه بساقيها الطويلتين المرنتين ويهبطان بسرعةٍ زحلوقة المتعة، ملتحمَيْن.

في اليوم التالي، أحضر له خادمٌ عموميٌّ رسالةً إلى المطبخ. ورقة

جميلة معطّرة. لكن بكتابةٍ غير متقنة، طفولية. يبدو أنّه ليس لدى ملكة جمال البلاد ما يشير إلى حصولها على شهادةٍ عامّة.

عزيزي قاسم،
لماذا هربت بهذه السرعة البارحة؟ هل أنت خائفٌ منّي ؟ أنتظرك بعد العمل على العنوان التالي:
24، تجمّع إيشو السكني المدعو تجمّع الوزراء السكني.

توسّل إليه أديمار: «لا تذهب! أكرّر لك إنّها أشدّ خطراً من أفعى كوبرا. هي تريد بالتأكيد استغلالك في مسألةٍ قذرة».

لكنّ قاسماً اتّخذ قراره. ومثل إيكاروس(*)، حتّى لو فقد نظره، بل حياته، سوف يحترق بشمس إيبوني ستار.



(*) Icarus: في الميثولوجيا اليونانية، عبدٌ من كريت، مات بعد أن اقترب بطيرانه من الشمس وهو يهرب من المتاهة بجناحين صنعهما والده بالشمع والريش.

.12

لم يكن قبل ذلك قد غامر حتّى تجمّع الوزراء السكني، المفصول عن المقرّ الرئاسي بغابةٍ كثيفةٍ من أشجار الأبنوس. ليس هنالك ما هو غير اعتياديٍّ في ذلك التجمّع. فمعالم فخامته جامدةٌ بقدر جمود معالم الفقر. تبرز من بين الأشجار المتجمّعة داراتٌ كاليفورنية الطراز ذات عشبٍ بلون براعم الخس، بأزهارٍ ومسابح ذات مياهٍ زرقاء وسيارات مرسيدس في المرائب. وبما أنّ الدُّرجة الرائجة تقضي باقتناء طيورٍ من الأميركيّتين في الحدائق الهائلة الحجم، فقد علّق مهندسو المناظر الطبيعية على ذُرا الأشجار الاستوائية أقفاصاً من طيور البواق والمكاو والعُقاب. نظر قاسم بإعجابٍ إلى النسور الملوك وهي تفتح عيناً سوداء وتحدّق في ثلج ريشها.

كانت إيبوني ستار تسكن دارة إفسس. ويشي هذا الاسم بميل أبيها، الياسين، إلى العمارة اليونانية. وبالفعل، عمل الياسين بُعيد تخرّجه في كلّية الدبلوماسية في سفارة بلده في أثينا، وتحمّس للمعابد ذات الطراز الدوري. وقد أحبّ بخاصّةٍ معبد أبولو إبيكوريوس الواقع في باساي قرب فيغاليا. لكنّ ذلك لم يمنعه من أن يكون مولعاً بالحداثة، ومن أن يكون اختصاصياً في السياسة الخارجية الأميركية. كانت إيبوني ستار ممدّدةً على

حافّة مسبحٍ أولمبيّ الأبعاد، ترتدي لباس سباحةٍ من قطعتين، لحميّ اللون، ما جعل قاسماً يعتقد للوهلة الأولى أنّها عاريةٌ تماماً فكاد أن يغمى عليه.

هتفت: «ها هو ذا "مزيّن" الموتى!».

لماذا تصرّ على إطلاق هذه التسمية عليه؟ فهو لم يعد مساعد رمزي منذ أسابيع. جلس مغموماً. لاحظت ذلك وأخذت تهزأ به: «أنت تفضّل أن أسمّيك "طاهياً"؟ في نهاية المطاف، الأمر سيّان. فأنت تربّت على اللحوم. سواءٌ أكانت حارّةً أم باردة. حسب الحالة».

دفعتها تلك المزحة الرهيبة إلى التلوّي ضحكاً. تساءل رمزي عمّا إذا كانت قد دعته لتسخر منه. أليست في الحقيقة، مثلها مثل حفصة، مهووسةً بآخر غيره؟ ألم تكن تأمل الاقتراب عبره من ذلك الآخر؟

تابعت وهي تشير له إلى مكانٍ قربها: «ذهب سيّدك رمزي إلى ليدز ليدرس الطبّ، وأصبح طالباً للساحرة إداين ماكّوي. في ليالي ساماين، أي عندما تزول الحواجز بين المرئيّ وغير المرئيّ، يقود جيوشاً من الأقزام الذين يهرعون من أرجاء العالم لتنفيذ كلّ ما يطلبه».

يا لها من حماقات! هكذا فكّر قاسم، لكنّه لم يبدِ احتجاجاً، فقد أسكرته الرائحة الحارّة المنبعثة من هذا الجسد العاري، شبه الملاصق له. واصلت سرد سخافاتها: «إنّه يسافر في الزمن والفضاء كما يشاء. يعود إلى الماضي. وبفضل أقزامه، يعلم كلّ ما يجري على الأرض. بل إنّه يستطيع أن يقرّر ما سيحدث بعد الموت».

في ذلك اليوم، بدأت علاقةٌ فتحت لقاسم أبواب عالمٍ مجهول. لم يكن ليتخيّل مثل هذا الوجود. ترعرعت ملكة الجمال الوطنية في واشنطن حيث كان والدها سفيراً، لكن لم يكن فيها ما هو وطنيٌّ إلّا الاسم. وعلى

الرغم من إتقانها الفرنسية، فقد كانت تبدأ جملها كلّها بكلمة «*Man*» وكأنّها أميركيةٌ من بروكلين، وتكرّر عبارة «*See what I mean?*» بلكنةٍ صافيةٍ تماماً. تحتقر كلّ ما تنتجه الأمّة وتتحدّى منع «التدخّلات الأجنبية» الرئاسي، فتمضي ساعاتٍ وهي أمام الشاشة الضخمة الفائقة التسطيح لتلفزيون من ماركة سوني. من بين مئات القنوات التي تتمكّن من التقاطها، قنوات الولايات المتّحدة هي المفضّلة لديها بطبيعة الحال. ليست من بينها بالطبع قناة PBS ولا حتّى قناة CNN، ولا أيّ قناةٍ من تلك القنوات التي تغذّي عقل مشاهديها. لا! إذ تفضّل الحوارات الأكثر بذاءةً، وبرامج كوميديا الموقف الأكثر سذاجةً. فلنقل إنّها ليست عنصرية! إذ إنّها تتلوّى ضحكاً أمام المشاهد الأكثر بلاهةً، سواءٌ أكانت بيضاء أم سوداء. تتفرّج دونما حراكٍ على أعنف الأفلام وتلين من دون مرحلة انتقالية، وتبكي بدموعٍ حارّةٍ أمام أشدّ أنواع الميلودراما ركاكةً. أمّا عندما توافق على انتزاع نفسها من ملذّات الشاشة والخروج، فتسليتها المفضّلة هي قيادة السيّارة بأقصى سرعة، أكثر من مئتي كيلومتر في الساعة، وصولاً إلى جونٍ يُطلق عليه اسمٌ غريب: «جون الغرقى». ولدى وصولها، غير واردٍ أن تضع جسدها في الماء، بل تكتفي بدهن جسمها بطبقاتٍ سميكةٍ من الكْريم الواقي من الشمس ذي الحماية القصوى وتتمدّد على الرمل وتستسلم لقرصة الشمس. تُدعى هذه اللعبة الخرقاء «لعبة السائحين». وفي حين يسبح قاسم، تبقى إيبوني ستار على الرمل من دون حراك. خلف حاجز المرجان، يرسم الزبد أشكالاً ملتوية. البحر يخيفه لكنّه يبعث في نفسه في الآن عينه هدوءاً عميقاً. كما لو أنّ البحر في حضرة شخصٍ طاعنٍ في السنّ، تشي كلّ تجعيدةٍ من تجعيدات وجهه بالحكمة. فالبحر قديمٌ جدّاً!

هو أسبق من الإنسان. وشهد مآسي كثيرة. وحمل كمّاً كبيراً من الأجسام في كفنه.

عدا ذلك، تشرب إيبوني ستار كمّاً هائلاً من المشروبات الكحولية، وتستهلك لفافات الحشيش وتتعاطى المخدّرات، شمّاً وحقناً. أمّا قاسم، فيتذكّر يفاعته المجتهدة والكئيبة. ما الذي منعه من الاستمتاع بشبابه الأوّل؟ كان مقتنعاً بأنّه لو استطاع أن يسمّي بلداً أو مدينةً بلده أو مدينته، لاختلف كلّ شيء. في سوسي، لم يتوقّف الناس أبداً عن اعتباره، هو وعائلته، أشخاصاً غريبين، أشبه بتحوّلات شخصية كاليبان في مسرحية شكسبير «العاصفة»:

«ماذا لدينا هنا، في شارع الكنيسة؟ بشرٌ أم سمك؟». «القهوة بالحليب يتحدّثون لغتنا، مع أنّهم طيورٌ غريبة».

ذات يوم، سحبته إيبوني ستار معها نحو أبيها أثناء عبوره الحديقة مستعجلاً، مستعجلاً، يبدو كرجلٍ مهمّ، شأنه شأن جميع من نالوا حظوة الاقتراب من بيغ بوس، يدفع كرشه أمامه: «بابيتو، هذا مساعد رمزي».

توقّف الأب في مكانه على الفور وقال: «أهذا هو؟».

تفحّصه بعينيه الباردتين الأشبه بعيني أفعى ذات أجراس، كما لو أنّه يسبر أغواره بهدف تكليفه بمهمّة. خاف قاسم وقال محتجّاً: «أنا مجرّد طبّاخ!».

ضحك الآخر ممّا بدا له سرعة بديهةٍ وقال: «هذا ما تزعمه. من يعِش يرَ!».

ثمّ ابتعد بمشيته التي تُذكّر بمشية القرود. سيطر على قاسم هاجس وجود خطرٍ داهم. أديمار محقّ، فإيبوني ستار تستعدّ لتمريغه بالوحل.

لماذا لا يهرب منها؟

لا سيّما أنّ علاقتهما لم تتطوّر جسدياً. ولئن كانت تجرجره وراءها في كلّ مكانٍ وكأنّه كلب لاسا أبسو أليف، فهي لم تمنحه أيّ قبلةٍ مهما كانت طفيفة، ولا أدنى مداعبة.

ذات يوم، تجرّأ على الشكوى: «يخيّل للمرء أنّك لا تحبّين الخلاسيين. أليس كذلك؟!».

هزّت كتفيها من دون أن تردّ.

ألحّ قائلاً: «أم أنّك لا تحبّين المسلمين؟».

فأجابت: «كفاك تفوّهاً بالحماقات. لكلٍّ أن يعبد الربّ الذي يريده. ونحن جميعاً خلاسيّون في عالم اليوم. كلّا! نحن مجرّد صديقين. وليس ثمة علاقة بين الصداقة والجنس».

كان قاسم يعود منهكاً من تلك الخلوات العديمة الجدوى. ذات مساءٍ وعلى نحوٍ استثنائي، لم يوارب رمزي الذي كان ينتظره في صالة الجلوس. فقد قال له: «هذه البنت التي تسمّي نفسها إيبوني ستار، واسمها الحقيقي ماري ديزيريه، لا تريدك هي أيضاً. أليس كذلك؟».

شعر قاسم بوجهه يلتهب ولم يعترض، بل قال وعيناه تترقرقان بالدموع: «لا أدري لماذا لا تريدني أيّ فتاة».

هزَّ رمزي كتفيه: «لأنّك لا تعرف أن تختار. أنت تطمح للحصول على وصوليّات، مضطرباتٍ يلعبن على الحبلين معك، يتظاهرن فحسب أنّهنّ مهتمّاتٍ بك لأنّهنّ يردن الوصول إليّ. ماذا عن إيبوني ستار هذه؟».

اعترف قاسم ببؤسٍ قائلاً: «لست أدري ما هي اللعبة التي تنساق إليها».

ظلّ الآخر صامتاً لبعض الوقت، ثمّ سأل: «هل ترغب فيها بقدر ما رغبت في حفصة؟».

فصاح قاسم بانفعال: «بل أكثر بكثير! ألا ترى كم هي جميلة؟!».

تجهّم رمزي: «لمحتها مرّةً أو مرّتين. مهتاجة. كثيرة الجلَبة. هذا لا يكفي لجلب الاهتمام في رأيي. لكنّ رأيي قليل الأهمّية. رأيك وحده هو المهمّ».

ساد صمتٌ جديد، ثمّ استأنف: «ألم يخطر في بالك يوماً أنّها ربّما تريد توريطك في مؤامرة؟ هل تريد أن أخفيها من طريقك؟».

فقال قاسم فزِعاً: «تخفيها؟ كيف ذلك؟».

– أنت تعلم، حادث سيارة أمرٌ سريع الحدوث.

وبما أنّ قاسماً كان يحدّق فيه من دون أن يتجرّأ على الفهم، فقد بدّل الموضوع: «والدُها، الياسين، كان لوقتٍ طويلٍ العضو العلماني الوحيد في مجلس الرئيس السرّي. هو يكرهني وربما يستخدم ابنته للوصول إليّ عن طريقك».

قال قاسم كاذباً: «هي لم تتحدّث لي يوماً عنك».

لم يصرّ رمزي وغيّر الموضوع ثانيةً: «قرّرتُ قبول عرض الرئيس. في الثامن من كانون الأوّل، ذكرى وفاة أمّه، وأثناء الاحتفال بالذكرى، سوف يعلنني مرشداً أعلى للثورة».

أخذ يحلم بصوتٍ مرتفع: «ما الذي سأفعله بهذه السلطة؟ لست أدري بعدُ. أحلم بتحقيق مشروعٍ كبير».

تساءل قاسم وقلبه مفعمٌ بحقدٍ مشوبٍ بالغيرة: ما الذي يجذبه في

الرئيس؟ ما الذي يمكن أن يقولاه عندما يكونان معاً؟ ليس بينهما ما هو مشترك. أحدهما ليس لديه أب، ربّته مع إخوته أمٌّ محتاجةٌ دفعت به إلى الجيش حين بلغ الخامسة عشرة من عمره، حيث تعلّم أن يقتل ويقتل ويقتل. والآخر سليل عائلةٍ من الأرستقراطيّين، من المتعلّمين. كان سلَفه واحداً من أوائل الذين درسوا في جامعة سانكوفا في مالي، ولطالما تباهى بذلك! على الرغم من أنّ هذا النسب يبدو كأنّه يضايقه حالياً.

غداة هذه المقابلة، صدحت إيبوني ستار بطلبٍ مذهل: «أريد دخول جناح إيزابيل سيلينا. أريد حضور "تزيين"».

صاح قائلاً: «هذا مستحيل!».

ثبّتت نظرها عليه: «لماذا مستحيل؟».

حاول أن يشرح: «هنالك حرسٌ حول جناح إيزابيل سيلينا. قفلٌ له رمزٌ لفتح الباب».

كنست هذه الاعتراضات: «الحرس يعرفونك، وأنت تعرف الرمز».

قال باضطراب: «هل تعلمين ما هو "التزيين"؟».

– هذا بالضبط ما أريده. أهل البلد جميعاً يتساءلون عمّا يفعله رمزي والرئيس معاً، ليلةً بعد ليلة. لا أحد يتكلّم إلّا عن تلك الجلسات الغامضة التي يتقوّلون عليها همساً. هل سلّط رمزي سحراً على الرئيس؟

كان رمزي محقّاً: هي لا تهتمّ به. هو ليس أكثر من وسيط.

في الأيّام التالية، عادت تلك العنيدة للهجوم، مطعّمةً طلباتها بالمداعبات التي لم تعتد تقديمها لقاسم. فصارت تلتصق به وتلتفّ حوله وتعضعض أذنه وتقبّله وتقرصه، تضحك كالمجنونة من الانتصاب الذي تستثيره تلك الأساليب في اجتذابه إليها.

لم يتأخّر قاسم، رغماً عنه، في أن يلين.

سأل بعد ثلاثة أيامٍ من الضغوط: «في حال أدخلتكِ إلى جناح إيزابيل سيلينا، ماذا ستكون مكافأتي؟».

صدرت عنها حركةٌ سخيّة: «سيكون لك ما تريده! حدّد الثمن. سيكون لك حسابٌ معتبرٌ في سويسرا إن شئت. ما يكفي لتشتري قصر ألف ليلة وليلة في بلدك».

قاطعها قائلاً: «ليس لديّ بلد».

هزّت كتفيها: «لا تتفوّه بالحماقات! الجميع لديهم بلد. لكأنّك تقول لي إنّه لا أمّ لديك. أفقرُنا يعلم أنّه خرج من بطن امرأةٍ وأنّه وُلد في مكانٍ ما».

لم تكن مخطئةً تماماً. لكنّ قاسماً رفض مناقشة الموضوع. ولم تكن تلك هي اللحظة المناسبة أصلاً: «لا أريد سواكِ!»، هذا ما تجرّأ على الهمس به. هل أخيراً...؟

صدرت عن حنجرتها ضحكةٌ كشفت أسنانها الأشبه بأنياب حيوانٍ برّيٍّ وانتصبت، موجّهةً قذائف صدرها: «أنا لا أقول لا».

سيدهش المرء من عدم إنهاء قاسم علاقاته مع إيبوني ستار، بعد أن علم أنّ اهتمامها به يخصّ رمزي فحسب. لكنّه كان عاجزاً عن ذلك. لو أنّ رمزي أولاه مزيداً من الاهتمام! لكنّ الآخر لم يكن يفكّر إلّا بتنصيبه الوشيك. توالى مصمّمو القصر ووضعوا أكثر المخطّطات الأوّلية تنوّعاً: شملةٌ رومانية، غلالةٌ يونانية، إزار زعيمٍ من الأشانتي، بزّة لاعب كرة قدمٍ أميركيةٍ محشوّة، ثوبٌ فضفاضٌ ممّا يرتديه الواعظ. استوحى واحدٌ

من أولئك المصمّمين، وكان يعمل عند ألكساندر ماكوين، من اللباس الشعائري الذي ترتديه النساء المنديّات المنضمّات لجمعيةٍ سرّية. اقترح آخر طقماً من نسيجٍ صوفيٍّ بأربعة جيوب على طريقة ماو تسي تونغ. ألم يكن أوّل «مشرفٍ أعلى» أو «قائد الدفّة العظيم»، مثلما نشاء؟ في نهاية المطاف، اختار رمزي حلّة مراسم سوداء على طريقة كيانو ريف في فيلم ماتريكس، أو ثوب راهبٍ في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. بات يردّد خطابه وهو واقفٌ أمام مرآة، دونما كللٍ أو ملل.

اقتنع قاسم بأنّ رمزي تخلّى عنه، فانتهى به المطاف إلى الاستسلام أمام إيبوني ستار.

عندما أعلن لها أنّه موافقٌ على اصطحابها إلى جناح إيزابيل سيلينا، اعتقد أنّ حلمه سيتحقّق. ارتمت إيبوني ستار عليه وكافأته بقبلةٍ تعِد بملذّاتٍ غير مسبوقة.

في تمام التاسعة مساءً، وبعد وجبةٍ خفيفة، غادر دارة إفسس تتبعه إيبوني ستار، وخفقات قلبه تدوّي مثل ضربات مدقّةٍ في يد ربّة منزلٍ حيوية. دخلا إلى غابة أشجار الأبنوس. بدا كأنّ أشكالاً تقفز من غصنٍ إلى آخر. أجفلته ضحكةٌ مدوّيةٌ من قرد مكاك. وأخذت النسمات تعزف موسيقا ليليةً خفيضةً مقلقةً عبر أوراق أشجار الحديقة.

لم يحتسب أنّ الحراسة حول الجناح قد عُزّزت، والأرجح أنّ السبب في ذلك يعود لوجود الرئيس. فبعد أن كان عدد الجنود نصف دزينة، تجاوز عشرين رجلاً. غير أنّ أولئك الرجال كانوا مضطجعين على الأرض بوضعياتٍ بعيدةٍ كلّ البعد عن الوضعية القتالية. أحزمةٌ مفكوكة، بعضهم يلعبون بالورق وآخرون يستمعون إلى أجهزة المذياع الخاصة بهم.

أسلحتهم الكلاشينكوف موضوعةٌ أرضاً وكأنّها ألعابٌ غير مؤذية. عرف اثنان منهم قاسماً ونهراه بألفة: «هذا أنت يا صغير؟ تركتنا إذاً؟!».

ثمّ ميّزا ملامح إيبوني ستار فنهضا لتقديم تحيّةٍ عسكريةٍ لملكة جمالهما الوطنية. أدخل قاسم رمز الدخول بيدٍ راجفة، وأدخل المفتاح في القفل، ثمّ فتح الباب بدفعةٍ صغيرة.

في هذه اللحظة تحديداً دوّت طلقات نار. صدرت أوامر على شكل صياحٍ وبرز رماةٌ من بين الأشجار وفي أيديهم رشّاشاتٌ تبصق النار كالشياطين. أمسك الحرّاس بأسلحتهم بسرعةٍ وردّوا بقوّة. امتدّ ضبابٌ كثيفٌ في حين تلوّث الجوّ برائحة دخانٍ لاذعة. سعى قاسم مذهولاً إلى الفهم. فجأةً، سقطت إيبوني ستار التي كانت تقف إلى جانبه أرضاً وأنينٌ ضعيفٌ يصدر عنها.

لقد أصابتها رصاصةٌ في رأسها.

.13

عزيزي القارئ، أنت تعرف إطار الأحداث السياسية التي تفعل فعلها في حياة «بورتو فيراي»، أليس كذلك؟

لكنّ الأمر لم يتعلّق هذه المرّة بإعدام علنيّ في ساحة «الحبل بلا دنس»، في الهواء الطلق، قبالة أوّل كنيسةٍ شُيّدت في البلد، بل بمحاكمةٍ شعبيةٍ في الصالة الكبيرة في المحكمة. حيث جلس طلّاب الشهادة الثانوية في الصفّ الأوّل بإدارة أساتذتهم في التربية المدنيّة. وخلفهم، لم تتّسع المقاعد للجمهور، فجلسوا على الأدراج. منذ اليوم السابق، اصطفّ الناس على أطراف المبنى الذي شُيّد قبل مئة عام. لا يذهبنّ بك الظنّ للاعتقاد بأنّ قلوبهم لم تكن مفعمةً إلّا بفضولٍ مَرَضيّ، فكثيرون منهم شعروا بالشفقة. كانوا يفضّلون أن يروا أحد الأقوياء جالساً على مقعد المتّهمين، وليس ذلك الشابّ الصغير ذا الهيئة البريئة. لكن للأسف! العالم مصنوعٌ على هذا النحو. فالضعفاء هم الذين يدفعون الثمن. يقول مثلٌ ساخرٌ من غوادلوب: *La bayè ba, sé la bef ka janbé*(*). في الحقيقة، أن يكون ذلك الشخص الأشبه بالناموسة قد حاول ما يحلم به ثلاثة أرباع الأمّة جعله محبّباً.

(*) البقرة تقفز فوق القسم المنخفض من السور.

كان قاسم محتبساً في قفصٍ كأنّه وحش، مثلما احتُبس أعضاء الكتائب الحمراء في زمنٍ يعود إلى ما قبل ولادته. لكن كان واضحاً أنّه لو كان حرّاً لما آذى ذبابة. عُذِّب طيلة أيّامٍ لجعله يعترف باسم المنظّمة الإرهابية التي ينتمي إليها. امتلأ جسده بالجروح والكدمات. لم يعد يرى إلّا بعينٍ واحدة، فالثانية مغطّاةٌ بضمادٍ هائل الحجم. لم يقدر على البقاء واقفاً مثلما أُمر بأن يفعل من دون الشعور بآلامٍ رهيبة. لذلك تمسّك بقضبان القفص الذي سُجن داخله. غير أنّ ذلك كلّه لم يعادل أسى روحه.

كان يعلم أنّه سيمثل ذات يومٍ ضحيةً سهلةً أمام جلّاديه! فقد وُلد هذا التنبّؤ لحظة رأى جسد غارولاماي يتأرجح في الخلاء. أصبح الكابوس حقيقةً. كم كان ساذجاً! ففي أمله العديم الجدوى في أن يمتلك امرأةً أشعلت مرّةً أخرى حواسّه، كاد يتسبّب في موت ذاك الذي يبقى صديقه حتّى يثبت العكس! لقد تلاعبت به إيبوني ستار وكأنّه أبله. صحيحٌ أنّ رمزي وأديمار نصحاه بالحذر، لكنّه لم يستمع إليهما.

في التاسعة صباحاً، بدأت المداولات. في الطرف الآخر من القاعة، أدلى المحامي العامّ، أحد أذيال بيغ بوس، بقرار اتّهام منسوجٍ من التّرهات، وصل إلى سمعه متقطّعاً. تساءل ما إن كان الأمر يتعلّق به. لكن من هو في حقيقة الأمر؟ لم يعلم ذلك جيّداً في يومٍ من الأيّام. ومنذ أن وصل إلى هذا البلد الملعون، أخذت الأمور تسير من سيّئٍ إلى أسوأ. ربّما كان في نهاية المطاف حقّاً ذاك الذي يتحدّثون عنه!

إذا ما صدّقنا قرار الاتّهام، فقد كان المتّهم متورّطاً في الاعتداء على «دريم لاند» وأُخلي سبيله لعدم كفاية الأدلّة، صديقاً لفايل الخطر ولحفصة التي لا تقلّ خطراً، وجزءاً من منظّمة «مجاهدو الله»، فرع تلك

المنظّمة المعروفة التي نفّذت اعتداءاتٍ في أرجاء العالم كافّة، وبدايةً في الولايات المتّحدة الأميركية. كان وزير الداخلية المشؤوم يحلم بأن يحلّ محلّ بيغ بوس. ومع ابنته إيبوني ستار، ملكة الجمال الوطنية المزعومة التي انتُخبت على أثر مسابقةٍ احتيالية، حصل على خدمات هذا الخائن مقابل ثلاثة ملايين دولار، بهدف التسلّل مع قنّاصين من النخبة إلى جناح إيزابيل سيلينا. كانت الخطّة بسيطة. إصابة هدفٍ مزدوجٍ عندما يصلون إلى هناك. قتل الرئيس و«مرشد الثورة»، المنشغلَين ككلّ ليلةٍ بمهمّةٍ نبيلة: «التزيين». لكنّهم لسوء الحظّ لم يحسبوا حساب فعّالية الحرس الرئاسي، الفهود السود الذين دافعوا عن أنفسهم كاللبوات. فقد شتّتوا المهاجمين وقتلوا ثلاثةً من الخونة: إيبوني ستار والياسين وأحد الشركاء، وحيّدوا البقيّة. فضلاً عن ذلك، تضعضعت معنويات قاسم. إذ أُشيع أنّه ثنائي الميل الجنسي، وذكر شهودٌ موثوقون أنّه تحت أنظارهم باع نفسه لبحّارٍ ياباني التقاه في مشربٍ وتبعه إلى قمرته. كما أنّه كان يتنقّل مع أديمار، الوغد العديم الجنسية مثله، بين صالات القمار وبيوت المتعة. وإحدى تسلياتهما المنحرفة تتمثّل في النظر باستمتاعٍ إلى الجميلات اللواتي لا يستطيعان الحصول عليهنّ.

عندما بدأ محامي الدفاع في الكلام، سرعان ما تبيّن أنّه غير ذي شأن. كان رجلاً نحيلاً، سخّرته الوزارة لهذه المهمّة. قال إنّ قاسماً لا يمكن أن يكون إرهابياً مسلماً لأنّه ليس فيه من الإسلام سوى اسمه - من دون اسم عائلته، وذلك بسبب نزوةٍ من أبيه. وإنّه يضع في تصرّف من يشاؤون التأكّد بأعينهم شهادة تعميده، وكذلك إثباتاً على مناولته الرسمية. وعلى الرغم من أنّ نزوة أبيه توحي بالعكس، فإنّ الأمر يتعلّق بكاثوليكي، بابوي

ورومانيّ. وجدّته لأبيه، من أهالي لامانتان الأصليّين، معروفةٌ بأنّها ممّن نجّتهم السيّدة العذراء ويعرفها جيّداً الغوادلوبيّون الأتقياء. ففي موكب الخامس عشر من آب، وضعت يديها على قارب العذراء المبيّض مؤخّراً، فأفلتت منذ ذلك الحين عكّازيها اللذين يحملانها منذ سنوات. أمّا أمّه، فهي من رومانيا، وهذا كافٍ للشرح. أليست رومانيا الابنة البكر للكنيسة؟ تلك التي تجلس على يمين الآب؟

ثمّ تمثّلت استراتيجية المحامي في استدعاء شهود، فأقسم بيير لونورمان على الكتاب المقدّس إنّ قاسماً موظّفٌ مثالي، وإنّه لا أحد يصنع مثله الكْريمات المحروقة والحلوى التي تُسمّى جُزر نوميا العائمة. وأكّد أحد جيران «بيت الأرواح» أنّه أكثر الناس سخاءً. وهذا أيضاً ما فعله أحد النُدُل في مقهى «تربيع الدائرة»، إذ إنّه يتذكّر إكراميّاته جيّداً! غير أنّ المحامي العام هدم بسهولةٍ تلك الشهادات. فإذا كان المرء سيتأثّر بالثناء على هذا الطبّاخ، ألا يعادل ذلك إعادة استعمارٍ ثقافي يقوم بها الفرنسيون؟ أمّا الجار والنادل، فهما مسلمان. هل سنصدّق أشباه المنتمين إلى تنظيم القاعدة أولئك؟

لم تكن مفاجأةً إذاً أن تعود هيئة المحلّفين بسرعةٍ وفي حوزتها القرار التالي: مذنب. يبقى تقرير نوع الإعدام. شنقٌ علني؟ في ساحة «الحبل بلا دنس» مثل غارولاماي أو فايل؟ أليس هنالك ما هو أكثر تسليةً؟ على سبيل المثال، ملؤه بالبارود كأنّه برميلٌ وتفجيره على ارتفاعٍ غير كبير؟ اقترح هذه الفكرة أحد أعضاء هيئة المحلّفين، وهو أسقف المنطقة الشرقية وعضو مجلس بيغ بوس السرّي. فقد قرأ في كتاب طلاسم قديمٍ أنّ ملّاكي العبيد مارسوا هذا النوع من التعذيب في الماضي، بدعمٍ من الكنيسة الكاثوليكية،

في منطقة الكاريبي. غير أنّ هذا الاقتراح استُبعد على الرغم من كونه مسلّياً، إذ حُكم عليه بأنّه غير قابلٍ للتنفيذ. سيكفي إذاً الشنق المعتاد.

أخرج عددٌ من رجال الشرطة قاسماً من قفصه، وحملوه حتّى سيّارة الهامر المتوقّفة في مكانٍ غير بعيد، إذ إنّ الدوار أصابه وأفقده القدرة على المشي بعد أن عرف المصير الذي ينتظره. ثمّ سلكوا ثانيةً طريق المعسكر، وعويل صفّارة الشرطة يسبقهم.

عندما تكون الروح في مأتم، تعتقد أنّ العالم بأسره يشاطرها ألمها. وهكذا يتمنّى كلٌّ منّا أن تتوقّف الأرض عن الدوران يوم يغادرها. في لحظةٍ كهذه، تخيّل قاسم العالمَ وقد سادته الفوضى والعتمة. لكن لا، فذلك الخميس كان يوم خميسٍ طبيعياً، تلتمع فيه شمسٌ شتائيةٌ شاحبةٌ لكنّها صافيةٌ عبر الغيوم، وتزقزق العصافير بين أوراق الأشجار، ويقفز الأطفال فرحين على البلاطات الطافحة بمياه الأمطار.

يحتلّ معسكر بوينافيستا حيث يُحتَجز المجرمون الأشدّ خطراً أحد تلك الحصون التي بُنيت في الماضي على الساحل لتسهيل تجارة الأوروبيّين مع ملوك الزنوج، وفق الصيغة المعتادة. حدث ذلك في القرن السابع عشر، في زمن تجارة العبيد. في زمنٍ سابق، اجتذبت آلامُ الأسلاف مجموعاتٍ من السود الأميركيين، المفعمين دائماً بالحنين إلى أصلهم. لكنّ هذه الموجة انطفأت لسوء الحظّ عندما أصبح عدد المعتقلين السياسيين أكبر من عدد حبّات الرمل على الشاطئ، وبات بيغ بوس رمزاً لدكتاتوريةٍ لا ترحم. فخطرت في بال وزير الداخلية فكرةٌ لمّاحة: الاستيلاء على الحصون وتحويلها إلى سجون.

السجن ليس مجرّد مكانٍ للاحتجاز والإبعاد، إذ تجري فيه أحياناً

لقاءاتٌ سعيدة: ماركو بولو وصحافيّه. مالكوم إكس وإليجاه محمّد. هيلاريون هيلاريوس وجاك رومير. غير أنّ وضع قاسم كان مختلفاً قليلاً. إذ تقاسم زنزانته مع شخصٍ اسمه عبد القادر، وهو رجلٌ فظّ نوعاً ما، مهنته الجزارة، تقيٌّ عن اقتناع. كان قاسم يحبّ أن يركع خمس مرّاتٍ في اليوم إلى جانبه، أن يتلفّظ معه بكلماتٍ بسيطة، لكنّها ذات دلالة كبيرة: ﴿إنّ ربّكم الله الذي خلق الأرض في ستّة أيّامٍ ثمّ استوى على العرش يغشي الليل النهار﴾.

باختصار، عبد القادر هو الذي استكمل اعتناق قاسم للإسلام.

لم تكن توجد سوى نقطةٍ واحدةٍ قاتمةٍ في هذه الحكاية الرائعة. فقد أظهر هذا العملاق فنّه عندما قطّع زوجته الحامل بالسكّين إلى قطع. هذا النوع من الجرائم قليل الشيوع. وفي الشمال الذي يعود أصله إليه، أصبح مشهوراً بقدر جاك السفّاح ولاندرو وقنّاص واشنطن. كان عبد القادر يشعر بالذهول بسبب شهرته، فيحاول باستمرارٍ تبرير فعلته التي يمكن أن تبدو مريعةً ويقول وهو يجهش بالبكاء: «لم يكن الطفل الذي كانت تحمله منّي أنا. لقد خانتني. اتّخذت لنفسها عشيقاً. هل تعرف القرآن؟».

يؤكّد قاسم أن «نعم»، على الرغم من أنّه لا يعرف منه كلمةً واحدة، فيمسك عبد القادر بيده ويقول: «تذكّر! ثمّة ثلاث حالات فقط، ثلاثٌ لا غير، يحلّ فيها دم المسلم على المسلم. وإحدى هذه الحالات هي التالية: إذا ارتكب شخصٌ متزوّجٌ الزنا».

هتف قائلاً عندما أخبره قاسم بالحكم الذي وقع عليه بصوتٍ هامد: «كم أنت محظوظ! الشنق حتّى الموت».

كاد قاسم أن يختنق: «هل قلت إنّني "محظوظ"؟».

أن يموت من دون أن يرتبط باسمه إنجازٌ كبير، أو حتّى إنجازٌ صغير؟ كان بالإمكان تذكير قاسم بأنّ ذلك هو شرط معظم البشر. لكن هل يمكن أن تواسيه حقيقةٌ كهذه؟ كلٌّ منّا يحلم بالمجد لحسابه الشخصي من دون أن يتمكّن من النجاح!

أبدى عبد القادر وجهة نظره في الطبّاخ: «نعم، محظوظ! لن تجرجر أيّامك في هذا السجن اللعين، مُخاطراً بأن تصبح مخبولاً. في نظر بعض الناس، أنت تستحقّ لقب الشهيد على ما فعلت. وهذا يعني أنّك ستذهب من فورك إلى جنّة الله وأنّك ستتمتّع بصنوف السعادة كافّةً».

لم يكن قاسم قد فتح قلبه لرفيقه، خشية أن يسيء فهمه. ثمّ كيف يتحدّث عن آلامه لمن لا يهتمّ بآلام آخرين غيره؟ لا شكّ أنّك أيها القارئ انتبهت إلى أنّ ما يثير الانزعاج هو عدم اهتمام الناس إلّا بأنفسهم.

لذا، تمدّد على مقعده من دون أن يجيب. بات الجدار الذي يختتم حياته يقترب بسرعةٍ مخيفةٍ وحتمية، كما لو أنّه سائقٌ يشارك في سباق فورمولا 1 فقدَ السيطرة على سيّارته. هل يخاف من الاصطدام النهائي؟ أجل! فهو يتمسّك بحياته الكئيبة والخالية من المتعة.

أخذ عبد القادر يثرثر وقد عاد إلى همّه اليومي: «لم أرغب يوماً بامرأةٍ أخرى غيرها! فلمخمل بشرتها سواد ليلةٍ لا قمر فيها. وعيناها تعكسان صفاءهما على وجنتيها. أتعلم كيف شككتُ بوجود أمرٍ ما؟».

عدّد للمرة المئة الدلائل التي أنذرته. تحوّلت زوجته من امرأةٍ حارّةٍ ومتعجّلةٍ إلى امرأةٍ فاترة، لم تعد تطبخ حساء السمك بالملح الصخري والقريدس والسبانخ، ذلك الحساء الذي يحبّه كثيراً. لقلّة الوقت، هذا ما كانت تتذرّع به! وكان هو يتآكل من الداخل.

– الوقت؟ ما الذي يشغلها إلى هذا الحدّ حالياً؟

حتّى اليوم الذي اكتشف فيه أصيص الورد. قال متذكّراً للمرّة المئة: «آنذاك سننتُ بعنايةٍ سكّيني. لأنّ واجبنا يقتضي التميّز في كلّ شيء. فإذا قتلنا، يجب أن يتمّ ذلك بأسلوبٍ ممتاز. أنا لم أُسئ يوماً معاملة الحيوان الذي أذبحه».

لم يعد قاسم يعير انتباهاً لسردٍ ممجوجٍ حفظه غيباً. كان ذهنه في مكانٍ آخر. كم كانت أيامه ستكون مشمسةً لو أنّ حفصة شاركته مشاعره! لو أنّها استقبلته في فراشٍ عطِرٍ يشعّ بحرارة الحياة بدلاً من أن تدفعه عنها وهي تتلفّظ بأقوالٍ لا تُصدّق! لو أنّ إيبوني ستار قد اشتهته بالفعل بدلاً من أن تعِده بجسدها كما يُوعَد حمارٌ بجزرة! فلنكن أكثر جرأةً! لو أنّ دراستا قبل الجميع، الوحيدة التي لها قيمةٌ في الحقيقة، وبدلاً من أن تطرده إلى الأبد، استبقَته واحتفظت به داخلها، رافضةً أن تتركه يجابه فظاعات العالم! لو أنّه عرف عنها أموراً تتعدّى قوامها الذي يزداد جسامةً وقبوعها المتزايد في زاوية الصالة، أو خصلة شعرٍ تفقد لونها، منتقلةً من الشقرة الكتّانية إلى بياض الثلج! لو أنّها بدلاً من أن توجّه باستمرارٍ نظرات إعجابٍ وخنوعٍ إلى أبيهم، أدارت رأسها نحوه وألهبته بحبّها! ليس ثمّة أيّ شكّ! لكان رجلاً آخر. فاتحاً. مستكشفاً. مخاتلاً. قرصاناً في البحر الكاريبيّ. يطأ بجزمته أشجار المانغروف في جزيرةٍ عذراء. يقتل الهنود بسيفه. يلوي أعناق الزنوج ويجلدهم.

ثمّ فكّر برمزي الذي لم يظهر مطلقاً أثناء احتجازه. لم يرسل رسالةً واحدة. لم يرسل برتقالةً واحدة. في المحصّلة، لم يحصل إلّا على زيارةٍ واحدة: من بيير لونورمان الذي أبلغه بآخر الأخبار. فقد اقتيد أديمار

مخفوراً إلى طائرة وجْهتها روما. وهناك، عمِل زوج أمّه الناقم على طرده إلى الكونغو التي تعيش حرباً أهليةً قاتلة. ومنذ ذلك الحين، لم يعرف أحدٌ أخباره. أمّا رمزي، فيدور همساً أنّ نجمه آخذٌ في الأفول: «لقد استعاد مستشارو بيغ بوس الكاثوليك السيطرة وهم لا يتوقّفون عن وصم هذا المسلم الذي يؤدي دور الملحد بالعار. ليس ثمّة مفاجأة لو انتهى به المطاف قريباً حبيس معسكر اعتقال، يكسر الحجارة».

كانت الإشاعة التي تجتاز جدران السجون السميكة قد وصفت لقاسم فخامة احتفال تنصيب «مرشد الثورة». فقد جُلب من أبعد المقاطعات مئاتٌ من تلاميذ وتلميذات المدارس، بملابس تقليديةٍ تتألّف من أثوابٍ بيضاء، عبروا تباعاً في كنيسة سيكست وهم يحملون الشموع، في حين كان الأرغن يعزف لحن *Amazing Grace*. حتّى أداء القسم: «أُقسم على خدمة الثورة»، كان كلّ شيءٍ على أكمل وجه. بعد ذلك، ألقى رمزي خطاباً دفع الحضور إلى الذهول. فقد عرّف الثورة بوصفها قوّةً تقع فوق الأديان. البوذية والإسلام والبروتستنتية والكاثوليكية، وبالأخصّ الكاثوليكية البابوية والتابعة لروما. وقد أفرد لهذه الأخيرة فقرةً خاصّة، فكشف عن جرائمها التي تعود إلى حقبة العبودية وتدوم في الوقت الراهن عن طريق ميل مطارنتها الجنسي للأطفال. لم يستحسن الرئيس الخطاب، والأرجح أنّ تلك النقطة عيّنت تاريخ خصامهما. هل نسي رمزي أنّ بيغ بوس خرج من بين فخذي قدّيسةٍ يأمل في تكريسها؟

ثمّة حدثٌ لافت، هو أنّ قاسماً أمضى يوم الخامس والعشرين من كانون الأول في السجن. ففي يوم الميلاد ذاك، تلقّى كلّ سجينٍ شريحةً من «التوروكو»، وهي حلوى وطنيةٌ مصنوعةٌ من العسل البرّي والفاكهة

المجفّفة، ولا سيما التورو الذي يمنح الحلوى طعمها الحرّيف، وكتيّباً صغيراً بعنوان «لآلئ الحكمة»، يعدّد مآثر الرئيس الذي تتصدّر صورته الغلاف. حقّاً هو ليس دوريان غراي(*) كما أنّ قسمات وجهه لا تشي بجرائمه، وأثار ذلك دهشة قاسم ثانيةً.

كان قاسم على وشك النوم رعباً وحزناً عندما فُتح الباب الثقيل، في خضمّ قعقعة سلسلة المفاتيح. أليس الوقت مبكّراً على الحساء المكوّن من مزيجٍ بغيضٍ من الماء والشعيرية أو بقايا الخبز؟ سارع عبد القادر، الجائع على الدوام وصاحب الشهية القوية، جزِلاً. لم يكن الرجال الثلاثة الذين دخلوا يحملون القصعات. كانوا يرتدون ملابس الطاقم الطبي البيضاء وتلتفّ حول رقابهم سمّاعات، في حين تشير بطاقاتٌ على صدورهم إلى أسمائهم.

نبح واحدٌ منهم: «قاسم مايومبه! إلى المستوصف!».

تردّد قاسم، وهذا أمرٌ مفهوم، بسبب ارتيابه بهذه الأشداق الليلية، فنبح آخر: «انهض أيّها القذر!».

فقال عبد القادر وقد فوجئ بهذا الطلب المفاجئ: «لماذا تأخذونه إلى المستوصف؟ ما الذي يعاني منه؟ إنّه يشتكي من عينه منذ أيّامٍ وأنتم لا تأبهون!».

لم يكلّفوا أنفسهم عناء الردّ عليه. اضطرّ قاسم لأن يتبعهم. فجأةً، أصبح هذا السجن المألوف الذي سيستبدل به مجهولُ الموتَ عزيزاً عليه. هؤلاء الخونة الذين تحميهم القضبان، هذا الدهان المصفرّ المتقشّر في بعض الأماكن، هؤلاء الحرّاس الشرسون المزروعون بفواصل منتظمة وكلٌّ

(*) بطل رواية «صورة دوريان غراي» لأوسكار وايلد.

منهم يدُه على قبضة المسدّس. في رعبه، أصابه دوارٌ وكاد يقع. أمسك به ممرّضٌ وهو يهمس في أذنه: «كن شجاعاً! الأمر على وشك الانتهاء».

وهذا بالتحديد ما كان يعذّبه. لم تكن لديه أيّ رغبة في الانتهاء. الحياة ليست عذبة، لكنّنا جميعاً نتمسّك بها.

كان المستوصف حجرةً غير نظيفة، تفوح فيها رائحة المطهّرات والكلوروفورم. كان بانتظارهم رجلٌ رابع، هيئته أشدّ إثارةً للقلق. أمر الرجل وهو يشير إلى مقعدٍ تغطّيه ملاءةٌ قذرة: «اضطجع هنا!».

بعد أن تمدّد قاسم، همس في أذنه، مسلّحاً بمحقنة: «دعنا نتصرّف! سوف نجعلك تنام».

ارتعب قاسم ورأى أجله يحين. هل سيعطونه الحقنة المميتة من دون تأخير؟ لم يكن بعدُ مستعداً لذلك، بافتراض أنّ المرء يكون في وقتٍ ما مستعدّاً للّحظة الأخيرة! تخبّط محاولاً التملّص، في حين سيطرت عليه أربعة أزواجٍ من الأيدي.

.14

ملأ عينيه بوجه رمزي، متسائلاً ما إن كان حقيقياً. كثيراً جداً ما حلم به في الأسابيع المنصرمة. ليلةً بعد ليلة. بل أحياناً في عزّ النهار. كانت هذه الصورة تتراكب مع قباحة الزنزانة، مع قسمات عبد القادر الفظّة وهو يبكي على غراميّاته المتداعية. ألم يكن ذلك حلماً إضافياً؟

كان ممدّداً على فراشٍ فاجأته طراوته، تحت غطاءٍ دافئ. وحوله، رأى وجوه الممرّضين وقد تبدّلت، بعد أن كانت قبل قليل مُهدِّدة، فباتت مبتسمةً وخانعة.

قال لهم رمزي: «تهانينا يا سادتي، هذا عمل جميل! لقد استحققتم بالفعل ما وعدتكم به. قابِلوا سكرتيرتي! لست بحاجةٍ إلى أن أكرّر ما قلته لكم: لا ينبسنّ أحدكم بكلمة!».

هزَّ الرجال الأربعة برؤوسهم موافقين وانسحبوا. بدا رمزي، بمعطفه البنّي، كممثّلٍ لا يزال مبتدئاً في دوره، لكنّه مصمّمٌ على التقدّم والإقناع.

قال وهو يغطّي قاسماً بقبلاته: «كم شوّهوك!».

يا لعذوبة هاتين الشفتين المستعادتين!

ذاب قاسم سعادةً على الرغم من آلامه المتعدّدة. جذب رمزي إليه

عربةً للضمادات ببراعةٍ طبّيّة تماماً، وشرح قائلاً: «عندما كنتُ طبيباً مقيماً في ليدز، كان مرضاي يجدون لمساتي لطيفةً لدرجة أنّهم أطلقوا عليّ لقب: *The Dove* – الحمامة».

متسلّحاً بملاقطه وبالشاش والقطن، أخذ يعالج جروح قاسم الذي كاد يصيح ألماً، على الرغم من تلك الكلمات المُطمئِنة. فاحت في الغرفة رائحةٌ رهيبة، رائحة قيح ولحمٍ ميّت، في حين أخذ قاسم يقول متلعثماً: «ظننتُ أنّني لن أراك أبداً!».

فصاح رمزي من دون أن يتوقّف عن العمل، وقد قطّب جبينه: «أيُعقل أنّك شككتَ بي؟!».

وبما أنّ صمت قاسم كان معادلاً لاعتراف، فقد شرح: هو الذي رتّب ذلك الهروب المدوّي من معسكر بوينافيستا، أحد أكثر السجون منعةً في العالم. وفي هذه الساعة، لا تتكلّم وسائل الإعلام كلّها إلّا عن ذلك الهروب. الشركاء هم الممرّضون الحقيقيون المجازون العاملون في السجن. لقد قدّم لهم مبالغ لم يستطيعوا مقاومتها. كم احتاج من مهارة!

لم يكن أحدٌ ليجهل أنّ قاسماً كان لوقتٍ ما مساعده في «التزيينات». وقد أعادت مذكّرةٌ مغفلة التوقيع إلى ذهن بيغ بوس تلك الحقيقة. ولهذا السبب، شدّد هذا الأخير المراقبة، وهو المرتاب أصلاً.

استأنف رمزي: «عينك اليمنى تقلقني كثيراً. انفجر الوريد المركزي وثمة ورمٌ دمويٌّ خلف كرة العين. أرغب في أن يفحصك مختصّ. المشكلة هي أنّك لا تستطيع الخروج من هنا. سأذهب لإحضار الدكتور لايتي، أفضل طبيب عيونٍ في البلد. لن ينقصك شيءٌ أثناء غيابي، فقد أعطيتُ أوامر بهذا الصدد».

قفز على قدميه بخفّته وأناقته المعهودتين.

تمتم قاسم وهو يمسك بكمّه: «سامحني!».

أجاب رمزي مبتسماً وهو يسدّ أذنَيْ قاسم مثلما يسدّ المرء أذنيْ جرو: «ما الذي تريدني أن أسامحك عليه؟! لقد اتّخذتك أخاً صغيراً لي، بمحاسنك ومساوئك. بجميل أفعالك وقبيحها. أنا لا أحاكمك. أنا أحبّك».

حلّق قاسم سعادةً. لكنّه قرّر الاعتراف: «لقد كذبت عليك حين زعمتُ أنّني أخوك في الدين. كان ينبغي ألّا يخفي أيٌّ منّا شيئاً عن الآخر».

فانفجر الآخر ضاحكاً، ثمّ قال بتسامح: «لم تخدعني يوماً بهذه النقطة. لم تكن تعرف أيّ صلاة. في البداية، كنت ببساطةٍ عاجزاً عن ترديد "الشهادة". ثمّ لم يكن شكلك شكل مسلم».

هل للمسلم شكلٌ خاص؟ معلومة جديدة!

سأل قاسم: «لماذا لم تقل لي شيئاً قَطّ؟».

فأجاب رمزي برصانة: «إذا كذب رجل، فلأنّ لديه أسباباً وجيهةً لحماية نفسه من الحقيقة. من المناسب إذاً احترام كذبته».

يا لها من فلسفةٍ ممتازة! يا ليت لو يتبنّاها أناسٌ كثيرون!

.15

شرح رمزي: «إليك الخطة. غداً عند الفجر، ستبحر سفينة توركواز إلى مرسيليا. دفعتُ ثمناً باهظاً للحصول على قمرةٍ لشخصين. وبثمنٍ باهظٍ مضاعف، زوّدني موظّفٌ في سفارة فرنسا بوثيقة سفر. فور أن يهبط الليل، سوف نستغلّ العتمة ونصعد على متن السفينة».

قال قاسم باستغراب: «ستغادر البلد أنت أيضاً؟ تنفي نفسك معي؟».

داعب رمزي وجنته بلطفٍ وقال: «لا تقلق. لقد مللتُ أصلاً هذه الحياة في قفصٍ ذهبي. لم أُخلق لأكون وصيفاً. كنت أختنق. شعرتُ بحاجةٍ إلى السفر. ثمّ هل كنت تتخيّل أنّني سأتركك تمضي بمفردك، في حين أنّك عاجزٌ عن تدبير أمورك؟».

لم تجلب هذه الاندفاعة ظلّ ابتسامةٍ إلى شفتي قاسم. فقد كان مكتئباً وسيطر عليه هوسٌ وحيد. أعور. سيكون أعور. أصدر الدكتور لايتي رأيه القاطع. وحدها زراعة عينٍ إسعافيةٌ قادرةٌ على إنقاذه. وإن لم يحدث ذلك، فإنّ الورم الدموي سينتشر في جوف العين ويؤدّي إلى العمى.

كيف يعيش المرء بعينٍ واحدة؟ هذا يعني أنّ نصف الشمس ينطفئ،

نصف الأزهار يذبل، نصف الحياة يختفي! شعر بالرعب، إذ هذا هو عقابه على الجرائم التي ارتكبها تجاه حفصة، وكذلك تجاه إيبوني ستار. ألم يودِ بهما إلى الموت، حتى لو لم يتقصّد ذلك؟ هذا ليس عذراً. وها هي ذي يد القادر تنقضّ عليه.

في هذه الأثناء، كان رمزي يعبث بالأوراق ويقارن بينها. بالنسبة إليه، هو الذي لم يذهب يوماً إلى فرنسا، كانت فكرة هذه الرحلة ساحرة. صورٌ سهلة، باليةٌ في كثيرٍ من الأحيان، أخذت تصعد إلى شفتيه: الشانزيليزيه، أجمل جادّةٍ في العالم، برج إيفيل، أشبه بامرأةٍ مضاءة، وتحت جسر ميرابو ينساب نهر السين، كاتدرائية نوتردام مع أشباح إسمرالدا وكازيمودو(*)، وسوق الهال، جوف باريس... لم ينفع تكرار قاسم أنّ فرنسا هي أيضاً التعصّب والضواحي الملتهبة، إذ لم يصدّق رمزي كلمةً واحدة.

اضطرّا لمغادرة ملاذهما الأوّل بسرعة، إذ أُخطر رمزي بأنّ الحرس الرئاسي يستعدّ للهجوم. والمفاجأة هي أنّ هذا الحرس يبحث عن رمزيٍ أكثر ممّا يبحث عن قاسم. فقد أكّد هرب قاسم شكوك بيغ بوس، وتيقّن من أنّ «مرشد ثورته» خائن. ربّما تواطأ مع الياسين على قتله في جناح إيزابيل سيلينا.

الآن، يقيم رمزي وقاسم في مسكنٍ حقيرٍ في إحدى الضواحي، تحيط به أشجارٌ حنَتها الرياح، ويفصله جدارٌ من الطوب عن البحر المنتن والملوّث الذي يُسمع وهو يتخبّط على الحصى. خمس مرّاتٍ في النهار القاسي، يدوّي صوت الأذان الخالي من الفرح. وكثيراً ما يُسمع صوت بكاء الأطفال وأصوات أمّهاتهم وهنّ يؤنّبونهم.

(*) هما الشخصيتان الرئيسيتان في رواية «أحدب نوتردام» لفيكتور هوغو.

طُرق الباب. ظهر شابٌّ أشقر نحيل، مزيّنٌ بالهيئة التي تميّز من ترقّى مؤخّراً إلى موقعٍ مهمّ. تولّى رمزي مهمّة التقديم: «بيير جيل يعمل في سفارة فرنسا».

مدَّ بيير جيل يده بمغلّفٍ فتحه رمزي بلهفة. أخرج منه جواز سفرٍ أوروبياً.

قرأ بسعادة: «دومينيك تيسّو دي سافيدرا. وُلد في أميلي ليبان بتاريخ 6 حزيران 1972. هذا أنا إذاً، بنسخةٍ جديدة. تعجبني. اسمٌ طويل. لكن لماذا أميلي ليبان؟ أين تقع؟».

شرح بيير جيل قائلاً: «إنّها منتجعٌ صغيرٌ في جبال البيرينيه الشرقية. هاجر إليها أبواك من إشبيلية، وبما أنّهما إسبانيان صالحان، قارئان لسيرفانتس، فقد فتحا فيها نُزلاً أطلقا عليه اسم لاميراغواردا. هذا لتفسير لونك الأسمر».

– هذا صحيح: العرب والأفارقة والأنتيليون والإسبان، نحن جميعاً خلاسيون. يبدو أنّني صحافي؟

وضّح بيير جيل: «صحافيٌّ مستقلّ!».

واستدار نحو قاسم في حين كان رمزي يمحّص وثيقته برضا، ثمّ قال: «لاحظتُ أنّ اسمك الثاني هو كريزوستوم. إنّه ثقيلٌ قليلاً في لفظه. لكنّ جان كريزوستوم أبٌ من الكنيسة اليونانية، مطران القسطنطينية. لماذا لا تتبنّاه؟ سيجنّبك ذلك متاعب كثيرة».

هزَّ قاسم رأسه نافياً. لن يتخلّى عن اسمه. ليس لأنّ والده هو الذي منحه إيّاه ولأنّه يشكّل ميراثه الوحيد، إذ لم يرث لا منزلاً ولا حساباً في المصرف ولا ذكريات طفولةٍ سعيدة. بل لأنّه بهذا المسمّى تشكّل وعانى،

وفي نهاية المطاف كاد يموت. سيكون ذلك أشبه بإنكار ما مرَّ به، وكثيراً ما كان مؤلماً، وجعل منه ما هو عليه. كان قاسماً وسيبقى قاسماً. في السرّاء والضرّاء. حتّى يفصل بينهما الموت. *Until death do us part*.

قال بيير جيل: «كما تشاء!».

لطالما كان رمزي محاطاً بعاملين رفيعي المستوى حيثما أقام، في سامسارا وكذلك في «بيت الأرواح» وفي القصر الرئاسي. نصب ثلاثة خدم مائدةً مهيبة، تتناقض تناقضاً كاملاً مع بشاعة المكان. جدرانٌ مبقّعة. أثاثٌ بالٍ، وتحوّم على هذا كلّه رائحة المدّ اللاذعة والمثيرة للغثيان.

لم ينتظر بيير جيل، بل ملأ كأسه بالنبيذ الأبيض المعتّق المتميّز بطعمه اللذيذ على الرغم من أنّه ليس من الأنواع التي يتباهى بها أصحابها.

ثمّ قال: «هل تتذكّر المأساة التي لم تتوضّح أبعادها، وأعني موت سكرتيرتك؟».

ارتعش قاسم: حفصة. هل ستخرج الهياكل العظمية من مخبئها؟

– لقد كشفت الرئاسة في بيانٍ أنّها اغتُصبت وقُتلت. والأسوأ هو عدم معرفة ترتيب الفعلين.

أشعل رمزي سيجاراً من نوع هافانا وقال: «هل ثمّة شكوك؟ مشتبهٌ به؟».

ابتسم بيير جيل وأجاب: «نعم، أنت، بالطبع! كما أنّك متّهمٌ أيضاً بالمسؤوليّة عن الوباء».

سارع رمزي للردّ: «هذا سخف!».

تابع بيير جيل من دون أن يفقد رباطة جأشه: «ثمة جائزةٌ لمن يسلّمك. ثلاثة ملايين من الدولارات».

انفجر الآخر ضاحكاً: «إنّهم يقدّمون لي شرفاً كبيراً. القضية محبوكةٌ بفظاظةٍ مفضوحة. من يريد إغراق كلبه يتّهمه بالكَلَب. وهذا الأمر هو على كلّ حالٍ تخصّص بيغ بوس. فالشماليّون مناهضون للقضية القومية والجنوبيّون خونةٌ ومسمّمون. لكنّني متأكّد من أنّه سيوجد من يصدّق هذه الافتراءات. في بلداننا، الخيال هو الذي يثير الفوضى. لا شيء أضخم ممّا ينبغي. بل على العكس، فكلّما ازداد ضخامةً، صدّقه الناس أكثر. لديّ نظريّة. بالنسبة إليّ، هذا ما يميّز البلدان التي يحكمها دكتاتور. فالفرد المحروم من حرّياته كافّةً ينتقم في رأسه ويلفّق. حرّية الاختلاق».

احتجّ بيير جيل: «الناس يلفّقون أيضاً في البلدان الديمقراطية. هل تريد أمثلة؟ لقد أقسمت إنكلترا على أنّ الليدي ديانا اغتيلت على يد العائلة الملكية. ناهيك بأميركا التي لا تزال تبحث عن قاتل جون كنيدي الحقيقي...».

ترك قاسم الرجلين يتبارزان في الذكاء وأنهك نفسه في الصلاة، وهو أمرٌ كان يزداد تواتراً لديه. في الواقع، اكتشف أنّ أوقات الصلاة وحدها تعينه على احتمال الحياة. ليس في الدين سوى صعوبةٍ واحدة: تشدّده تجاه الجنس. لا يهمّ! فهو يطلب من الله إذاً كلّ يومٍ القوّة للتحكّم بحواسّه. لا! لن يقرب النساء بما أنّه بات واضحاً أنّه شؤمٌ عليهنّ.

لكنّه في سريرته كان يخشى ألّا يكون ذلك أكثر من وعدٍ كاذب.

.16

انطلقت سفينة «إس. إس. توركواز» قبل شروق الشمس.

كان المركب سيّئاً، سبق إصلاحه وشديد البطء، يحمل فواكه استوائيةً وحمضياتٍ باتّجاه جنوا ثمّ مرسيليا، ومنه كان منظر الساحل، المنخفض والضبابي، قليل الجاذبية حقاً. على الماء تنزلق قوارب الصيّادين الذين يلفّون أنفسهم بثيابهم الرثّة، لأنّ الطقس بارد. وكما هي العادة في هذا الفصل، يتساءل المرء ما إن كانت الشمس سوف تتنازل فتفتح عينيها، لشدّة رماديّة الهواء وانسداد الأفق. لا تحمل سفينة «إس. إس. توركواز» ركّاباً كثراً، لأنّها لا تحتوي سوى نصف دزّينةٍ من القمرات. وهذه القمرات يحتلّها زوجان فرنسيان متقاعدان، ورجل دينٍ إيطاليٌّ مصابٌ بانتفاخٍ رئويٍّ ولا يستطيع لهذا السبب ركوب الطائرة، ومصوّرٌ سويدي يسلّط كاميرته على كلّ شيء، وموسيقيّان إنكليزيان وزوجتاهما، أمضوا أشهراً في تسجيل ألحان الشعوب الأصلية في الغابون، وشيخٌ نيجيريٌّ بقيت زوجاته الثلاث في القمرة بسبب دوار البحر. في المقابل، كان أبناؤه وبناته الثمانية يشعرون بالضيق في مقصورتهم فيهرعون إلى الخارج منذ الصباح الباكر، فيدمّرون كلّ شيءٍ يمرّ بهم، كالجراد حين ينقضّ على حقل.

بطبيعة الحال، لم يكن ثمّة أمورٌ مشوّقةٌ يمكن أن تتبادلها تشكيلةٌ من المسافرين بهذا التباين. والحال أنّه باستثناء طاولة بلياردو ذات أرضيّةٍ خضراء ملطّخة، لم تكن غرفة التدخين تحتوي سوى بضع رزمٍ من أوراق اللعب القديمة ولعبة مونوبولي ولعبة تريفيال برسويت، وكلتاهما في حالةٍ بالغة السوء. لم تشهد السفينة أيّ حفلٍ، أيّ حفل شايٍ راقص، أيّ حفلٍ موسيقيٍّ حيث تعرض النساء الموسرات البيضاوات في الرحلات البحرية السياحية الفاخرة أجمل أثوابهنّ. فضلاً عن ذلك، لم يكن الطقس جيّداً. مطرٌ فوقه مطر. لذلك، ما إن انتهت تدريبات الإنقاذ غير المفيدة ووصلت السفينة إلى عرض البحر حتّى حلَّ جوٌّ مملٌّ ثقيل. وحدها ذرّية الشيخ اكتشفت مكاناً لارتجال الأغاني وانساقت إليه. في أيامنا هذه، لم يعد الصغار يغنّون أغاني قديمة من قبيل «سافيه فو بلانتيه دي شو؟» أو «فرير جاك» أو «با با بلاك شيب». انتهى هذا كلّه! فعندما لا يتبادل أبناء الشيخ لساعاتٍ كاملة الأحاديث على حواسيب أو يرسلون رسائل قصيرة عبر الهواتف المحمولة، فهم يدندنون أغاني مغنّي الراب الأميركيين التي يحفظونها عن ظهر قلب. أمّا الراشدون، فاستبدّ بهم الملل. لذا أخذوا يجرجرون كراسي للتمدّد على سطح السفينة. بعضهم يتظاهر بالقراءة، إلى أن يقع الكتاب من أيديهم ويبدؤون في الشخير. وآخرون ينظرون إلى البحر. المصوّر السويدي يزعج الناس وهو يلتقط صورةً بعد صورة. ما الذي تراه عيناه ولا يراه الآخرون؟

رتيبٌ هذا الموج الذي يعلوه الزبد على مدّ النظر.

رتيبةٌ هذه السماء التي تعلوه، رمادية ومنخفضة.

رتيبةٌ هذه الباقات من الطيور المتنزّهة في الهواء.

بعد ثلاثة أيّام، وبعد أن ملَّ المصوّر على الأرجح هو أيضاً من هذا المشهد، بدأ يصوّر بنات الشيخ المحبّبات. آنذاك، بدأ بقية الركّاب يرمقونه بنظرات الشكّ الموجّه عادةً إلى المولعين جنسياً بالأطفال، وسرعان ما عاد إلى مشاهده البحرية.

تجنّب الركّاب رمزي، على الرغم من أنّه أسرَّ لأليكسي، قائد السفينة، بسلالته المختلقة كي يُبلغها للآخرين. فعائلته، وهي عائلةٌ تعود أصولها إلى المقاطعة التي ينتمي إليها سيرفانتس، ما يفسّر التشابه في الأسماء، هي أيضاً من أقارب جوان دي سافيدرا، مؤسّس مدينة فالبارايسو في تشيلي. لكنّ ذلك لم يمنع الناس من تجنّبه. هل هذا المشعوذ طبيب؟ ما الذي يفعله حقاً؟ لا بدّ من الحسم. أبيض يتمتّع بسمرةٍ أشدّ من أن يكون أبيض؟ أسود له بشرةٌ أكثر بياضاً من أن يكون أسود؟ لماذا يجيد الإنكليزية بقدر ما يجيد الفرنسية؟ أمّه باكستانية؟ غريب! تهامس الناس أنّه بعد أن كان وليفاً للرئيس، هرب للإفلات من معسكر الاعتقال. كلاهما ارتكبا معاً أسوأ الفظائع. وكانوا ينظرون إلى قاسم بإشفاقٍ ويتأسّفون على ربط شبابه بمثل هذا الشخص.

لم يتمكّن رمزي من التواصل إلّا مع الشيخ النيجيري. إذ يضع إلى جانبه نسخته من قصّة «الشيخ عمر»، وهو عملٌ للمرحوم الحاج السير أبو بكر تفاوى با عليوه، يقرؤه للمرّة المئة بالمتعة عينها ليحكي حكايته الحزينة. احتلّ مناصب رفيعة في مسقط رأسه في الشمال. وذات صباح، رُمي في السجن من دون أيّ تفسير. بعد سبعة أعوامٍ في السجن، أُطلق سراحه، وكذلك من دون أيّ تفسير. وهذا هو السبب في انتهاجه طريق المنفى. كان الرجلان يهزّان رأسيهما:

- أجل! انطلاقة إفريقيا السوداء سيئة.

فيسأل الشيخ: «هل مات رونيه دومون(*)؟».

يؤكّد رمزي: «منذ وقتٍ طويل، ولا تزال إفريقيا السوداء منطلقةً بالسوء عينه».

فيستشهد الشيخ بجملٍ من كوامي نكروما(**)، مثَله الأعلى الذي يعدُّه شهيداً على الرغم من موته في سريره في غينيا.

«Imperialism, last stage of colonialism». «Power corrupts. Absolute power corrupts absolutely».

ثمّ يتطرّق الرجلان إلى موضوعٍ حتميٍّ هو موضوع الدين، وهو لا يزال يغذّي اليوم النقاشات كلّها، ولا يمكن تجنّبه بقدرِ ما لا يمكن تجنّب حساء جراد البحر في قائمة طعامٍ محترمة. فيعرض رمزي تلك النظرية التي لم ينجح في طرحها في «بورتو فيراي» والتي تنصّ على أنّ الأديان تمثّل بلاء العالم.

- كلّها، من دون استثناء.

لكنّ الشيخ الذي لا يوافق على هذا الرأي يأخذ بالتغنّي بأنوار الإسلام. حلمه هو قارّةٌ مكوّنةٌ من مجموعةٍ من الدول التيوقراطية.

لم يكن قاسم يتحمّل هذه المناقشات التي لا تفضي إلى شيء، فيبقى صامتاً. على كلّ حال، كان يمضي معظم وقته على السطح C حيث يغيّر له

(*) René Dumont (1904-2001): مهندسٌ زراعيٌّ فرنسي، مؤلّف كتاب «إفريقيا السوداء، انطلاقةٌ سيئة».

(**) Kwame Nkrumah (1909-1972): أول رئيسٍ لغانا، ومن أوائل المناضلين الأفارقة ضد الاستعمار.

ديمتريوس، الممرّض اليوناني الذي يشبه عبد القادر، ضماداته وهو يكرّر باستمتاعٍ كئيب: «تالفة! عينك تالفة».

أعور! كيف يعيش الإنسان بعينٍ واحدة؟

إذا كان الوجود مصارعة ثيران، فالثور الأعور محكومٌ حكماً مضاعفاً وليست لديه فرصةٌ للدفاع عن نفسه.

وبما أنّ جوف عينه كان يغوص وأنّ كرة العين أخذت تتحوّل إلى اللون الحليبي، فقد وضع له ديمتريوس قوقعةً سوداء لا تناسب وجهه ذا المظهر الطفولي. انفجر أطفال الشيخ ضاحكين وداروا حوله وهم ينشدون:

- «*Pirate! Pirate of the Caribbean!*».

أمّا عندما لا يكون قاسم في المستوصف، فهو ينزل إلى السطح F، إلى المطابخ، لاستعادة العطور التي تسحره. رئيس الطهاة يُدعى فالدوميرو دي ديوس سوزا، وهو رسّامٌ برتغالي تعب من العمل الشاقّ، فأحلّ ألوان البهارات محلّ ألوان لوح المزج الخاصّ بالرسّامين. وأثناء تتبيل قريدسٍ ضخمٍ من إفريقيا الجنوبية أو أثناء مراقبة نضج ديكٍ بالطرخون، لأنّ مائدة السفينة كانت ممتازةً ومثار فخر أليكسي، يسرد ذكرياته: «في أبعد ذكرياتي، لطالما أردتُ أن أكون رسّاماً. كان أحد أعمامي، وهو لاعب كرة قدمٍ شهيرٌ، أخذ يبدّد الثروة التي نالها بفضل انتصاراته، قد تلقّى من امرأةٍ تحبّه حبّاً جنونياً لوحةً إيروتيكيةً من أعمال ماتّا، روبيرتو ماتّا(*)، وهو رسّامٌ كنت معجباً به من دون أن أفهمه. كما كان في مكتبته كتابٌ مصوّرٌ بعنوان: *Masaje erótico chino*. لكنّني أرى من هيئتك أنّك لم تسمع

(*) Roberto Matta (1911–2002): رسّامٌ تشيلي من أتباع المدرسة السوريالية.

سابقاً لا بالرسّام ولا بالكتاب. الأوّل هو أعظم رسّامٍ تشيلي. والثاني كتبه شخصٌ يدعى وانغ بو واي(*). وقد جعله اليابانيون، وهم العارفون في هذا المجال، كتاباً كلاسيكياً في حين أنّه كان يُتناقل سرّاً في بلده الأصلي. لا تسألني كيف جمعتُ بين اللوحة والكتاب. ففي عينَيْ الطفل الذي كنتُه آنذاك، كانت الحسّية الحارّة عينها تصدر عنهما. كنت أستمني مثلما كان ميشيما(**) يفعل، كما علمتُ لاحقاً، أمام لوحة القدّيس سيباستيان. والغريب أنّ الطبخ هو بديلٌ اضطراري يواسيني عمّا أردتُ أن أكونه دونما نجاح».

أخذ قاسم يعذّب نفسه وهو ينظر إليه: ما الذي يتمتّع به وأفتقر إليه أنا؟ هو أيضاً ليس ملك جمال. غير أنّ النساء أحببنه ورغبن فيه. منحنه المتعة.

في اليوم السادس، وبالتصميم الذي برهن عليه الإنكليز في ظروفٍ أكثر نبلاً - كما حدث أثناء انهمار القنابل النازية على لندن على سبيل المثال، قرّروا ضعضعة عطالة رفاق سفرهم وتخفيف ملل العبور. حفلٌ تنكّريّ، هذا ما يجب فعله، ويليه عرضٌ للهواة. *Passengers' talent show*. تباينت ردود الأفعال على الاقتراح. ففي حين اكتفى قاسم، مستلهماً سخريات أبناء الشيخ، بتزيين ملابسه ببضع جماجم وعظامٍ قُطعت من دون إتقان، وارتدى رمزي دونما حماسة سترته ذات الذيل الخاصة بـ«مرشد الثورة» والتي لم يلبسها إلّا وقتاً أقصر ممّا ينبغي، ارتدى الشيخ النيجيري جلابيّته المعتادة، رافضاً رفضاً قاطعاً الانخراط في مثل

(*) Wang-Puh Wei: صينيٌّ متخصّصٌ في الفلسفة الشرقية، عمِل مع كريس إيفانز Chris Evans.

(**) Yukio Mishima (1925-1970): روائيٌّ يابانيٌّ شهير.

تلك الألعاب المصمّمة من أجل «الغربيين الذين ليس لديهم ما يشغلهم». أمّا الركّاب الآخرون، فقد تنافسوا في الابتكار.

بعد هذه التسلية، كانوا متجمّعين على سطح السفينة لتهنئة بعضهم بعضاً عندما مرّت سفينة، خرجت من العتمة، قريبةً من «إس. إس. توركواز» إلى درجة أنّه أمكن تمييز أشباح أشخاصٍ يضعون قبّعاتٍ واقيةً على رؤوسهم، متجمّعين في المقدّمة والمؤخّرة. تزعزعت مياه البحر وانكفأت وهي تزبد. ليكاد المرء يظنّ أنّها سفينة «الهولندي الطائر»(*) وهي تنقل حمولتها من الأموات الأحياء.

أو كأنّها مركبٌ يحمل العبيد، بُعث وقاعه ممتلئٌ بـ«المعذّبين في الأرض»(**) وهو في طريقه إلى الجحيم.

حكى أليكسي إنّه مع الاقتراب من سواحل أوروبا، تزداد وتيرة مثل هذه اللقاءات. فهذه المراكب ممتلئةٌ بالمساكين الفقراء الذين دفعوا ثمناً باهظاً مقابل رحلتهم، ويأملون بالوصول إلى أرض الثراء السريع في أوروبا. ثمّ يذهبون إلى إنكلترا، بلد أحلامهم، في شاحنات، مختبئين في حاوياتٍ محكمة الإغلاق. ولم يكن نادراً أن يموتوا أثناء هذه الرحلة، فتصبح تلك الحاويات نعوشهم. فجأةً، أخذت تظهر ثانيةً مآسي عالمٍ غاب طيّ النسيان.

إنكلترا فردوس المنفى المقدّس! فوجئ قاسم. فقد تذكّر تلك المرّات التي ذهب فيها إليها في يفاعته لتعلّم اللغة: الغرف الشديدة البرودة، التقتير

(*) هي سفينة أشباح أسطورية لا يمكنها أبداً أن ترسو في ميناء، ومحكوم عليها الإبحار في المحيطات إلى الأبد.

(**) عنوان كتاب فرانز فانون Frantz Fanon (1925–1961).

في الغذاء، ملل أيّام الأحد، العنصرية، المرّات التي ذهب فيها إلى لندن، الرعب الذي يبثّه حليقو الرؤوس، سادة قطار الأنفاق. لكنّه كعادته صمت ولم يعبّر عن دهشته.

ثمة فكرةٌ أرّقته: بعد الاعتداء في «دريم لاند»، ولولا أنّه التقى رمزي، ربّما كان اليوم ضمن هذه العصبة من البؤساء المبحرين نحو الموت.

بعد يومين، دخلت سفينة «إس. إس. توركواز» ميناء مرسيليا. ودّعا الشيخ النيجيري الصاعد إلى باريس مع أسرته.

قال لرمزي: «لم تعد المدينة كما كانت. لكن يجب أن يكون المرء هناك».

أتى لاستقبالهما أحد أقارب رمزي، وهو تاجرٌ يعمل في تجارة المصنوعات الجلدية والأخفاف والوسادات الكبيرة وحقائب المستندات، وأخذهما إلى بيته حيث استضافهما بضعة أيّام.

الرماديّ

.1

المدن كالبشر، كما نعلم. لكلٍّ منها شخصيّتها، سحرها الذي يتباين في مسّه القلوب. مدينة ليل، الباردة والمتجهّمة، لم تكن تبتسم البتّة. و«بورتو فيراي»، المولودة من تجارة العبيد والمقايضة والريع، تكشف بعشوائيةٍ جمالاً غير متوقّع، يهزّ الفؤاد. أمّا مرسيليا التي كان اسمها في الماضي ماساليا، والتي كثيراً ما ينسى الناس أنّها منحت فرنسا نشيدها الوطني، فهي في الوقت عينه ملحميةٌ وررومنطيقيةٌ وأكاديميةٌ ومنفتحةٌ على العالم.

سُحر قاسم بها. كان الفصل شتاءً، وتغطّي حقولٌ من الثلج أجزاء أخرى من العالم. أمّا مرسيليا، فجوّها لطيف، وهي ودّيةٌ، وكأنّها متاحةٌ لسعادة النهار. السماء فيها فاتحة الزرقة فوق عين البحر المفتوحة عن آخرها، الزرقاء هي الأخرى. التذكير الوحيد بالشتاء هو هبوب ريح الشمال التي تجعل الشفاه تتشقّق. كان قاسم يذرع الشوارع الصاخبة ليلاً نهاراً، مفكّراً في أنّه لو نما في هذه التربة السخيّة، لكان رجلاً آخر. لكان أقلّ انزواءً. أقلّ خوفاً. أقلّ انطوائيةً. لماذا عُيّن كيليرمان في مكتب البريد ذاك، الكئيب والرتيب؟ وليواسي نفسه، قال قاسم في نفسه إنّه لم يخسر كلّ شيء، إنّه ربّما سيولد من جديد، هذه المرّة من دون أبٍ ومن دون أمّ،

بإرادته الخاصّة. شعر بأنّ هذه المدينة التي بنيت بمقاييس تناسب الإنسان تمتلك وعداً مخبّأً بالسعادة. لم ينظر إلى واجهات الأبنية الجليلة، كما لم يهتمّ بماضي هذه المدينة القديمة التي تمثّل بمفردها كتاباً في التاريخ. إذ تحمله ضحكة الشمس وهي تغمر أطراف السماء، كما يحمله البحر، وخفّة الهواء، والعطور، آه! العطور المنبعثة من مجمر الطيب الهائل الحجم هذا! معظم الوجوه، تركية وعربية وأفغانية، سمراء بقدر وجهه. لا يتشابه لباسان ولا تسريحتان. وفي الأفواه، تتكلّم بابل سعيدة.

فور وصول رمزي، استكشف المدينة هو أيضاً. الجالية المسلمة فيها كبيرة. بعضهم لديه مسكنٌ خاصٌّ في حيٍّ قديمٍ شوارعه ضيّقة كشوارع قصبة. بين ليلةٍ وضحاها، تخلّص من اسمه المستعار، دومينيك تيسو دي سافيدرا، على الرغم من أنّه سحره حقاً، وعاد ليكون رمزي النووي، من أقارب النبيّ، سليل متعلّمين. أخفى صوت عباراته المناهضة للدين واستعاد نسخة القرآن الخاصّة به وعاد لارتياد المسجد. انفجر ضاحكاً أمام دهشة قاسم الذي لم يفهم شيئاً من تلك التحوّلات: «أنا مثل الخفّاش. أحياناً أكون طائراً! انظروا إلى جناحيّ. وأحياناً أكون من القوارض. انظروا إلى وبري وأسناني. يتميّز الإنسان الذكيّ بأنّه أشبه بدرّاجةٍ جبلية».

تعلّقت حياته بدوّامة. هو دائماً في الخارج، بماذا يملأ وقته؟ بالتقاء الأشخاص المؤثّرين، بطبيعة الحال. طبع مئات بطاقات الزيارة ووضعها في مساكن الوجهاء. لذا، كانوا مضطرّين لتلقّيها. كان قاسم مقتنعاً بعدم وجود مشتركاتٍ بينهما وبضرورة أن يبحث عن عملٍ ومسكن، أي أن يستقلّ أخيراً. لكنّ الخشية من أن ينساق لنفسه منعته. وفي عزلته، ارتبط بأوّل شخصٍ باسمِ التقاه. تعرّف بعثمان بسبب سجوده إلى جانبه في

المسجد. إذ إنّ قاسماً بات يذهب إلى المسجد كلّ يوم جمعة. وهناك، علاوةً على المغاربيين أو الأفارقة من جنوبي الصحراء الكبرى، يلتقي بعددٍ من المؤمنين من ذوي الوجوه الشاحبة، القادمين من أوروبا الوسطى ومن الاتّحاد السوفييتي السابق. أحبّ هذا التباين في الأصول والتواضع الذي تقدّمه الصلاة المشتركة، والجبين ملتصقٌ بالأرض. وكان يكرّر بنوعٍ من النشوة الكلمات التي تعبّر عن تواضعه أمام الخالق: ﴿وما تسقط من ورقةٍ إلّا يعلمها ولا حبّةٍ في ظُلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتابٍ مُبين﴾.

أصل عثمان من كاولاك في السنغال. كان يبيع في شارع كانوبيير ساعات يدٍ وحقائب مزيّفة من نوع كارتييه أحياناً، وفي أحيانٍ أخرى أدواتٍ برونزيةً مزيّفة على أنّها من بينين، وأقنعةً مزيفة على أنّها تعود لأقوام الفانغ(*). لم يكن قاسم وعثمان يتزاوران مطلقاً. كان قاسم يخشى من سخرية رمزي. من أين أتى هذا الزنجي السيّئ الهندام الذي يرتكب جرماً بحقّ اللغة الفرنسية؟ أمّا عثمان، فلم يكن لديه مسكن، بل ينام على فراشٍ من القشّ في بيت قريب ابن أخ عمٍّ لأبيه يسكن شقّةً بغرفتين ليس فيها كهرباء أو تدفئة ضمن مبنى يُفترض أن يُهدم. للحصول على الماء، كان يجب الذهاب لنتحه من بئرٍ في الباحة. لكنّ ذلك لم يمنع عثمان من أن يكون مثل أديمار، صاحباً مرحاً يعرف هو أيضاً كلّ البارات وصالات الرقص في هذه المدينة الساحلية الغنيّة بأماكن المتعة. عندما رأى قاسم كيف يتجوّل عثمان في الشوارع والجادّات، فهِم أنّه يتمتّع بما نقصه هو على الدوام: الثقة بالنفس. من أين تأتيه؟ لم يكن أكثر وسامةً من غيره،

(*) Fang: مجموعة عرقية من إفريقيا الوسطى تنتمي إلى البانتو.

ولا أجمل قواماً، وجيوبه خاويةٌ تماماً، ويُنادى في كلّ حينٍ بألقاب تحقيرٍ تطلَق على العرب الأفارقة. هكذا استنتج قاسم أنّ الثقة بالنفس هبة، وأنّ بعض الناس يمتلكونها منذ الولادة، مثلها مثل القامة الطويلة أو البشرة السمراء بلون فاكهة المنلكارا.

ظهيرة ذات يوم، اصطحب عثمان قاسماً ليأكلا في مطعمٍ متواضعٍ اسمه «فوتا تورو». وهناك، حدث ما كان مقدّراً له أن يحدث.

لا يتمتّع مطعم «فوتا تورو» الواقع على مقربةٍ من الميناء القديم بمظهرٍ جذّاب، وهو يتألّف من مجموعةٍ من الغرف الكئيبة المتتالية، وزبائنه من العمّال المهاجرين، وهم أناسٌ يعدّون تناول الطعام، مثله في ذلك مثل التحدّث باللغة الأصلية أو الاستماع إلى الموسيقا التقليديّة، أمراً له دلالةٌ دينية. فتناول حساء السمك السنغالي التقليدي على سبيل المثال يعادل التواصل مع روح البلد النائي. كانت أميناتا في العشرين من عمرها. وهي تساعد أمّها بين مسألتي جبر، إذ إنّها تدرس للتقدّم مرّةً ثالثة لامتحان الشهادة الثانوية نظراً لتعثّرها المتكرّر في الرياضيات. تقدّم الصحون مع أخواتها الخمس وترفعها عن الطاولات، وتملأ الكؤوس بعصير نبات البيساب، وتمسح فورمايكا الطاولات بقطعة قماش. تحمي نفسها من الرجال الذين يتفحّصونها بأعينهم، أو يهمسون بكلماتٍ معسولةٍ في أذنيها. قبل كلّ شيء لأنّ خمسة أوغاد اغتصبوا إحدى أخواتها الأكبر منها سنّاً وإحدى قريباتها في موقف سياراتٍ تحت الأرض. وحدها سرعتُها جنّبتها ملاقاة المصير عينه. وثانياً لأنّها تفضّل الكتب على الحب. الشعر. فيكتور هوغو. الشعراء الذين يكتبون باللغة الإسبانية مثل فيديريكو غارثيا لوركا(*)

(*) Federico García Lorca (1898–1936): شاعرٌ وكاتبٌ ومخرجٌ مسرحيٌّ إسباني.

ونيكولاس غيين(*) والإله بابلو نيرودا(**). وهي تلقي صفحاتٍ كاملةً من ديوان «النشيد الشامل»، ما منحها شهرةً غير مألوفة. بل إنّ عائلتها تعتقد أنّها «معتوهةٌ» إلى حدٍّ ما.

ما إن وقع نظرها على قاسم حتّى أُغرمت به. إنّه الشخص الذي كانت تنتظره. فهو بالتحديد مختلفٌ عن الآخرين. أعور. أخرق. قليل الثقة بنفسه. متردّدٌ مثل صوصٍ نقف بيضته قبل ثوانٍ. في الواقع، تختلف هذه الحكاية عن الحكايات التي سردتُها قبلاً. ومثلما كان الأمر في السابق مع آنّا ماريا، اضطرّت أميناتا للقيام بالخطوات الأولى، لنخز قاسم وهو يتناول طبقه المكوّن من «الرزّ بالسمك». لقد عاهد نفسه على ألّا يولي النساء أيّ اهتمام. ثمّ إنّ أميناتا ليست بالجمال الرائع الصارخ الذي يجتذبه. ليس فيها ما يشبه حفصة أو إيبوني ستار. لم تستدعِ أيّ قصيدةٍ إلى ذهنه، ولا حتّى قصيدة ليوبولد سيدار سنغور(***) الذي لا يعرفه، على الرغم من شهرته الواسعة:

يا امرأةً عاريةً، يا امرأةً سوداء،
تتغطّين بلونك وهو حياة، وبتكوينك وهو جمال،
وأنا حيث ترعرعت بظلّك؛ ونعومة كفّيك تغطّي عينيّ...

تستدعي الحقيقة أن نقول إنّ مأثرة أميناتا الوحيدة كانت نضارة سنواتها العشرين، وملمس بشرتها الكهرمانية المخمليّ، وعمق مقلتيها الآسرتين

(*) Nicolás Guillén (1902–1989): شاعرٌ وصحافي وناشط سياسي وكاتب كوبي.

(**) Pablo Neruda (1904–1973): شاعرٌ ودبلوماسيٌّ وسياسيٌّ تشيلي، و«النشيد الشامل» من أشهر أعماله.

(***) Léopold Sédar Senghor (1906–2001): شاعرٌ وسياسيٌّ ومنظّرٌ ثقافيٌّ سنغالي، أوّل رئيسٍ للسنغال.

تحت حاجبين كثّين، وبالأخصّ رائحة البخّور والزنجبيل المنبعثة من جسدها.

كانت طالبةً في ثانوية ألبير كامو حيث تتمتّع، هناك أيضاً، بسمعةٍ غير معهودة. فطلّاب الثانوية لا يحبّون كثيراً الأقوياء في بعض الموادّ، أولئك الذين لا يرفعون رؤوسهم عن الكتب، يرتادون المتاحف ويختالون. لم يعد أحدٌ يسمّيها سوى «لا لوكا»(*)، في تلاعبٍ خبيثٍ بالكلمات يلمّح أيضاً إلى تفضيلها الشعراءَ الناطقين بالإسبانية. تبدّل كلّ شيء. فبعد الدروس، يأتي قاسم لاصطحابها، ما يثير تسلية رفاقها في الصف الذين يعلّقون: «أخيراً! لا لوكا نسيت الشعر وصادفت شاباً. ليس بارع الجمال كأدونيس، وفوق ذلك مسخٌ بعينٍ واحدة». لم يكن قاسم وأميناتا يأبهان بالسخرية. ويستخدمان غطاء الدروس الخصوصية، الرياضيات، يسلكان طريق مجمّع بومارشيه السكني الذي يعود تاريخ بنائه إلى السبعينيات، لكنّه يبدو كأطلالٍ مهيبةٍ آيلةٍ للسقوط وسط حديقتها الجرداء. منذ عشر سنوات، تحتلّ عائلة أميناتا في ذلك المجمّع شقّةً بثلاث غرف، وعلى الرغم من جهود المُساعِدات الاجتماعيات، لم تتمكّن من تغييرها. في هذا المسكن المتداعي، المملوء بالأسبستوس، تسكن دزّينتان من الإخوة والأخوات وأبناء وبنات العمّ والعمّة والخال والخالة والأعمام والعمّات والأخوال والخالات والأجداد. يمكن أن يبدو أشبه بتمثيلٍ لمآسي المنفى. لكن ما دام بوسع المرء دائماً أن يجد فيه مخدعاً، فراشاً لممارسة الحبّ، فقد كان أشبه بالجنّة بالنسبة إلى قاسم. يكفيه ذلك لتغيير مظهر مكانٍ أقرب إلى القذارة. سكنته السعادة. إذ إنّ أميناتا ليست الجسد الحيّ الذي لطالما

(*) La loca تعني باللغة الإسبانية: المجنونة.

رغب فيه فحسب، بل هي أيضاً فاضلة وتحبّه لنفسه! من غير الوارد هذه المرّة أن تكون لديها أهدافٌ خبيثةٌ تتعلّق برمزي، فهي لا تعرفه أصلاً.

أميناتا، من جانبها، نسيت الشعر عندما ظهر الجنس. فقد لاحظت أنّه ملح الوجود. أنّها خُلقت من أجله مثلما خُلقت الزهرة لتتبيل بعض المأكولات والعسل للنحلة والفم للقُبلة، مثلما تقول أغنية بيغوين الغوادلوبية. تنزع واقية عين قاسم المسكينة المتألّمة من دون قرف. ثمّ توالي الكلمات العذبة والمداعبات. يذوب سعادةً ولا يستوعب تحوّل هذه المراهقة ذات المظهر الجدّي، الأقرب إلى الخجل والتي تغضّ طرفها احتراماً لأبيها وأمّها وأعمامها وأخوالها وعمّاتها وخالاتها. إذ تُظهر في السرير حرّيةً وابتكاراً لا مثيل لهما. تأخذه، تديره، تقلبه، تتركه كالميّت. يمكن القول إنّ ذلك بعث في نفس قاسم سعادةً لم يكن يتوقّع أن يعيش مثلها. فقد أدرك أنّ آنا ماريا لم تكن بارعة، بل منفّذةً جيّدةً في أحسن الأحوال، وفي فيض ولعه، أخذ يشعر بالقدرة على تعرية روحه مثلما يعرّي جسده.

يُسرُّ لها بتواضع: «أنتِ في الحقيقة لا تعرفين من أنا. ضميري مثقلٌ بالجرائم».

كان لا يزال يلوم نفسه على موت حفصة وإيبوني ستار. فتكاد أميناتا تنفجر ضحكاً وتقول: «لا أصدّقك. أنت طيّبٌ ونقيّ!».

ثمّ تضيف برصانة: «لكن حتّى لو أثِمتَ مئة مرّة، لصفح لك حبّ الله. فقد قال الله تعالى: "لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثمّ استغفرتني غفرت لك"».

أحكمت مثل هذه الجُمل وشيجة حبّ قاسم. أقسم على ألّا يعيش

بعد الآن مثلما عاش، أن يقي نفسه، مثلما يقي المرء نفسه من الأمراض بممارسة الرياضة وتناول غذاءٍ متوازن. لم يكن هنالك سوى أمرٍ واحدٍ يعكّر سعادته. فقد عرض عليها الزواج بانتظام، مقرّراً توديع رمزي وفخامته المشبوهة الأصل ليعيش هذه الحياة «الطبيعية» التي يفكّر فيها باستمرار. لكنّها رفضت كلّ مرّة، بأسلوبٍ لا يمكن تفسيره. لا شكّ في أنّه يجب أن نرى هنا تأثير عائلتها فيها. فقد لاحظ أنّ أمّها، الحاجّة راماتو -وهي فولانيةٌ تؤكّد أنّها من سلالة الحاج عمر، تغطّي رأسها بالأوشحة البيضاء لأنّها حجّت إلى مكّة ثلاث مرات- تتوجّه دائماً إليه بأسلوبٍ متسامح. أمّا أبوها، فيقول إنّ من بين أقاربه أمراء. باختصار، لم يكن هؤلاء الناس يرغبون بصهرٍ بلون القهوة بالحليب، ينحدر من عبيدٍ وُضعوا في السفن على سواحل إفريقيا وبيعوا بالمزاد العلني في جزيرة غوريه. بطبيعة الحال، يمكن أن نصنع من هذا الأصل الحقير قصيدةً لافتة:

كلّا، لم نكن يوماً فارساتٍ لملك داهومي،

أو أمراء من غانا يملكون ثمانمئة جمل...

صدّقوني، صحيحٌ أنّ إيميه سيزير(*) عبقري، لكنّ الواقع أكثر فجاجةً بكثير!

ذات يوم، بينما كان يضمّ أميناتا بقوّةٍ أشدّ من المعتاد، أفلتت منها الجملة التالية: «اسمع! أتريد أن أقول لك؟ لن يقبل أهلي أبداً أن أتزوّج شخصاً غير مسلم».

بدأ يضحك.

- هم يعتقدون أنّني مسلم!

(*) Aimé Césaire (1913-2008): شاعر ومناضل سياسي فرنسي من جزر المارتينيك.

هزّت كتفيها: «هل تعرف المثَل القائل: "يستطيع الحمار الذهاب إلى مكّة، لكنّه لن يعود منها حاجّاً"؟».

فغضب.

- هل نسيتِ ما حدث لي وحكيت لك عنه؟ لقد خسرتُ عيناً. كدت أخسر حياتي. بسبب الإسلام. لقد أصبحتُ مسلماً. أستحقّ أن أكون مسلماً.

قالت بإصرار: «لم أنسَ شيئاً ممّا عانيتَه. لكنّني، وأنا التي تضاجعك كلّ يوم، لن أدعم كذبتك. إذا كان لنا أن نتزوّج، فعليك اعتناق الإسلام».

فهِم قاسم ما يحزنها في ومضة: «أنا غير مختون! هل هذا هو الأمر؟ هل يُختزَل كلّ شيءٍ في قطعة جلدٍ صغيرةٍ زائدةٍ أو ناقصة؟».

أدارت ظهرها له.

ما العمل؟ ذهب محتاراً لاستشارة عثمان الذي كان في ذلك اليوم يبيع أولى حبّات الكستناء المشوية في الموسم. زمجر عثمان بهيئةٍ مهمومة: «أنت تطرح عليّ سؤالاً صعباً. جميع من أعرفهم هم مثلي. أُعلنوا مسلمين عندما وُلدوا. أهلهم هم من فعلوا ذلك. أمّا بالاختيار، فهذا أمرٌ آخر. سنذهب غداً للقاء إمام مسجد المرفأ القديم».

كان الإمام، الملتحي والمعمّم، من أصلٍ إيراني ويتكلّم الفرنسية مثل بقرةٍ من بلده. أربكته المشكلة. فهو لم يسمع قطّ بحالات اهتداء راشدين. لذلك، نظر إلى قاسم مرتاباً. لماذا يريد أن يصبح مسلماً؟ هل يعرف أركان الإسلام الخمسة؟ هل يستطيع النطق بالشهادة؟ هل يعرف كيف تؤدّى الصلوات الخمس؟ هل يعلم ما هي الزكاة، ما هو الحجّ، الصوم؟ هل تصفّح القرآن يوماً؟

فكّر قاسم وهو يشعر بالقرف: قواعد! هذا الرجل لا يحدّثني إلّا عن القواعد!

طرح عليه الإمام أسئلةً مثلما يطرح ممتحنٌ أسئلةً على طالبٍ كسول. أليس الدين أمراً يرتبط بالقلب؟

في نهاية المطاف، اعترف قاسم بأنّه يشعر بالخوف من السكين: هل الختان أساسي؟

غضب الإمام: «بالخوف! ماذا يعني ذلك؟ ألا تستطيع تقديم هذه التضحية دليلاً على التسليم بالإرادة الإلهية؟».

عندما خرجا، تأبّط عثمان ذراع قاسم:

- لديّ صديقٌ متبحّرٌ في العلم. كاميروني. كما أنّه دكتور في الطبّ، وكذلك في الفلسفة حسب ظنّي. هل تريد أن نذهب لاستشارته؟

.2

المهاجرون لا يتشابهون جميعاً في شروطهم ولله الحمد. فهم لا يقبعون جميعاً في مبانٍ متداعية، محشوّةٍ بالأسبستوس. لم يكن صديق عثمان العلّامة، الدكتور فانو سيفر، من أولئك. درس في مستشفيات باريس وبدلاً من أن يعود إلى بلاده ليحصل على راتبٍ مزرٍ، استقرّ في مرسيليا. وقد احتلّ قبل مدّةٍ وجيزةٍ منصب كبير الأطباء في عيادةٍ خاصّةٍ أنيقة. غير أنّ ذلك لم يمنعه من أن يبقى قريباً من أهله الذين يجري لهم العمليات الجراحية مجّاناً في بعض الأحيان. وجداه يتأرجح في مقعده وهو يرتدي قميصه ذا الشارة. وضع يديه متصالبتين على مستوى شفتيه، في حركةٍ جميلة، وبدأ كلامه بتلك النبرة الواثقة التي يتبنّاها أحياناً رجال العلم: «إزالة القلفة ليست حتمية! كي تكون مسلماً صالحاً، المهمّ هو احترام أركان الإسلام الخمسة. هل تعرفها؟».

وردّد قائلاً: «يُبنى الإسلام على خمسة أركان، شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله...».

فقاطعه قاسم ببؤس: «أنا أعرف هذا كلّه! لكنّ أميناتا حريصةٌ على ذلك الختان! بل إنّني أضيف أنّها لا تحرص إلّا على ذلك».

باعد الطبيب بين يديه: «إن كانت حريصةً على ذلك، فعلينا الامتثال. ما تريده المرأة يريده الله!».

ضحك بمفرده لدعابته، لأنّ قاسماً كان خائفاً. لاحظ الطبيب ذلك وقال بنبرةٍ مُطمئِنة: «لا تخف! القضيب عضلةٌ غزيرة التروية، مليئةٌ بالدم. لكنّني سأعرف كيف أجنّبك الألم الشديد».

بعد يومين، ذهب قاسم إلى العيادة بصحبة صديقه المخلص عثمان وخضع للعملية الجراحية. وقد وفى الدكتور فانو سيفر بوعده، فلم يتألّم قاسم كثيراً.

لمدّة أسبوعٍ أو أسبوعين، اضطرّ لحمل قضيبه مغلّفاً بنوعٍ من الحمّالة المصنوعة من الشاش ولذرّ مسحوقٍ عليه لتسريع التئام الجرح. ولئن كانت العملية الجراحية قد غيّرت شيئاً في جسده، إلّا أنّه لم يكن لها أيّ تأثيرٍ في شخصيته. لم يصبح قلبه وروحه أكثر تديّناً ممّا كانا. أمّا أميناتا، فقد شعرت بالسعادة البالغة على الرغم من العفّة الإلزامية التي فرضتها النقاهة! فقد كانت تمطر بالقبلات العضو المتألّم ثمّ كعادتها، تهمس بكلماتٍ عذبةٍ في أذن قاسم. لذلك، لم يتأخّر في معاودة الهجوم: «فعلتُ ما أردتِه. هل نستطيع أن نتزوّج الآن؟».

تحوّلت إلى الجدّية وفهم هو أنّ مطالبها لم تنتهِ: «لم أسألك يوماً عن مكان عملك. من أين تأتي بالمال؟».

ها هي ذي تلامس مسألةً تؤرّقه بشدّة!

استأجر رمزي قصر غريتزي، وهو اسم مسكنٍ قديمٍ لأحد محافظي كورسيكا، المحافظ أرونديل الذي استهدفه اعتداءٌ إرهابي. نجح فريقٌ متميّزٌ من الأطباء في إنقاذ حياته، لكنّه أمضى بقيّة عمره في كرسيٍّ متحرّك.

لذلك، كانت حجرات الدارة العشر تصطفّ في الطابق الأرضيّ وتطلّ مباشرةً على الحديقة، وهي دغلٌ حقيقيٌّ من شجيرات الدفلى وأشجار الأكاسيا. كان عمر قصر غريتزي ثلاثة قرون، وهو رائعةٌ من الروائع التي ينوي رؤساء المنطقة تصنيفها كمبنىً تاريخي. جمّله أروندیل بأثاثٍ على طراز لويس الثامن عشر، طرازه المفضّل، مع لمسةٍ هنا وهناك من التزيين الأجنبي. حاجزٌ ليبيٌّ من الجلد المزخرف. طاولةٌ صينيةٌ صغيرةٌ من خشب الصندل. سجّادةٌ فارسية. تمثالٌ لبوذا بالحجم الطبيعي انتُزع من قصرٍ في أوداييور. وظّف رمزي عدداً معتبراً من المستخدمين: بستانياً وسكرتيرةً تنقر مثل حفصة بصورةٍ محمومةٍ على حاسبها الفائق الحداثة، وسائقاً لتلميع سيارة المرسيدس وقيادتها. لم يكن يتناول أيّ وجبةٍ في البيت. ويستقبل عِليَة القوم في مرسيليا مرّتين في الشهر، من رجال سياسةٍ وصناعيين وتجّارٍ كبار، ويتحدّث إليهم حتّى ساعات الصباح الأولى. في تلك الأيام، يطبخ قاسم، مستذكراً أكثر وصفات «دريم لاند» والقصر الرئاسي ابتكاراً. ومقابل هذا العمل، يدفع له رمزي حين يحلو له مبلغاً بسيطاً لا يكفي لتلبية احتياجاته، فضلاً عن تأسيس أسرة. لذا، استجمع قواه ذات مساءٍ وبلّغه قراره بالبحث عن عملٍ جديرٍ بالاحترام.

سخر رمزي: «ما الذي تطلق عليه تسمية "جدير بالاحترام"؟».

سؤالٌ وجيهٌ بالفعل! ما هو العمل الجدير بالاحترام؟

ما هو تعريفه؟ كلّ ما يقوله المثل هو ما يلي: «ليس هنالك مهنةٌ غبيّة!»(*)، وعلى الرغم من تأمّل قاسم العميق، فلم يتوصّل إلى إيجاد جوابٍ شافٍ. غير أنّه بدأ بحثه منذ اليوم التالي. سرعان ما لاحظ أنّ الشهادات

(*) *Il n'y a pas de sot métier*: تعبيرٌ يعني أنّ كلّ المهن مفيدة.

التي حصل عليها من المدرسة الفندقية لا تبهر أحداً. كان الموظّفون في مكاتب وكالة التشغيل الوطنية يمعنون النظر إليه.

سأله وكلاء قليلو اللطف، في حين أخذ صفّ طالبي العمل يمتدّ خلفه: «أين دريم لاند هذه؟».

أو ردّوا عليه بالقول: «هل تقصد بورتو نوفو؟ لا وجود لـ"بورتو فيراي" في أيّ مكان. إنّها مدينةٌ متخيّلة».

لكنّه تمكّن في نهاية المطاف من الحصول على مقابلة تشغيلٍ في جمعيةٍ كاثوليكيةٍ اسمها «اليد الممدودة».

تشغل جمعية «اليد الممدودة» الطابق الأرضي في مبنى ذي مظهرٍ متواضع يقع في أحد الأحياء البروليتارية والبعيدة. استقبله رجلان من غير رجال الدين لكنّهما يتصرّفان كرجُلَي دين، باستثناء قصّة شعر الرهبان المميّزة، في مكتبٍ شديد البرودة يهيمن عليه صليب. شرحا له أنّ «اليد الممدودة» تنظّم أنشطةً ترفيهيةً لعددٍ لا يحصى من الأطفال البائسين في المدينة. إنّهم بصورةٍ أساسيةٍ من «الجيل الثاني» كما يُطلَق عليهم. من جزر الأنتيل، من إفريقيا، من جزيرة ريونيون، من أفغانستان، من باكستان. يكاد المرء يظنّ أنّ نساء الكوكب بأكمله يأتين لينجبن في مرسيليا، وهذا هو بالتحديد ما يشتكي منه عددٌ من المستائين.

سأله أحد الرجلين: «أنت وُلدت في ليل وأمضيت حياتك الدراسية كلّها فيها؟».

فهِم قاسم من نبرة صوته أنّ ما لم يخدمه حتّى ذلك الحين سيتحوّل إلى ميزة. فهو يشبه أولئك الشبّان الذين سوف يتولّى مسؤوليتهم. إنّه من «الجيل الثاني»، منبوذٌ يصارع من أجل اندماجٍ لا يأبه به أحد.

غادر المكتب سعيداً والعقد في جيبه. دعونا نقُل بسرعةٍ إنّ هذه السعادة لم تدم طويلاً. لم يكن لافونتين(*) محقّاً حين كتب أنّ العمل «كنز»، إذ سرعان ما فهم قاسم أنّ ذلك كلّه مجرّد حكايةٍ خرافية. فقد كُلِّف بأن يصطحب ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع مجموعةً من الأطفال تتراوح أعمارهم بين سبعة أعوامٍ واثني عشر عاماً، يتكدّسون في حافلةٍ للذهاب إلى حلبة التزلّج أو إلى المسبح أو إلى البحر - فماء الخلجان الأزرق قريبٌ جدّاً. وفي الأيّام الأخرى، يراقب مبارياتهم في كرة القدم أو كرة السلّة أو الكرة الطائرة في الملعب البلدي. لم يأبه بالصعوبات، بل مضى إلى حدّ تشكيل فرقةٍ مسرحيةٍ بهدف حثّهم على اكتشاف موليير(**). من النافل الإشارة إلى أنّ المسؤولين عن جمعية «اليد الممدودة» تمسّكوا بقوّةٍ بالدرّة التي اكتشفوها. فبسبب انتماء قاسم إلى الكشّافة في سوسي، امتلأت جعبته بمجموعةٍ لا تنضب من الأناشيد والألعاب وكلّ أشكال التسليات التي تُبعِد اليافعين عن المخدّرات وآفات العالم الحديث الأخرى. أمّا الأطفال، فاختلف رأيهم، لأنّ المرء في مثل هذه السنّ لا يُعجَب سوى بالقوّة البدنية. وهذا المشرف النحيل والضعيف النظر لا يوحي بالاحترام، كما أنّهم لم يأبهوا بمزاياه الإنسانية. وأكثر ما أزعجهم هو نظرة اللطف المنبعثة من مقلته.

كان قاسم يردّد في نفسه: إنّهم يشبهون ما كنتُ عليه! منبوذون من الجهات كلّها. جاهلون. عاجزون عن العثور على الجمال في أنفسهم.

ينقسم العالم بالنسبة إلى أولئك الأطفال إلى معسكرين. والسيّد

(*) Jean de La Fontaine (1621-1695): كاتبٌ فرنسيٌّ شهير.
(**) Molière (1622-1673): كاتبٌ وممثّلٌ وشاعرٌ فرنسيٌّ شهير.

مايومبه مشرفٌ وينتمي إلى معسكر السلطات؛ سيكون نفاقاً أن يزعم العكس. لذلك، كانوا في صحبته أشدّ صخباً، مقاتلين وغير منضبطين. يدخّنون ويكفرون مثل جنودٍ ولا يتراجعون أمام أيّ وقاحة.

تجسّد جلّاد قاسم في زكريا، وهو يافعٌ أصله مغربي، أشقر بعينين خضراوين، قويّ البنية مثل اللاعبين في الأعياد الريفية. هو الذي كان وراء إطلاق لقبٍ على قاسم، فكان الأطفال يسمّونه «الضئيل» تارةً و«الدخيل» تارةً أخرى، واعتقد قاسم بأنّه يفعل خيراً إذا ما لعب لعبة التفهّم.

في عصر أحد الأيّام، ذهبوا إلى المسبح. في كلّ مرّة، كان زكريا ينفلت من عقاله بالكامل أثناء جلسات السباحة تلك، إذ يبدو كأنّ الماء يمارس عليه فعل صبّ الزيت على النار. أوقفه قاسم وهو يقحم بوحشيةٍ رأس فتىً أضعف منه ثلاث مرّاتٍ داخل الماء، وسحبه نحو غرف تبديل الملابس قائلاً له من دون مقدّمات: «أنا أعلم ما تعانيه!».

- حقّاً؟!

المراهق يتحدّاه. يبدو وسيماً إذا نظرنا إليه عن قرب. وسامةً مقلقةً ومخيفةً مثل تلك التي ربّما كانت تبدو على ملامح بعض ضبّاط المخابرات النازية.

واصل قاسم من دون أن يسمح له ببلبلته: «اسمع، ليس ذنب أحدٍ إن كان أبواك سئما من الموت جوعاً في بلدتهما، فأتيا بحثاً عن العمل في هذا البلد الذي لا يريدهما فيه أحد».

وبما أنّ زكريا واصل الصمت، فقد أضاف قائلاً: «لقد خبِرتُ ذلك قبلك وتمكّنت من التغلّب عليه كما ترى. لا تفرّغ حنقك عليّ. نحن في الجانب عينه».

آنذاك، سأل زكريا بوقاحة، كما لو أنّ المناجاة دامت أكثر ممّا يجب: «هل أستطيع الذهاب؟».

قال قوله ذاك وخرج وهو يوجّه للباب ركلةً رجّته رجّاً.

أراهنك يا عزيزي القارئ أنّه لم يفهم إلّا جزءاً يسيراً من ذلك الخطاب الوجيز. وبالفعل، بلغ من شقاوته أنّ المسؤولين عن «اليد الممدودة» اضطرّوا للتخلّي عنه.

شعر قاسم بالمسؤولية عن هذا الطرد. وفاقم الأمرَ أنّ الأطفال الآخرين جعلوه يدفع الثمن بمضاعفة عدم الطاعة، إن كان ذلك ممكناً. قاطعوا التمارين المسرحية، فبات عرض مسرحية «البخيل» مستحيلاً.

على الرغم من هذه المآسي، كان قاسم يتلقّى مرّتين في الشهر شيكاً يزيد من كونه جديراً بالاحترام أنّه كان ضئيل القيمة. فبفضله، يتمكّن من دعوة أميناتا إلى السينما وتقديم البوشار الذي تحبّه حبّاً جمّاً في الاستراحة بين قسمَي العرض.

ذات يوم، عاد ليهاجم.

بعد ممارسة الحبّ، مفعماً برائحة جسدها الشهيّة، شدّها إلى صدره: «أنت ترين أنّ لديّ عملاً. راتبه ليس ممتازاً. لكن في هذه الأيّام، يجدر بالمرء أن يكون متساهلاً».

وأردف من فوره: «بات بوسعنا أن نتزوّج».

ألقت عليه أميناتا نظرةً حالمةً بعينيها السوداوين اللتين لا يمكن سبرهما. ففهم، كرياضيٍّ يفكّ رموز سحنة مدرّبه، أنّ محنةً جديدةً تنتظره. صرّحت قائلةً: «الزواج عندنا مسألةٌ جدّية».

فأجاب قاسم بحماسة: «هذا بديهي! أتعتقدين أنّني أمزح؟».

واصلت كلامها برصانة: «أعني أنّه لا يتعلّق بمجرّد نزوةٍ يعيشها شخصان».

احتجّ قاسم على كلامها ذاك أيضاً: «ما الذي تطلقين عليه تسمية "نزوة"؟ هل تقصدين "الحبّ"؟».

لم تجِب عن السؤال وواصلت: «إنّها مسألةٌ عائلية. مسألة عائلتين. أنا حتّى لا أعرف عائلتك».

فقال مذهولاً: «عائلتي؟!».

منذ أن عاد قاسم إلى فرنسا، كثيراً ما خطرت في باله ذكرى كيليرمان ودراستا. يراهما جسدين عجوزين في سوسي، في «التخشيبة» التي امتلأت في ما مضى بالأطفال، وأصبحت الآن كبيرةً عليهما، مفعمةً بالذكريات وبتيّارات الهواء. لا بدّ أنّ كيليرمان قد انتهى أخيراً من تمديد التدفئة المركزية ومن أعمال السباكة والدهان والمياه الجارية. بماذا تفيد كلّ الجهود التي بذلها في الماضي؟ لم يبقَ له إلّا انتظار الموت. لكنّ قاسماً لم يفكّر أبداً في عبور البلاد لزيارة أبويه، إذ يمنعه عن ذلك شعورٌ بالعار لا يمكن البوح به. فما الذي سيبدو عليه أمامهما؟ هو لم «ينجح»! أعور. مثخنٌ بالجروح. مفلسٌ بوضوح.

لمعالجة ارتباكه، قرّر أن يستشير مرّةً أخرى عثمان الذي لطالما قدّم له المساعدة الثمينة في الماضي. تحادث معه في «فوتا تورو»، أمام طبقٍ من المافِه(*)، محاطَين بروائح الفول السوداني والبندورة.

(*) Mafé: طبقٌ إفريقيٌّ تقليدي، أصله من مالي والسنغال، وهو مكوّن من البندورة الطازجة والثوم والبصل والدجاج ودبس البندورة والزيت النباتي ومعجون الفول السوداني.

قال متنهّداً: «عجيبٌ أمر النساء حقّاً! ها هي ذي تريد التعرّف بعائلتي. أتتخيّل ذلك؟!».

فأكّد له عثمان: «هذا طبيعيٌّ تماماً. ممَّ تخاف؟».

تساءل قاسم: أجل، ممَّ أخاف؟ منهما؟ من نظرتهما إليّ؟

استأنف عثمان: «أتعرف المثل القائل: "الدم لا يصير ماءً"؟ أراهن أنّ أبويك سيستقبلانك بأذرعٍ مفتوحة. لم يحدث بينكم شيءٌ أصلاً، أليس كذلك؟».

- ماذا تقصد؟

- لا شجارات ولا شتائم؟

اعتاد كيليرمان أن يشبع أبناءه ضرباً وهو ينعتهم بأنّهم «طرائد للذبح»، وهو تعبيرٌ كان متعلّقاً به، تحت نظرات دراستا المرتاعة، حتّى اليوم الذي هدّد فيه كيليرمان جونيور الذي كان قد تجاوز أباه في الطول بمقدار رأسٍ بأن يدافع عن نفسه.

«لا، أبداً» – قال قاسم كاذباً.

ضحك عثمان.

- وحتّى لو كان الأمر كذلك! أبي أنا كان يشبِعني ضرباً. ركلات، لكمات. ذات مرّة، كاد يفقأ عيني وتركني شبه ميّتٍ في الباحة. لو أنّك رأيت المشهد! أمي، ضرائرها، جميعهنّ بكين. لطالما وصفني بأنّني لن أُفلح في شيء. لكنّه انتحب كطفلٍ عندما قرّرت الرحيل إلى فرنسا.

على الرغم من هذه الأقوال المواسية، لم يطمئن قلب قاسم، فسأل: «وماذا لو انتبهَتْ إلى أنّ والديّ ليسا مسلمَين؟».

هزَّ عثمان كتفيه: «وما أهميّة ذلك؟ أنت نفسك مسلم. وقد حصلَتْ على البرهان، أليس كذلك؟».

لم يستقرّ رأي قاسم على الكتابة لأبويه إلّا بعد أسبوعين؛ واستغرقه العثور على الأسلوب المناسب لأداء المهمّة أسبوعاً ثالثاً. انتهى به الأمر لأن يقرّر إرسال الرسالة، وبعد ثلاثة أيّام اتّصلت به كاترينا (أم أنّها كانت كوميتا؟). فقد شعر الوالدان بسرورٍ جمٍّ عندما تلقّيا رسالته، هذا ما أكّدته. كانا يعتقدان أنّه مقيمٌ في مكانٍ ما في إفريقيا السوداء؛ وسُعدا لمعرفة أنّه في فرنسا. وهما يحثّانه على المجيء لزيارتهما في سوسي بأسرع وقتٍ ممكنٍ مع خطيبته. وبالفعل، الوقت المتاح قصير، لأنّ كيليرمان سيذهب إلى غوادلوب ليعيش فيها بعد التقاعد.

شعر قاسم بالذهول. هكذا إذاً، سيترك أبواه المكان الذي قضيا فيه وجودهما كلّه؟ كان بودّه لو ينال معلوماتٍ أكثر عن هذا الرحيل، لكنّها كانت قد أغلقت السمّاعة. لم تأتِ المفاجأة من أنّ الفكرة جديدة. إذ إنّ كيليرمان لم يتوقّف يوماً عن الحلم بالعودة إلى البلد. ولطالما سمعه قاسم طيلة طفولته، وبعد ذلك أثناء المراهقة، يراكم طلبات النقل التي يُبدِع موظّفون في العاصمة في رفضها، غارقين في ظلاميّتهم وانحرافهم الذي لا يمكن سبر غوره. وهو من جانبه كان سعيداً بذلك، إذ لم تكن لديه أيّ رغبةٍ في أن يرافق أباه إلى غوادلوب تلك التي يتخيّلها غريبةً، غير مرحِّبة، غرائبيةً وهمجيةً في آنٍ معاً، وكأنّها خرجت لتوّها من كتابٍ عنوانه: حكايات وأساطير من جزر الأنتيل. هناك حسب ما كان يتخيّل، ما كان ليستغرب لو أنّ الناس يمشون على رؤوسهم. لم تكن سوسي تريدهم، فليكن! هو لا يريد الجزيرة الغامضة. بعد أن أرسل قاسم تلك الرسالة،

استرجع مراراً وتكراراً طفولته الأولى ولم يتوقّف عن التساؤل حول أهله. أين أشقّاؤه؟ في أيّ سجن؟ تحت أيّ سماء؟ هل تزوّجت شقيقتاه؟ كانت كاترينا وكوميتا قريبتين الواحدة من الأخرى كما لو أنّهما توءم، من دون أن تكونا توءماً. فقد ولدتا بفارق تسعة أشهر، تماماً على وجه التقريب. وتشبه إحداهما الأخرى مثل نقاط الماء العادية. تصفّفان شعريهما بالطريقة عينها وترتديان ملابس متماثلة وتستخدمان الفتيان عينهم للحبّ والمتعة. يبدو أنّهما لم تذهبا إلى مكانٍ أبعد من مدينة ليل. ما الذي تفعلانه فيها؟

أثناء الطريق من مرسيليا إلى سوسي، قرّرت أميناتا التوقّف في باريس عند أحد أخوالها، الخال كريم، إذ لم تره منذ وقتٍ بعيد. تمنّى قاسم الاستغناء عن هذه الزيارة، إذ لم تكن لديه ذكرياتٌ حسنة عن العاصمة التي عاش فيها ثلاث سنوات أثناء دراسته. فهي غير لطيفةٍ مع أصحاب الميزانيات الضئيلة، مع من لا يميّزون أبداً بداية الشهر من نهايته، وتتجهّم في وجوههم. غير أنّه لبّى رغبة أميناتا وحمل الأمتعة على طول ممرّات وأدراج قطار الأنفاق الذي استعاد ذكرى رائحته، رائحة الطعام الفاسد.

عاش الخال كريم سبع سنواتٍ مع زوجته وأطفالهما في غرفةٍ في سارسيل. ثمّ انتقل أخيراً إلى شقّةٍ من خمس غرفٍ في قلب باريس، في تجمّع نيكولاي السكني. لكن وا آسفاه! سرعان ما عاد الازدحام إلى ما كان عليه. فقد اضطرّ لأن يستقبل أخاه برفقة زوجته وأطفالهما السبعة بعد أن نجوا بمعجزةٍ من حريق فندقهم. وهكذا، أصبحوا أربعة عشر شخصاً في مكانٍ مهيّأٍ لسبعة أشخاص. لم يكن لأيّ بابٍ قفل، ولا لأيّ قفلٍ مفتاح. وفي حين ينزل جزءٌ من العائلة طابقين للاستماع إلى حفل راب في الدار، يتكدّس الجزء الآخر في غرفة الطعام لمشاهدة أفلام الرعب الأميركية،

سكريم 1 و2 و3. كان قاسم يفضّل أن يمسك بأميناتا من يدها ويخرج معها ليرى ما إن كان سيتمكّن من انتزاع ابتسامةٍ من وجه المدينة المتجهّم. ربّما تتحسّس مثله لسحر أميناتا! لكنّ أميناتا بدت سعيدةً جدّاً، كنملةٍ وسط قريتها، لدرجة أنّ قلبه لم يطاوعه على إزعاجها. لذلك ذهب بمفرده ينظر إلى انعكاس وجهه في مقلة نهر السين المثيرة للحزن.

الليل أبرد بكثيرٍ منه في مرسيليا.

دخل إلى مشرب زيمّر لاحتساء الفودكا، وهو مشربٌ كان يذهب إليه في الماضي، في الأيّام التي يقبض فيها المبلغ الذي ترسله له أمّه. كان يحبّ ملاءات المشرب المصنوعة من المخمل الأحمر، الفخمة مثل ديكور مسرح. أحياناً، يأتي ممثّلو صالات العرض المجاورة إلى المشرب بعد ارتداء ملابس التمثيل ووضع مساحيق التجميل لاحتساء مشروباتٍ ساخنةٍ تُحسّن صوتهم.

يخطر في باله وهو يتفحّصهم: يا لها من مهنة! كما لو أنّ حياةً واحدةً لا تكفي، بموكب مصائبها! فها هم يضاعفون هذه المغامرة القذرة باختراع سيناريوهات متخيّلة.

عندما عاد إلى مجمّع نيكولاي السكني، لم تكن أميناتا قد نامت بعد، على الرغم من تأخّر الوقت. وجدها تقهقه بين أبناء وبنات أخوالها، فذهب ليتمدّد على فراشٍ قرب فتيانٍ آخرين متنوّعي الأعمار ونام من دون أحلام.

في اليوم بعد التالي، افترق هؤلاء الناس وهم يتعانقون ويجهشون بكاءً، حتّى ليعتقد المرء أنّهم لن يروا بعضهم بعضاً بعد ذلك الوداع. بكت أميناتا كثيراً في القطار.

سألها قاسم، مجروحاً إلى حدٍّ ما: «لماذا تبكين؟».

- أفتقدهم. أفتقدهم بشدّة.

- وأنا، ألا أكفيكِ؟

وصلا إلى ليل في الثامنة وثلاث دقائق واستقلّا الحافلة الذاهبة إلى سوسي لما يقارب الساعة عبر مشهدٍ طبيعيٍّ واسعٍ وموحش. بدت الأشجار المتساقطة الأوراق أشبه بخشب الصلبان أو برسومٍ بقلم الفحم. انتبه قاسم إلى أنّ ذاكرته لا تنصف المنطقة. فلأنّ طفولته فيها كانت مملّةً وخانقة، رفض أن يرى فيها الجمال، على وفرته. صحيحٌ أنّ الطبيعة لا توجد إلّا بتصوّرنا لها.

في حدود الساعة التاسعة، توقّفت الحافلة أخيراً في المحطة. شعر قاسم فجأةً برعبٍ يشلّ حركته، وبأنّه عاجزٌ عن مواجهة أهله. ولتأجيل الموعد المرتقب، اصطحب أميناتا لاحتساء القهوة في مقهى «لافلام دونور» الذي لطالما تسلّل إليه ليلعب الفليبر، مخاطراً بأن يغضب منه صاحب المحلّ الذي لم يكن يتحمّل الأطفال. دُهش قاسم عندما لم يتعرّف عليه صاحب المحلّ، حتّى عندما تلفّظ باسمه.

- قاسم؟

- أحد صبيان كيليرمان.

- غير ممكن! أيّهم أنت؟ ذلك الرجل كانت لديه تشكيلة!

تمتلك سوسي القباحة غير العدائية التي تتّسم بها التجمّعات التي نشأت وتطوّرت كيفما اتّفق، من دون هدفٍ بدئي، في جوٍّ عامٍّ من اللامبالاة. الاستثناء الوحيد هو كنيستها التي تعود للقرن الخامس عشر والواقعة على طريقٍ قديم للحجّ. أخذ قاسم ينظر إلى الشارع الكبير المعبّد الذي لطالما عبره متباهياً على الدرّاجة الهوائية التي أُهديت إليه في عيد

الميلاد، وإلى متاجر الباعة التي كانت العائلة تستدين منها دائماً، ومخازن الملابس الجاهزة النادرة، والمدرسة الابتدائية بباحتها الضئيلة الحجم وذات الأرضية المفروشة بالخرسانة، وثانوية بول إيلوار التي باتت الآن تحتاج إلى الطلاء. وفي كلّ خطوة، يلتقي الطفلَ التعيس الذي كان ويعتقد أنّه يفهم ما أصبح عليه. قرّر أخيراً أن يسلك طريق البيت الذي وُلد فيه. أمام «التخشيبة» التي وُضعت أمامها لوحة «للبيع» -لكنّ المرء يخمّن أنّها لا تجتذب أحداً- تقف سيّارةٌ من طراز ألفا روميو. لطالما استهوت السيّارات الاستثنائية كيليرمان: مازيراتي، فورد ثندربيرد، لانسيا. كان يشتريها بسعرٍ بخسٍ ويُصلحها ويُعِدّها ويغسلها ويصقلها ويزيّنها. بمجرّد ولوجه المدخل الذي لم ينسَ لوحاته - لوحة «امرأتان من تاهيتي» لغوغان، ولوحات «عبّاد الشمس» لفان غوخ، ولوحة لم يتوقّعها، نسخة عن رأس ديميتر(*)، وحده الله يعرف كيف وصلت إلى هنا، تصاعد انفعالٌ غمر قلب قاسم ولم يتوقّع عنفه. لكنّه فهم في المقابل أنّ ذائقة كيليرمان الموسيقية أصبحت أكثر حداثةً. إذ كانت فرقة كاريمي التاهيتية تشدو بقوّة.

ما الذي كان يتوقّعه؟ لم يعرفه أهله أكثر ممّا عرفه أصحاب مقهى «لافلام دونور». بدا كأنّ سؤالاً يرتجف على شفتي كيليرمان: «قاسم؟ أيّهم أنت؟».

للمفارقة، رغب في تذكيره بذلك التفضيل الذي لطالما آلمه في الماضي والذي أخذ فجأةً يتباهى به.

كانت ذاكرته قد حفظت صورة زوجين غير منسجمين: كيليرمان ذو الشاربين الرائعين ينفخ صدره، مغوٍ، في زيّ موزّع البريد الخاصّ

(*) Déméter: إلهة الطبيعة والنبات والزراعة عند الإغريق.

به؛ ودراستا، أشبه بفأرةٍ صامتةٍ في ملابسها الرمادية، بين ذراعيها طفل، وأطفالٌ آخرون يتمسّكون بذيل ثوبها. لقد أثّر فيهما كليهما التقدّمُ في العمر، كسرهما وصقلهما وجعل شعرهما أشيب. غير أنّ الأدوار لم تنقلب. فهو لا يزال يثرثر دونما توقّف. يتحدّث عن كلّ شيءٍ وعن لا شيء. عن حادث طائرةٍ في أدغال كولومبيا. عن القنابل في قطار الأنفاق في لندن. عن الحرب في العراق. عن الأعاصير في خليج المكسيك، تلك الأعاصير التي يتكلّم عنها بأسمائها، كاترينا مثل ابنتي، ويضحك، ريتا، ويلما. لديه رأيٌ لا يُدحض حول كلّ شيءٍ ولا يتردّد في تقديمه.

أمّا هي، فلا تقول شيئاً. شعر قاسم بالعذاب. أيمكن أن تكون قد نسيت فنّ الكلام بسبب صمتها طيلة تلك السنوات؟ وبسبب عدم استخدامها شفتيها، أخذ يسائل عينيها بشغف، لكنّه لم يعثر فيهما على أيّ تعبير. وجدهما فارغتين. حزينتين. نظرتهما ثابتةٌ نوعاً ما.

لم يأبه كيليرمان أو دراستا كثيراً بأميناتا وبالهدايا التقليدية التي اعتقدت أنّها ملزمةٌ بإحضارها. بدت تلك الهدايا متنافرةً بصورةٍ غريبةٍ بين أيديهما: سجادةٌ من كوروغو؛ ثوبٌ مصبوغٌ أزرق من النوعية التي يقال عنها إنّها مترفة؛ شايٌ أخضر، ثمار كولا. كما أنّهما لم يأبها كثيراً بقاسم، كما لو أنّ هذا الغريب ينبثق من ماضٍ مضى وانقضى.

سأل قاسم عندما تمكّن من التكلّم: «إذاً سوف تستقرّان في غوادلوب؟».

أجاب كيليرمان من دون مرارة، بنبرة إدراك الأمر الواقع: «على الأقلّ، هذا حلمٌ يتحقّق! كنت أتمنّى أن أعود إليها قبلاً، إذ لم يعد لديّ فيها حالياً أقارب».

سأل قاسم باستغراب: «لا أحد؟!».

فقال كيليرمان مُسلّماً بالقدَر: «لا أحد! جميعهم ماتوا. لكن لديّ شقيقتان لا تزالان على قيد الحياة، التحقتا بأبنائهما في فرنسا. يبقى لي البلد، لحسن الحظّ».

فكّر قاسم، وقد أشفق على نفسه مرّةً أخرى: الحقيقة أنّني أنا لم أمتلك بلداً في أيّ يوم! قالت لي إيبوني ستار ذات يومٍ إنّ الإنسان الأكثر فقراً لديه بلد. لكنّها جانبت الصواب. البلد هو الأساس الأكثر فقداناً في العصر الذي نعيشه.

قرابة منتصف النهار، وصلت كاترينا وكوميتا، وعلى ذراعَيْ كلٍّ منهما طفلٌ مطابقٌ لطفل الأخرى. هل لا تزالان على عادتهما في تشاطر كلّ شيء؟ هل أخصبهما الرجل عينه؟ بدت بقايا جمالٍ متشبّثةً حول عينيهما العسليتين. تفحّصتا أخاهما من أخمص رأسه إلى قدميه؛ كان بوسع قاسم تخمين أفكارهما.

الحجر المتدحرج لا تتجمّع عليه الطحالب(*)، وهذا يفقأ الأعين. أهذا كلّ ما يجلبه لنا ذاك الذي ذهب إلى آخر العالم، خطيبةً بلونٍ أسود كسواد قاع مدفأة حطب؟

انتقلوا إلى صالة الطعام لتناول غداءٍ حضّره كيليرمان كعادته وفصّل مكوّناته للحضور.

قال بصوتٍ مرتفع: «حالياً، يباع سمك الهامور والواهو عند باعة السمك جميعاً. ويباع موز الجنة والبطاطا الحلوة عند العرب. إنّها القرية الكونية!».

لأوّل مرّة، تساءل قاسم عمّا إذا كان أصبح طاهياً بسبب والده، من دون

(*) معنى المثل: لا يغتني المرء إذا ما واصل تغيير مهنته أو البلد الذي يعيش فيه.

أن يُدرِكَ ذلك. لكثرة ما سمعه يتحدّث عن الطعام مثلما يتحدّث آخرون عن الأدب. كانت كاترينا وكوميتا تقطّعان اللحم لأمّهما وتسكبان الشراب في كأسها، فانتهى به الأمر لفهم أنّها تتعافى من مرض.

– ممَّ عانت؟

– من جلطة.

ثمّ أكّدتا بجفاء، كما لو أنّهما تريدان إفهامه أنّ أوان تعاطفه قد فات: «لقد تعافت منها على نحوٍ ممتاز».

لماذا احتقرته شقيقتاه على الدوام؟ مثلهما مثل «عصابة الأربعة» التي كانتا تتفقان معها تماماً. فمثلاً، كانتا تلتحقان بهم في قميص النوم للاندماج في تلك الألاعيب المريبة التي كان يتحرّق للاشتراك فيها، بائساً ومنسياً في زاويته.

أثناء تناول الحلوى، وبما أنّ كيليرمان انتهى من سرد تفاصيل وصفاته من دون أن يستمع إليه أحد، تجرّأ قاسم على السؤال: «ماذا عن الآخرين؟ الصبيان؟».

لم يتأخّر الجواب، إذ قالت كاترينا (أم أنّ كوميتا هي التي تكلّمت؟) بلامبالاة: «ما من خبر. في السجن في مكانٍ ما. صدّقني! الأمر أفضل على هذا النحو».

قال كيليرمان: «لقد توقّفتُ عن شراء الصحف خوفاً من أن أرى في عنوان إحداها الرئيسي اسم أحد أبنائي مقروناً بقضيةٍ قذرة. لكنّ الأمر لم ينفع. فقد قرأت وأنا عند طبيب الأسنان في الصفحة الأولى من صحيفة لوفيغارو أنّ الشرطة تبحث عن كلودومير».

تساءل قاسم ما إن كان عليه أن يضحك للدعابة، إذ شعر بأنّه على

وشك البكاء. جزع عندما سأله كيليرمان ما إن كان ينوي الذهاب إلى الكنيسة لإلقاء التحية على المبجّل هوفير. المبجّل هوفير هو القسّ المغرم بموسيقا فيفالدي ويقود الجوقة، وهو الذي لعب دوراً في إنقاذه أثناء سجنه في سامسارا. لم يشأ أبداً الحديث عن ذلك، خشية أن يُظهِر أمام أميناتا الألفة التي تجمعه بقسٍّ كاثوليكي.

بعد الانتهاء من احتساء القهوة، قهوة بلو ماونتن من جامايكا وتُباع في تعاونية سوسي، كما شرح كيليرمان، نهضت كاترينا وكوميتا معاً. بدا أنّهما تستعجلان العودة إلى بيتهما في ليل، أنّهما تنظران إلى هذه الاجتماعات العائلية بوصفها عبئاً. وفي الوقت عينه، أخذتا تسلّطان على قاسم نظراتٍ مفعمة بالرضا عن الذات. آه! الاهتمام بالوالدين الهرِمين ليس مهمّةً سهلة. هما معجونتان من عجينةٍ أخرى تختلف عن عجينة الإخوة الذكور، وليس هنالك ما تلومان نفسيهما عليه. فهما لم تهملا الوالدين قطّ، وكانتا تتناولان الديك الرومي في عيد الميلاد معهما وتغنّيان «Happy Birthday» في أعياد الميلاد.

أثناء عدّ نقاط دواء الأمّ، أعلنتا أنّهما لن تأتيا طيلة الأسبوع: ستذهبان لقضاء بضعة أيّامٍ في جربة، بتونس. لحظة رحيلهما، اجتذبتا قاسماً إلى زاوية من الحجرة وأوصتاه: «لا تتعبهما. إنّهما يحتاجان إلى فتراتٍ طويلةٍ من القيلولة».

أطاع قاسم، فاستقلّ الحافلة إلى ليل مع أميناتا، إذ إنّ إمكاناته المتواضعة لم تسمح له باستئجار سيارة. لكنّ الجوّ كان بارداً في فترة ما بعد الظهر تلك، فضلاً عن الرياح. لم تولِ أميناتا، وقد شعرت بالتجمّد، اهتماماً بالحجارة القديمة أو بالكاتدرائية أو بالمبنى المخصّص للتعميد أو

بمركز البلدية. فقد وجدت ميناء سلامٍ وحيداً: مكتبة «آليتوال دونور» حيث تأمّلت بولهٍ القسم المخصّص للشعر. عثرت فيه على محبوبها نيرودا، بل واستطاعت أن تقرأ في النص:

Dadme el silencio, el agua, la esperanza.
Dadme la lucha, el hierro, los volcanes.
Apegadme los cuerpos como imanes.
Acudid a mis venas y a mi boca.
Hablad por mis palabras y mi sangre.

شعر قاسم بالعار من جهله، إذ إنّه لم يكن يعرف من الكتّاب سوى بعض كتابات رامبو وبودلير، فتظاهر بتصفّح مجموعةٍ شعريةٍ لسان جون بيرس(*) ولم يفهم منها إلّا القليل. أيمكن أن يكون غوادلوبياً من يعبّر على النحو التالي؟

الصيف الأوسع من الإمبراطورية يعلّق على موائد الفضاء عدّة طوابق من المناخات. الأرض الشاسعة فوق مجالها تحتلّ كلّ حوافّ نسمتها الشاحبة تحت الرماد. - لون الكبريت والعسل، لون الأشياء الخالدة، كلّ الأرض المعشوشبة تشتعل بقشّ الشتاء الآخر - ومن إسفنجةٍ خضراء لشجرةٍ واحدةٍ تستقي السماء عصارتها الليلكية.

تناولا حلوى باري بريست وفنجاناً من الشوكولا الساخنة في الكافتريا.

لدى عودتهما إلى سوسي، لم يريا مجدّداً كيليرمان ودراستا، والأرجح أنّهما كانا نائمين. تعشّيا إذاً منفردَين، متناولَين بقايا الغداء، وخلدا إلى النوم. ما الذي يمكنهما فعله غير ذلك ما دام التلفزيون معطّلاً؟

(*) Saint-John Perse (1887-1975): شاعرٌ وكاتبٌ ودبلوماسيٌّ فرنسي وُلد في غوادلوب، حصل على جائزة نوبل للآداب في عام 1960.

لم يخطر في باله يوماً أن يعود إلى «التخشيبة» ويمارس الحبّ على فراش غرفة طفولته. حجرةٌ طويلةٌ ضعيفة الإنارة. مناضد صغيرةٌ تجاور أسرّةً ضيّقةً لشخصٍ واحد، تغطّيها بطّانيّاتٌ اسكوتلندية. وعلى الجدران ملصقاتٌ متنوّعة. أحدها يمثّل سانتانا الذي كرّسه كيليرمان جونيور «أميراً للموسيقا». على المكتب يتجاور حاسبٌ قديم الطراز مع قارئ أسطواناتٍ كهربائيٍّ قديمٍ بالقدر عينه، مع بعض الأسطوانات. في الماضي، كان ملصقٌ منقولٌ عن لوحة العذراء والطفل يبتسم في إطاره. لكنّه اختفى، وبات المرء يرى في مكانه مربّعاً من ورق الجدران أكثر شحوباً. لقد كبر بين هذه الجدران! وضع رأسه المحشوّ بالأحلام على هذه الوسادة! ما الذي كان يرغب فيه آنذاك؟

الرحيل. الرحيل بكلّ بساطة.

التشبّث بطرفٍ من أطراف العالم، لا يشعر فيه بالخجل. من أهله. من أشقائه وشقيقتيه. من بيته. من سيّارة أبيه. من معطف أمّه. من لونه بصورةٍ خاصّة.

يبدو أنّ هذا الديكور أصاب أميناتا بالاكتئاب بالقدر عينه. إذ خسرت فيه إبداعها الغرامي الجميل، فكانت المجامعة كئيبةً نوعاً ما، على عكس العادة.

صباح اليوم التالي، لحظة الوداع، انتحبت دراستا وانهارت على صدر قاسم. وبّخها كيليرمان بشيءٍ من الفظاظة كعادته، وهو أمرٌ لطالما أثار حنق قاسم في كلّ مرّة. الحقّ يقال إنّ كيليرمان لم يكن يعامل زوجته بحنانٍ أكثر ممّا يعامل أولاده. فهي أيضاً قاصرةٌ يجب إبقاؤها على الطريق القويم، طوعاً أو كرهاً.

اضطرب قاسم، وهو الذي لم يكن يعلم أنّه لن يرى أمّه ثانيةً، وحمل في قطار كوراي صورة وجهها المبلّل بالدموع.

فوجئ بأنّ كيليرمان وجّه إليه رسالةً طويلة، فور وصوله إلى غوادلوب. لم يرسل له رسالةً إلكترونيةً أو إحدى تلك الرسائل الهاتفية القصيرة التي حلّت محلّ المراسلة الحقيقية. لا، بل أرسل إليه خمس أو ستّ وريقاتٍ سوّدها بخطّه المتميّز بوصفه ساعي بريد. أدرج فيها تفاصيل كثيرة. ففي آخر لحظة، توصّلا إلى بيع «التخشيبة»، ما سمح لهما بشراء جناحٍ فائق الحداثة في تجمّعٍ سكنيٍّ في مدينةٍ مزدحمةٍ بالسكّان، اسمها باي ماؤو، كانت مجرّد قريةٍ عندما غادر غوادلوب. لديهما برحابةٍ مساحةٌ كافيةٌ لإيواء البنات وإيوائه هو وخطيبته إن أرادا ذلك. لم يملّ من مديح البلد. آهٍ كم تقدّم! لم تعد لابوانت أكداسَ الأكواخ التي عرفها في صباه. فقد أصبحت فيها طرقٌ وطرقٌ سريعةٌ بأربع حارات، وتقاطعاتٌ وساحات. بات بالإمكان استقبال البثّ التلفزيوني عن طريق الأقمار الصناعية، في حين أنّ الجزيرة تستطيع التباهي بأكبر مركزٍ تجاريٍّ في منطقة الكاريبي، باستثناء بورتوريكو.

كم سيكونان سعيدين في أيّام شيخوختهما!

.3

لم يردّ قاسم على تلك الرسالة، إهمالاً منه، أو لأنّه لم يكن يستطيع أن يكتب شيئاً يعكس التفاؤل عينه. لكن يا ليته فعل!

فبعد نحوٍ من شهرٍ أو شهرين، اتّصلت به إحدى شقيقتيه في الصباح الباكر وقد بدّل الغضب صوتها بحيث لم يعرفه: «هل وصلكَ الخبر؟ لقد رحلت!».

سأل قاسم: «عمّن تتكلّمين؟».

- عنها. عن دراستا. عادت إلى رومانيا. التحقت بأختها في باريس وعادتا إلى بلدهما.

همس قاسم وقد هدّه الخبر: «هل تريد الطلاق؟».

- لا أعلم ما تريده. لقد تركت بابا المسكين من دون كلمة تفسيرٍ واحدة.

لو أُخبر بموت أمّه لكان ألمه أقلّ حدّةً. بدا له الأمر وكأنّ كلّ تلك السنوات التي عاشتها في سوسي، زواجها، كيليرمان، أبناءها السبعة، لا تعني لها شيئاً. لم تكن أكثر من فاصلٍ انتهى. استعادت أخيراً حرّيتها. في

كربه، باتت الشمس تشرق عليه وتغيب من دون أن يلاحظ ذلك، ونهاراته تشبه لياليه. كان يمضي لاهثاً، مرتجفاً، مرتعشاً وكأنّه مصابٌ بالملاريا. أخذ يتذكّر مراحل رئيسيةً في طفولته، أوقاتاً من الماضي تنهال مطوّلاً عليه، كأنّها أنقاضٌ للزمن، فتتركه نازفاً ومتألّماً.

يتذكّر دموع دراستا أثناء زيارته فيشعر بالسخط والتمزّق والمرارة. منافقة! هل كانت تجهّز خطّتها في رأسها منذ ذلك الحين؟ هل النساء، النساء جميعاً، أكثرهنّ خنوعاً في الظاهر، أكثرهنّ حبّاً، مجرّد مخادعات؟ أحياناً، تحلّ محلّ غضبه شفقةٌ هائلة، فيرثي لحالها. يقول في نفسه إنّها أمضت شبابها كأجنبيةٍ في سوسي، ولم تستطع أن تخوض مجدّداً التجربة عينها في غوادلوب بينما هي على أعتاب الشيخوخة. لقد عادت إلى أرضها هي. أجل، الأرض أهمّ من أيّ شيء.

وذلك كلّه أخذ يعزّز رغبته في التجذّر بتأسيس عائلةٍ مع أميناتا. ستكون هي أرضه وستنتقم له من تلك الإحباطات كلّها. وعلى هذا، فتح معها الموضوع مجدّداً عصر أحد الأيّام. كانا قد انتهيا لتوّهما من ممارسة الحبّ في زاويةٍ تُخزَّن فيها أكياس الأرز ويوضع الأطفال الصغار للقيلولة، وينزوي حكيمٌ مع قرآنه. لم يعد يحلم سوى بالانعزال معها.

– لقد رأيتِ عائلتي منذ بضعة أشهر. ما رأيك بها؟

شعرت بالحرج، ففتحت فمها ثمّ أغلقته وفتحته مجدّداً: «لست أريد إيلامك، ولا سيّما في مثل هذه الظروف. لكنّها لم تؤثّر بي كما تؤثّر عائلة!».

ثمّ أضافت بصوتٍ خفيض: «الدليل هو ما يحدث اليوم!».

على الرغم من أنّ هذه الملاحظة الأخيرة امتزجت بكمٍّ كبيرٍ من

الحنان، إلّا أنّها فطرت قلب قاسم المتألّم أصلاً. أدركت أميناتا أثر كلماتها، فأنعمت عليه بقبلةٍ سريعةٍ على جبهته واستأنفت دفعةً واحدة: «ليس لهذا أيّ أهمّية. تحدّث إلى أبي. غداً يوم عطلته. هو لا يغادر المنزل، وسأُعْلمه بزيارتك».

لأوّل مرّةٍ منذ زمنٍ طويل، استعاد المساء عذوبته. ولحينٍ من الوقت، توقّف قاسم عن تعذيب نفسه بصدد دراستا، وعن مساءلة طيفها، وعن تخيّلها في مزرعتها في رومانيا تكابد مع دواجنها.

سارع وقلبه يرقص فرحاً ليبلّغ الخبرَ السعيد لعثمان الذي كان يحاول هذه المرّة بيع حقائب يدٍ من ماركة «فويتون» مزوّرة.

صاح وهو يكاد يطير فرحاً: «لقد وافقت على الزواج بي!».

كان يشعر بنشوة رياضيٍّ نجح في إحراز إنجاز. لكنّه فوجئ بتجهّم عثمان: «فكّر جيّداً قبل أن تلتزم. يقول القدماء إنّ الزواج سيركٌ روسي. من يجلسون في الصفّ الأوّل يعلمون تماماً أنّه لا يوجد شيءٌ ليتفرّج المرء عليه».

على الرغم من ذلك، قرّر أن يصطحب قاسماً للاحتفال بالحدث في «برازيرو»(*)، وهو مشربٌ لافح، مثلما يشير إلى ذلك اسمه. وسط صُداح موسيقا النجم الكبير، يصطدم المرء بالفسيفساء المعتادة المكوّنة من أشخاصٍ مقتلَعين من جذورهم، لا شيء يعزّيهم عمّا خسروه في المنفى: احترام الذات، الشعور بالانتماء إلى مجموعةٍ محترمةٍ وحيويّة، وليس التسكّع بأيدٍ خاويةٍ على سطح الأرض. «*Disposible people*»، يقول علماء الاجتماع بالإنكليزية، «أشخاصٌ يمكن الاستغناء عنهم»

(*) Brasero أي المجمرة.

يُوزَّعون حسب الحاجات، ويُستخدَمون، ويُلفَظون. لكن على الرغم من المنفى ومن ضروب الحرمان، لم يكن الجوّ السائد في «برازيرو» حزيناً. فالفتيات الفاتنات يعرضن الجنس بأثمانٍ بخسةٍ إلى درجة أنّ الجميع يستطيعون دفعها. كيف ستكون حياة الأشخاص الأكثر فقراً من دون هذه المتعة؟

جلس قاسم مقابل جوزيف، وهو سودانيٌّ موفور العافية لكنّه حزينٌ كالمطر. ذات يوم، حكى له قاسم عن رامبو، لكن كان واضحاً أنّه لم يسمع بهذا الاسم قبلاً. رفع جوزيف كأسه وقال بصوته الأجشّ: «أنت ستتزوّج، حسب ما علمتُ؟ حذار! تذكّر ما يقوله القدماء: "المرأة حقيبةٌ يمكن أن يخرج منها أيّ شيء"».

ماذا دهاهم جميعاً كي يتقصّدوا تنغيص سعادته؟

أكّد قاسم بثقة: «لن يخرج من تلك الفتاة إلّا الأفضل!».

ضحك السوداني.

– اسمع قصّتي قبل أن تمضي قدُماً. كان اسمها أموروكو، وهو يعني في لغتنا «الليلة الصغيرة». تسكن في الملكية المجاورة لتلك التي أسكنها. ضريرة. تجرجر نفسها كلّ يوم، وقد نسيها أهلها، في الباحة بين المذاري والمطارق وغبار الدخُن. عشقتها. كنت أصحبها لتتنزّه، لتسبح، أُحضِر لها الطعام (كنت الوحيد الذي يفكّر في ذلك، ولولاي لماتت جوعاً)، سجّلتها في مدرسة الراهبات الخاصّة كي تتعلّم القراءة بلغة برايل. لم يوافق أبي على هذا الزواج. كان يكرّر: «ستكون عبداً لها إذا تزوّجتها، في حين أنّ المرأة هي التي يجب أن تكون أمَةً للرجل». لكنّني صمدت. عشية الزفاف، جذبني أحد إخوتها إلى ركنٍ وقال: «اسمعني يا جوزيف، أموروكو ليست

كما تظنّها». لم أشأ أن أسمع المزيد فارتميت عليه وأشبعته ضرباً. بُعيد ليلة العرس، انتقلت مع زوجتي إلى تجمّع عبد الكريم بيلاي السكني، إلى واحدةٍ من الدارات التي بنتها السلطة لرجالاتها. دارة لا ينقصها شيء، لا الغاز ولا الكهرباء ولا الماء الجاري. آنذاك، كنت أعمل في وزارة الاستثمار الإنساني، أي إنّني كنت أذهب إلى أبعد المناطق لتشجيع الفلّاحين على تطبيق التعليمات الثورية. وبسبب ذلك، أتغيّب نهاراتٍ كاملة. ذات يوم، عدتُ إلى الخرطوم في وقتٍ أبكر من المعتاد. عصراً. وجدتُ سطيحة بيتنا مزدحمةً بالناس. رجالٌ ينتظرون، سود، عرب، عناصر ميليشيات، جنود، بحّارة. كان لقبها «لذائذ الشرق»، وتُعَدّ أشهر عاهرةٍ في بلدنا، على غناه بالعاهرات. أجل، تلك هي من تزوّجتها.

قال قوله ذاك وانهار على الطاولة منتحباً.

كي لا يستمع قاسم إلى ذلك البائس وقتاً أطول، نهض وخرج. في الخارج، كان هواء الليل قويّاً. سمع صوت صفير باخرةٍ تذهب إلى مدينةٍ مجهولة. جَهِد كي يكون متفائلاً، كي ينسى تلك الإحباطات كلّها: دراستا، حفصة، إيبوني ستار. لقد جعلته النساء مرتاباً حقّاً. لكنّه كان مؤمناً بحبيبته أميناتا. ستكون الصخرة التي سيبني عليها مصيره.

لم يكن ثمة أيّ ضوءٍ في نوافذ قصر غريزي، وهذا يعني أنّ رمزي لم يعُد بعْد. أين هو؟ الأرجح أنّه يتناول العشاء في الخارج أو يحضر عرضاً أو حفل استقبالٍ اجتماعياً. لم يسبق أن حكى قاسم لرمزي عن أميناتا، وذلك لأسبابٍ عديدة. وأقلّ هذه الأسباب قابليةً للاعتراف به هو خشيته من تهكّماته. إذ كيف سيقيّم ابنة عاملٍ مهاجر متواضعةٍ وهو المغرم بالفخامة والتباهي؟ ما الذي سيقوله عن مشاريع صديقه؟ الزواج والاستقرار مع

أميناتا يعنيان الانفصال عن رمزي. هل سيكون قادراً على ذلك؟ فضّل قاسم طرد هذه الأفكار من ذهنه.

في اليوم التالي، بذل جهداً ليكون متفائلاً. أليس خاطباً جديراً بالاحترام؟ ما الذي يمكن أن يُعاب عليه؟ صعد أدراج مجمّع بومارشيه السكني قفزاً. بابكر، والد أميناتا، رجلٌ طويلٌ ونحيلٌ -كأنّما ترك البدانة لنساء العائلة- يبدو طيّباً، وقد استيقظ لتوّه. كانت زوجته تملأ بالماء الساخن حوض استحمامٍ قديماً مصنوعاً من التوتياء واضطرّ قاسم للانتظار قرابة ثلاث ساعاتٍ كي يغتسل بابكر ويحلق لحيته ويرتدي ملابسه ويأكل. يؤدّي هذا الرجل المُنهَك ثلاثة أعمالٍ في آنٍ معاً كي يطعم أقاربه الكثُر، وهو يؤمن ببضعة مبادئ بسيطة يحلو له عرضها على من يتحدّث إليهم:

1. البطالة أمّ الشرور كلّها.
2. التعليم يفتح الأبواب كلّها.
3. المرأة مستقبل الرجل.

قد يتفاجأ المرء من المبدأ الثالث إذ يصدر عن رجلٍ نال من التعليم ما ناله. لكنّه، وهو الأب لستّ بناتٍ ولم يُنعِم الله عليه بأبناء، قبِل بقسمته. استمع لقاسم بحسن نيّةٍ مشوبٍ بالشرود. وفي نهاية حديثه، فرض شرطاً. أن تجتاز أميناتا امتحان الشهادة الثانوية أوّلاً. وبعد ذلك، سينظر في موضوع الزواج.

شعر قاسم بأنّ الإلحاح لن يجدي. لم يخطر في باله سوى حلٍّ واحد: يجب عليه مساعدة أميناتا في بلوغ الهدف الذي حدّده والدها. وجد نفسه مرغماً على مساعدتها في مراجعة الرياضيات، على الرغم من أنّه لطالما كره تلك المادّة، وعلى أن يشتري لها أكداساً من الأسئلة

المصحّحة. يحاول معها كلّ يومٍ توضيح المسائل غير القابلة للحلّ في الجبر والهندسة. ومع اقتراب موعد الامتحانات المصيري، باتت الحياة محمومةً أكثر. أصبح حديثهما يقتصر على النظريّات والمعادلات. لم تعد أميناتا تفكّر إلّا بتربيع الوتر، فنسيَت الشِّعر والحبّ. تضع قلم رصاصٍ بين أسنانها، في حين يتآكل قاسم المسكين رغبةً ويحاول الصبر على ألمه، وتستخدم المثلّث القائم والفرجار بالتناوب. أخيراً، أتى يوم الامتحان. ثمّ يوم النتيجة، المخيف بقدر ما هو يوم الدينونة. غادرت فرقةٌ من المشجّعين مجمّع بومارشيه السكني وسارعت إلى الثانوية التي ستُعلَن فيها بالأحرف الكبيرة والحبر الأحمر أسماء الناجحين المحظوظين.

كارثة! لم يكن اسم أميناتا موجوداً في أيّ مكان. لقد رسبت ثانية!

شارك قاسم في الموكب الذي أتى بالخبر السيّئ إلى البيت. أجهشت أميناتا بالبكاء بين ذراعي أمّها التي أخذت تنشج وتقول بصوتٍ مسموع قويٍّ إنّ الله عديم الرحمة. كان بوسع من يسمعهنّ الاعتقاد أنّ كارثةً طبيعيةً أصابت مرسيليا في عصرنا هذا، عصر احترار الكوكب، أي عصر التسونامي والهزّات الأرضية المدمّرة والأعاصير من الفئة الخامسة. ودارت العبارات المفزعة عينها على الشفاه كلّها:

– ما الذي سيقوله بابكر؟

– كيف سنبلّغه الخبر؟

– سيغضب بشدّة!

لم يشعر قاسم بالأسف الذي تشاطره الآخرون. بل على العكس. فهذا الفشل، الثالث، بدا له هديّةً من القَدَر، يمكن أن تفيد في تسريع مشاريعه: الرأس المليء أفضل من الرأس الجميل، فليكن! لكن ينبغي أن يقنع المرء

بما لديه. أميناتا غير موهوبةٍ في مجال الدراسة. لذا يجب فتح الذراعين لمن يريد الزواج بها. هل سيواصلان العيش، هي في مجمّع بومارشيه السكني وهو في قصر غريزي، ويختبئان ليمارسا الحبّ وليسرقا من الوجود لحظاتٍ من السعادة؟

شعر بأنّه قادرٌ على جعل بابكر المُرعب يتعقّل.

غير أنّه في اليوم التالي لم يتحدّث كثيراً عندما واجهه، إذ شلّه الاستحياء. كان بابكر يتناول طعام الغداء مع أعمامٍ وأبناء عمومة. رجالٌ فحسب، يرتدون كندوراتهم الواسعة المصنوعة من المصبوغ(*)، وبوابيج بلون الزبدة الطازجة. هكذا تُعالَج الشؤون الجدّية. بعيداً عن انفعالية النساء وخياراتهنّ غير المتعقّلة. اضطرّ قاسم لانتظار انتهائهم من تناول الطعام وارتشاف الشاي الأخضر، ثمّ تقاسم جوز الكولا. استمع إليه بابكر بالقدر عينه من حسن النيّة التي يشوبها الشرود. وعندما صمت، ضمّ يديه معاً:

- انظر إليّ! أمعِن النظر بحالي! في الصباح، أركضُ إلى سوق الهال لمساعدة «ربّة العمل» في الحصول على منتجاتٍ طازجة وأرخص ثمناً. طيلة النهار، أعمل في ورشة بناء. ثمّ أشتغل حارساً ليلياً في ورشةٍ أخرى مع كلابٍ ليست لديها سوى رغبةٍ واحدة: التهامي. أحدها أمسك بي وكاد يأخذ ذراعي. وهل تعلم لماذا أفعل هذا كلّه؟ لأنّني أكاد لا أعرف القراءة والكتابة، ولا أستطيع العثور على أعمالٍ أخرى. أعمالٍ جيّدة. وهل تعلم لماذا أنا هكذا؟ لأنّ أبي تخلّى عن أمّي بأطفالها الستّة. ذهب إلى فرنسا، ولم

(*) Bazin: ثوبٌ مصنوعٌ من القطن مصبوغٌ يدوياً ليصبح نسيجاً يتميّز بالصلابة واللمعان، معروفٌ في بلدان غرب إفريقيا.

نرَ لون عينيه بعد ذلك أبداً. عندما كنتُ في التاسعة من عمري، اضطررت لترك المدرسة لمساعدة أمّي. أريد ألّا يحدث هذا لأيٍّ من بناتي.

وافق الأعمام وأبناء العمومة بصخبٍ وتوالت تعليقاتهم:

– إنّه يقول الحقيقة. سَلِم فمه!

– أخي الكبير، ما تقوله هنا حسن!

– استمع إليه جيّداً، يا أخي الصغير!

قاطع قاسم هذا الحفل من المدائح، وهو يتوقّع أصلاً أنّها تتّسم بالنفاق، وصاح قائلاً: «أنا أحبّ أميناتا! ليست لديّ أيّ نيّةٍ في تركها. بل على العكس، سأكون إلى جانبها طول الحياة».

هزَّ بابكر كتفيه في حين أخذ الأعمام وأبناء العمومة يضحكون بصوتٍ منخفضٍ من هذا الشاب اليافع، الساذج كجميع الشبّان اليافعين.

زعزعه بقوله: «كم عمرك؟ المرء يقول قولك عندما يكون في العشرين. أمّا في الأربعين، فيقول شيئاً آخر. لا! لا زواج قبل الشهادة الثانوية. هذه كلمتي النهائية!».

ثمّ نهض، مشيراً إلى انتهاء المقابلة. قلّده الجميع وتفرّق مجلس الرجال.

نزل قاسم الدرج وهو يفكّر غاضباً: هذا حقّاً تفكير رجلٍ أمّيّ! فالتعليم لم يعد مفتاح النجاح. وأيّ تعليم؟ ما الذي ستفعله أميناتا بشهادةٍ ثانويةٍ تعيسة؟ مكاتب التشغيل ممتلئةٌ بأشخاصٍ يحملون كمّاً كبيراً من الشهادات العليا. نجد فيها أصحاب شهادات دكتوراه في العلوم أو الفلسفة، أتعبتهم البطالة.

عبَر الباحة الجرباء حيث وجد بعض المنتمين إلى «الجيل الثاني»،

ممّن تجهل وجودهم جمعية «اليد الممدودة» على ما يبدو، يلعبون كرة القدم. من غير الواقعي أن يتخيّل تمرّد أميناتا على الإملاءات الأبوية. فقد أظهرت ميلاً مؤسفاً للطاعة. مشى بحزنٍ حتّى قصر غريزي، غير مبالٍ بتنوّع الشوارع الذي يسلّيه عادةً. شيئاً فشيئاً، اتّخذت أفكاره منحىً يزداد سوداويةً. ما الذي ربحه منذ أن هرب من «بورتو فيراي»؟ لم يربح كثيراً من الأمور. اعتقد أنّه وجد السعادة بين ذراعَي أميناتا، لكن تبدّى في نهاية المطاف أنّ ذلك الاعتقاد ليس أكثر من وهم. في «بورتو فيراي»، لم يكن يحبّ «التزيين». وهنا، لا يحبّ «اليد الممدودة».

دخل غرفته وجلس أمام التلفزيون. وجد فيلم شريك 2(*). لا يجد الغول السعادة ورفيقةً من مستواه إلّا في الحكايات الخرافية.

أطفأ التلفزيون بنفاد صبر.

(*) *Shrek 2*: فيلم رسوم متحرّكة.

.4

فجأةً، فُتح الباب ودخل رمزي. رمزي!

مضت عدّة أسابيع على آخر وجبةٍ تناولها الرجلان معاً. فحين يعود قاسم من جمعية «اليد الممدودة»، يكون القصر فارغاً، أمّا رمزي، فيتباهى في أحد الصالونات. في ذلك المساء، بدا مهموماً واستلقى على مقعدٍ وثيرٍ وهو يقول: «الأمور سيّئة!».

عادت إلى قلب قاسم كلّ المودّة التي يحملها لرمزي والتي لم يكن يدركها دائماً، بسبب انغماسه في التفاصيل اليومية الرديئة. شعر بالعار من الأسرار، ممّا خبّأه باستمرار.

قال وهو يمسك يده بحنوّ: «ما الخطب؟».

أجاب رمزي: «لديّ أخبارٌ سيئة أزفّها إليك. لم يعد لديّ مال، ولا حتّى فلسٌ واحد. مُفلس. لقد نجح بيغ بوس في تجميد كلّ ممتلكاتي، كلّ حساباتي خارج البلاد. حتّى المال الذي ورثته عن أبي لم يعد متاحاً لي».

فهتف قاسم: «هل لديه الحقّ في فعل ذلك؟!».

سخر رمزي: «الحقّ؟ الحقّ الدكتاتور هو الحقّ. مثلما هو الثورة. الأمّة. البداية والنهاية».

– وماذا ستفعل؟

سخر رمزي: «مثلك: سأبحث عن عملٍ "جديرٍ بالاحترام"».

لم يتنبه قاسم للسخرية. واصل رمزي، بنبرةٍ قدَرية: «أنا طبيب، علينا ألّا ننسى ذلك. درستُ في ليدز علم الطفيليّات على يد الأستاذ العظيم ليفيس ليفيسهام. عزلنا فيروسات أمراضٍ عديدة، وكنّا على وشك العثور على لقاحٍ ضد الإيدز. وفي سامسارا، اكتشفت في مخبري، في الأزهار والنباتات وأوراق الأشجار الأكثر شيوعاً، كائناتٍ دقيقة تؤدّي إلى إنتاناتٍ رهيبة. سأعود إلى مهنتي».

منذ اليوم التالي، تواصل مع أحد المقاولين. هدم المقاول جدراناً وأزال نوافذ وفتح معابر، أي إنّه باختصارٍ جعل قصر غريزي حديثاً. ثمّ وظّف رمزي عاملتَين، موظّفة استقبالٍ تجيد ثلاث لغات وممرّضة، سمراوين بارزتي المفاتن وجميلتين، لم تكونا ترفعان النظر عن صاحب عملهما الجديد.

لكنّ المسافة بين الكأس والشفتين بعيدةٌ أحياناً(*)، إذ اندلعت حملةٌ عنيفةٌ في عدّة صحف. فبمجرّد أن سمع نقيب الأطبّاء، الطبيب المهيب شازال، بافتتاح عيادة الطبّ الاستوائي على يد هذا الدكتور رمزي النّووي، جاهر بتحفّظاته. من أين أتى هذا المشعوذ؟ شهاداته مريبة! إذ لم يخرج أيّ شخصٍ يُدعى رمزي النّووي من كلّية الطب في ليدز في عام 1998. أمام هذه الضجّة، تذكّر قاسم اتّهامات حفصة، وهي اتّهاماتٌ لم تبرهن عليها قطّ. ما قالته يطابق تقريباً الأقوال الحالية. مرّةً ثانية، ها هو ذا صوتٌ يؤكّد

(*) مثلٌ فرنسي يحذّر من أنّه قد يمضي وقتٌ طويلٌ بين الأمنية وتحقيقها، أو أنّه قد تحدث عوائق عديدة تمنع تحقيق تلك الأمنية.

أنّ رمزي ليس ذاك الذي يبدو للآخرين، وأنّه ربّما لا يكون شخصاً يُنصح بمخالطته.

دافع الآخر عن نفسه بشراسة. اشتكى لقاسم: «إنّهم متبجّحون، عنصريّون. الدكتور شازال لا يتحمّل أن ينضمّ إلى عشيرته أجنبيّ، صاحب دمٍ مختلط، أو كما يقول، خلاسيّ».

لم يكن قاسم يريد سوى أن يصدّقه. تلقّيا كلاهما ضربةً قويةً عندما نشرت الصحيفة اليومية «لومارسييه» في صفحتها الأولى صورةً لرمزي إلى جانب بيغ بوس، الدكتاتور المعروف والمعترف به على صعيد القارّات كلّها. كانت هذه الصورة فضيحةً ليس لدى مثقّفي اليسار فحسب، بل كذلك، وعلى نحوٍ أبسط، لدى الشرفاء الذين يميّزون الخير من الشرّ. رمزي هذا هو إذاً قاتلٌ للشعوب؟ غير أنّ الطعنة وُجّهت بعد بضعة أيّام. فقد نشرت الصحيفة مقالةً كتبها شخصٌ يُدعى كلود سينيكال، نقلت أنّ الدكتور النّووي متورّطٌ في وباءٍ بالغ الخطورة، لم يتوضّح سببه قطّ، أدّى إلى وفاة آلاف الشابّات في «بورتو فيراي»، وسمح له بالإثراء بفضل الكلفة الباهظة للتحنيط الذي أعيدت تسميته بـ«التزيين»، والنّووي هو الذي كان يجريه.

أخذ قاسم يكرّر لنفسه، مضطرباً: إنّه يكذب! وفي الوقت عينه، تذكّر زيارة طلّاب الدكتور فرانكل، غير أنّه سعى إلى إقناع نفسه ببراءة صديقه.

اضطرّ رمزي للخضوع والتخلّي عن مشاريعه. صرف موظّفتيه الساحرتين وسدّد حساب مقاوله. لكن يبدو أنّ الكلمة الأخيرة لم تكن من نصيب الدكتور شازال وكلود سينيكال. فقد توفّيا كلاهما بسبب صمّةٍ رئوية ولم يكن وزن أقوالهما يزيد عن وزن أقوال الموتى. انتقل الانتصار إلى الجانب

الآخر. كان رمزي يخالط عدداً كبيراً من الأشخاص البارزين والمؤثّرين. فقد بلغ عدد معارفه مبلغاً جعله لا يعبر طويلاً صحراء سوء الحظّ. بعد ظهر أحد الأيّام، عاد إلى المنزل مرِحاً وهو يدندن لحناً مبهجاً بصوته ذي الجرس الجميل.

أنت تقولين إنّ الاعترافات الحنونة أثناء الرقص
ليست لها أيّ أهمّية

تبجّح قائلاً: «لقد أُوكل إليّ منصبٌ مهمّ: المفوّض الأعلى للاندماج».

سأل قاسم، الذي لم يكن يفهم شيئاً من تلك الألقاب المدوّية: "مزيّنٌ رسمي"، "مرشدٌ أعلى للثورة"، والآن "مفوّضٌ أعلى للاندماج": «مفوّضٌ أعلى للاندماج؟ وما هي مهامّ هذا المنصب؟».

صدرت عن رمزي حركةٌ مبهمة: «مرسيليا وما يحيط بها، وكذلك فرنسا كلّها، تمتلئ بجالياتٍ يرمق بعضها بعضاً بتحفّزٍ عندما لا ينهش بعضها بعضاً. تتمثّل مهمّتي في أن أسهّل عليها الحياة معاً».

سأل قاسم: «وكيف تنوي التوصّل إلى ذلك؟».

- سنرى. أتعلم؟ أنت تصدّع رأسي بأسئلتك!

ثمّ واصل: «لن أغتني من ذلك العمل، هذا مؤكّد. لكن دعنا نرى ما ستؤول إليه الأمور».

تولّى مهامّه منذ اليوم التالي. صحيحٌ أنّ أحداً لم يكن يعلم بالضبط ما هي تلك المهامّ، لكن لم تكن لذلك أهمّية. احتلّ مكتباً رائعاً في الطابق الأوّل من مبنى إدارة المنطقة، وهو تحفةٌ فنّيةٌ صغيرة. بات يخاطب دونما كلفةٍ رئيس البلدية والمستشارين المحلّيين والبلديّين، ويُدعى للغداء كلّما

أتى أحد الوزراء من العاصمة. لم يعرف قاسم راتبه الشهري. غير أنّه كان مقتنعاً بأنّه ليس بائساً كراتبه، وهو راتبٌ لم تفلح جهوده في زيادته بسبب رفض كلّ طلبات الزيادة التي قدّمها. نظراً لبلبلة الزمن الذي يعيشه رمزي، غادر قصر غريزي ليسكن في فندق «سيغليون»، وهو أكثر تواضعاً بما أنّ تاريخ بنائه لا يعود إلّا لأواخر القرن التاسع عشر. فضلاً عن ذلك، بقيت سمعةٌ سيّئةٌ ملتصقةً به. إذ إنّه كان ملكاً لعائلةٍ من المتعاونين البارزين مع الألمان، أُعدم اثنان منهم بعد التحرير. وعلى الرغم من كونه أقلّ فخامةً من قصر غريزي، غير أنّه حافظ على مظهرٍ حسنٍ وكان يقع في شارع إيستوفيت، في مركز حيٍّ أرستقراطيٍّ قديم. جدران الحجرات الاثنتي عشرة مغطّاةٌ بمشغولاتٍ خشبيةٍ ترك الزمن بصماته عليها، عُلّقت عليها وجوهٌ غامضة. أمّا غرفة قاسم، فقد زيّنها مغامرٌ ذو شاربٍ إسبانيّ الطراز.

المشكلة هي أنّ حياة رمزي تغيّرت تغيّراً كبيراً بسبب نشاطاته الجديدة. فبعد أن كانت حياة متبطّلٍ وبوهيمي، أصبحت منتظمةً بمثل انتظام أوراق تدوين النوطة الموسيقية. ينهض فجراً لأنّه يحتاج إلى ساعاتٍ ليتجهّز ويرتدي ما يجعله المغوي الكامل الأوصاف. قفطانٌ حريريّ، سترةٌ وقلنسوةٌ تتناسبان مع القفطان، بابوجان من الجلد الطريّ. في التاسعة والنصف، توصله سيارته المرسيدس إلى مكتبه، حيث يُمضي نهاره ولا يعود حتّى الساعة السادسة مساءً، وبصحبته سكرتيرته المثقلة بالملفّات. في حدود الثامنة مساءً، يتعشّى وهو محاطٌ بالمعاونين الذين يفتحون بعد ذلك حواسيبهم المحمولة ومسجّلاتهم الرقمية وهواتفهم الخليوية التي تُذكّر قاسماً بزمن التعاون مع حفصة، وينفردون برمزي في أحد المكاتب. وبما أنّ هذا الأخير لم يوظّف طاهياً رئيسياً وطلب من قاسم أداء ذلك

العمل، فكان هذا الأخير يجد نفسه كلّ مساءٍ محتجزاً في المطبخ. يُعِدّ الوجبات ويرتّب أطباق الجبنة ويقدّم القهوة والكونياك من نوع كورفوازييه حتّى أولى ساعات النهار. باختصار، لم يعد لديه كثيرٌ من الحرّية.

صحيحٌ أنّ مجمّع بومارشيه السكني قد أصبح في ذلك الوقت عينه ممنوعاً عملياً عليه. فقد بلغ من غضب بابكر بسبب رسوب ابنته الجديد أنّه سجنها بين جدران الغرفة التي تتشاطرها مع أخواتها وبنات عمومتها، ومنع عنها الزيارات. ولئن كان قاسم ينجح أحياناً في تجاوز هذه التعليمات، فبفضل تواطؤ أحد أبناء عمومة أميناتا الكثُر، مقابل قارئ أفلام أقراصٍ مدمجةٍ أوّلاً، ثمّ أيبود، ثمّ جهاز ألعاب وي. أخذت أميناتا تقابل قاسماً لمدّة ساعة، بين انتهاء عمله في جمعية «اليد الممدودة» ووقت عودته إلى فندق «سيغليون». بات يشعر بأنّه عاد إلى أيّام «بورتو فيراي». كان عمله ينهكه، يستنزفه، ووقاحة الفتيان تتزايد تجاهه. خلا وِفاضُه من المرأة والأصدقاء. لكن أليس الخطأ خطأه؟ لماذا كان دائماً مستاءً من وجوده؟

بات يخاطب نفسه: لقد كرهتُ «التزيينات». ولم أستحسن أبداً مطابخ القصر. وأنا حالياً أكره «اليد الممدودة». ما الذي أنفع فيه؟ ما الذي أحبّه في نهاية المطاف؟ ما الذي أحتاجه؟

لم يكن قاسم يعلم أنّه مثل معظم البشر. يحلم بما لا يمكن الوصول إليه.

انعكس استياؤه الشديد من عمله على مهاراته الجنسية. فهو الذي يكون عادةً شديد النهم ومتطلّباً بات يكاد ينام على ثدي أميناتا. فضلاً عن ذلك، وكي يُنجَز الحبّ كما يجب، فهو يحتاج إلى حدٍّ أدنى من الحميمية، «*privacy*» كما يقول الإنكليز. والحال أنّ ابن عمّ أميناتا كان يقف دائماً

أمام باب الغرفة الصغيرة التي يتصارعان فيها بصمتٍ كامل، من دون كلمةٍ واحدة، من دون شكوى واحدة، من دون تنهيدةٍ واحدة، خوف اجتذاب انتباه الساكنين الآخرين في الشقّة.

التقيا مرّةً واحدةً من دون أن يختبئا. يا لسخرية القدر! حدث ذلك بمناسبة حفلٍ موسيقيٍّ نظّمه رمزي. كان يدشّن هذه المرّة بداية نشاطاته الإبداعية وصالةً متعدّدة الاستخدامات، أُطلقت عليها بعد ثلاثة أشهرٍ من المداولات تسمية قاعة أندريه مالرو(*). يمكن أن يفاجئ هذا الخيار أولئك الذين لا يفكّرون. فهذا الرجل ذو الروح العظيمة، المُحِبّ للفلّاحين الأمّيين الذين يرسمون الشمس المقدّسة في هاييتي، كرّس لهم فصلاً في الأزلي(**). ألم يكن محفزَ «حوار الثقافات» هذا الذي يصدعون رؤوسنا به؟

ضمَّ الحفل الموسيقيّ الذي صمّمه رمزي نحواً من ألف مُشاهِد. كان ينوي إثبات أنّ الموسيقا هي اللغة الوحيدة القادرة على تجاوز الحدود. تمثّلت ذروة الحفل في «محادثة بثلاثة أصوات». فقد ترافق شاعرٌ ومغنٍّ إفريقيٌّ شهيرٌ من السنغال ومغنّيةٌ فرنسيةٌ شهيرة، ورافقتهما أوركسترا ذائعة الصيت، هي أوركسترا القاهرة السيمفونية. كما تضمّن الحفل مغنّي راب أميركيّين من بيتسبورغ. افتتحت الحفل فرقةٌ جديدةٌ أتت من غينيا، تُدعى بيمبيا جاز. وقد بلغ من كثافة الدعاية التي رافقت هذا الحدث غير المسبوق أنّها وجدت صدىً في أبعد التجمّعات السكنية. وهكذا وصلت إلى مسامع بابكر، المنفتح على الرغم من عناده. في هذه المناسبة، رفع

(*) André-Malraux (1901–1976): كاتب ومغامر وسياسي ومثقّف فرنسي.

(**) *L'Intemporel*: هو الجزء الثالث والأخير من ثلاثة مجلّداتٍ كتبها أندريه مالرو وعنوانها الرئيسي: تحوّلات الآلهة (*La Métamorphose des Dieux*).

كلّ المحظورات التي تُثقل كاهل أميناتا. وهو نفسه كان حاضراً وسط مجموعةٍ من الرجال الذين يرتدون كندوراتهم الواسعة ويصحبون زوجاتهم اللواتي يعتمرن مناديل رأسٍ ضخمة. تعرّف على قاسم، فضمّه بحرارةٍ إلى صدره.

قال له بلطف: «نهارك سعيدٌ يا بنيّ!».

ثمّ واصل طريقه بهيئةٍ ملكية. في هذه الأثناء، جنّ قلب قاسم. «يا بنيّ!»، لقد قال «يا بنيّ!». هل هذا يعني أنّه يعدّه عضواً في العائلة؟ ومن يعلم، هل يعدّه صهراً مستقبلياً محتملاً؟

لم يكن المسكين يعلم أنّ كلمات «ابن» و«أخ» و«أخت» هي كلماتٌ فقدت قدْراً كبيراً من قيمتها في إفريقيا.

يمكن القول إنّ ذلك المساء مثّل انتقام رمزي وانتصاره. ذكّر قاسماً بأوقاتٍ عاشاها سابقاً. وعندما صعد رمزي في الساعة التاسعة إلى منصّة الصالة المتعدّدة الاستخدامات، أُحيط شخصه كلّه بهالةٍ لا تقلّ بهاءً عن تلك التي أحاطت به في «بورتو فيراي»، قبل بضع سنوات، عندما ظهر على التلفزيون للتوصية بإجراء «التزيينات». وبالطريقة عينها، استحوذ جماله على الأفئدة كلّها. ألا يتحمّس البشر إذاً إلّا للمظهر؟ أليس لدى قلبٍ ذكيٍّ وحسّاسٍ يختبئ في غلافٍ منفّرٍ أيّ فرصةٍ في تحقيق طموحاته، أينما كان؟ هل هذا الذي تتأمّله الأعين الآن بإعجابٍ هو عينه ذاك الذي أهانته الصحافة ومرّغته في الوحل؟ في الحقيقة، ما من شكٍّ في أنّ ذاك الذي يراه الناس الآن هو «روحٌ عظيمة»، مثله مثل المهاتما غاندي. إنّه كائنٌ أرسلته السماء لأداء رسالةٍ بالغة الأهمّية، هكذا فكّرت النفوس التقيّة.

أعاد قاسم أميناتا إلى بيتها. كان يعلم أنّ إغواء رمزي يستند إلى قدرته

على إبهار الرجال والنساء ببهاء طلّته وتوهّج روحه. هو نفسه توقّف عن الاهتمام بحقيقة المشاعر التي يكنّها له. الأفضل عدم الاصطياد في الماء العكر. كان يعلم أنّه سيحمل له طيلة حياته تلك المشاعر التي لا يمكن الاعتراف بها، الملتبسة، المخبّأة داخل كينونته مثلما تختبئ بذرةٌ في التراب. غير أنّه اطمأنّ تماماً. فأميناتا لم تقع أسيرة سحر رمزي. إذ قالت له بنبرةٍ مرتابة: «هل تعرفه منذ وقتٍ طويل؟ يا له من شخصٍ غريب!».

مغمغ قاسم في الكلام. لكنّها أصرّت: «هل صحيحٌ أنّك تسكن عنده؟».

فأجاب مراوغاً: «إنّه يؤجّرني غرفةً ليساعدني. في الماضي، عملت تحت إمرته في إفريقيا».

– تحت إمرته؟ إذاً أنا متأكّدةٌ من أنّك معه ارتكبت تلك الأفعال التي لا تفخر بها.

أخذت تتفحّصه بنظرها. هل النساء مجرّد كائناتٍ بشرية؟ ارتعب من هذه الفطنة وسرّع خطاه، متسائلاً عن السبيل لتغيير الموضوع.

لفحت تيارات هواءٍ باردٍ أتت من البحر كتفيهما، معلنةً أنّ الخريف غير بعيد. وكما هي العادة، كانت الشوارع تفيض بجمهرةٍ صاخبة، جائعة، تلتهم النقانق أو البيتزا.

سأل قاسم: «كيف تنظرين إلى مستقبلنا؟ كم من الوقت سنعيش منفصلَين واحدنا عن الآخر؟».

– أرجوك، تحلَّ بقليلٍ من الصبر! سأنالها، تلك الشهادة الثانوية اللعينة!

كانت تتحدّث بتصميم محاربٍ صليبيٍّ يذهب لتخليص أورشليم من أيدي الكفّار. لم يتجرّأ قاسم على الاحتجاج.

.5

بعد الحفل، استعادت الحياة مجراها الكئيب.

اختفت أميناتا مجدّداً في مجمّع بومارشيه السكني، إذ عاد بابكر لاحتجازها. فاضطرّت هي وقاسم إلى التواصل عبر رسائل نصّية حزينة:

أميناتا. ناتا ميا(*).
لو أنّك تحبينني مثلما أحبّك،
لهربنا معاً.

فتردّ من فورها:

قاسم، قاسم يا محبوبي،
كن متأكّداً من حبّي لك
لكن عليّ إطاعة أبي
ثمّ إلى أين نهرب؟

بات قاسم يتسكّع مع عثمان في «برازيرو» حتى ساعات الصباح الباكر. وبما أنّه لم يكن يبادر للتواصل مع الفتيات، فقد كنّ يسخرن منه علناً، فيضحكن ويتهامسن عندما يرينه. علِم أنّهنّ لقّبنه «المجرّد من

(*) Nata mia، تعني بالإيطالية: المولودة من أجلي.

الشجاعة»، لكنّه لم يأبه على الإطلاق. لم يكن يشعر بالمواساة إلّا أثناء صلاة الجمعة في المسجد. آنذاك، تنهمر النعمة، إن كان يجب إطلاق هذه التسمية عليها، على روحه الخاضعة. يعترف بخطيئته بإذعان، فيرتّل بشيءٍ من الوجد: ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء﴾.

كان شهر آب مديداً برطوبته، برياحه الهوجاء غير المعتادة ثمّ بأمطاره الرعدية المفاجئة.

يشتكي الركّاب المعتادون على ركوب ترامواي السابعة وثماني دقائق والذي يكاد قاسم يفوّته كلّ صباح: «الطبيعة مختلّة!».

ويستشهدون على ذلك بتلك الكوارث التي تنهال على كوكبنا. مهلاً! نهاية العالم وشيكةٌ بالتأكيد!

نهاية العالم؟ يفكّر قاسم في أنّ ذلك لن يزعجه. هكذا نمضي جميعاً معاً. سيكون ذلك أكثر مدعاةً للارتياح. الرهيب هو أن نمضي إلى النهاية فرادى!

في عصر أحد الأيّام، أثناء خروجه من جمعية «اليد الممدودة» التي بات كرهه لها يزداد يوماً بعد يوم، انفصل خيالٌ عن الجدار الأصفر المواجه للسياج الحزين. اعتقد قاسم بدايةً أنّه خيال شخصٍ مشرّدٍ أو عاطلٍ عن العمل منذ وقتٍ طويل. نحيل، أشعث، سيّئ الهندام ويرتدي معطفاً مرتجلاً واقياً من المطر. غير أنّ عينيه الفاتحتين اللامعتين اللتين تأكلان وجهه النحيل كانتا فريدتين. تعرّف قاسم على كلودومير كطعنةٍ في القلب، على الرغم من مرور تلك السنوات كلّها. من بين إخوته جميعاً، لطالما كان كلودومير الذي يكبره بثمانية عشر شهراً هو الأقربَ إليه. فهما

الوحيدان من سلالة مايومبه اللذان يحبّان الكتب، وكانا يبحران معاً إلى مملكة كتب اليافعين مثل «لاسي الكلب المخلص» و«الذئب الأبيض». آنذاك، لم يكن هاري بوتر قد خرج بعد من عقل ج. ك. رولينغ(*) الخصب ليزيح تلك الحيوانات الصديقة عن العرش. توقّفت الحميمية بينهما في حدود الثالثة عشرة من العمر. فقد خضع كلودومير إلى الإلزام الذي فرضه كيليرمان جونيور بازدراء آخر العنقود، محبوب أبيه، وأصبح الشريك المفضّل في الألعاب الليلية. لم يعد قاسم يشعر بأيٍّ من مشاعر الماضي. فالمودّة تتبخّر مثل عطرٍ نسيناه على أحد الرفوف.

هتف قاسم: «كلودومير! ماذا تفعل هنا؟!».

تقدّم الآخر نحوه: «أتيت لأراك!».

يا له من خبر!

قال قاسم، مرعوباً من فكرة أن يفاجئه أحد زملائه أو واحدٌ من الأطفال بصحبةٍ غير سارّةٍ كهذه: «فلنتحرّك من هنا! قل لي! كيف عثرت عليّ؟».

زمجر كلودومير: «لم يكن الأمر صعباً. حصلت على عنوانك من كوميتا وكاترينا عندما مررتُ بهما لأخبرهما بأنّني سأبحر من مرسيليا».

هتف قاسم: «تبحر؟ ما هي وجهتك؟ إلى أين تذهب؟».

لم يجب كلودومير عن السؤال. أمسك بذراع قاسم وتابع قائلاً: «قالتا لي إنّك عدتَ من إفريقيا. كيف حال غابات ساحل العاج؟ والغابون؟ وغينيا الاستوائية؟».

أجاب قاسم مذهولاً: «الغابات؟ لن أستطيع أن أردّ على سؤالك هذا! كلّ ما أعرفه هو أنّ حال البشر هناك يزداد سوءاً. هل تقرأ الصحف؟».

(*) J. K. Rowling: روائية وكاتبة سيناريو بريطانية، اشتُهرت بكتابتها سلسلة هاري بوتر.

هزَّ كلودومير رأسه بقوّة: «الصحف؟ أبداً!».

- أنا نفسي كدتُ أفقد حياتي هناك.

لم يبدُ على كلودومير تأثّرٌ كبير، لكنّ شرارةً اشتعلت في قاع عينيه: «يخال للمرء أنّ رؤيتك لي لم تبعث السرور في قلبك».

بوغت قاسم، فتأخّر في الردّ.

استأنف كلودومير بصوتٍ مُسلِّم: «لا أحد يحبّ أن يراني. الجميع يخافون منّي. لا شكّ في أنّني أبدو كمجنونٍ بعد كلّ تلك السنوات في مستشفى الأمراض النفسية».

كرّر قاسم بذهول: «مستشفى الأمراض النفسية! أكنت في مستشفى للأمراض النفسية؟».

- هذا أفضل من الخروج من السجن، أليس كذلك؟

شعر قاسم بالعار بسبب جهله. كان أخوه مريضاً ولم يعرف شيئاً عن ذلك قطّ. اعتقد أنّه في السجن مثل ذكور العائلة الآخرين. صحيحٌ أنّ خطوةً، سرعان ما تخطوها، تفصل في كثيرٍ من الأحيان السجن عن مستشفى الأمراض النفسية. إذا ما فكّر المرء جيّداً، ألم تكن لدى كلودومير على الدوام «لوثة»؟ لطالما راودته رؤىً، وأحلامٌ، وكوابيس. لم يكن يتوقّف عن رواية قصصٍ غير قابلةٍ للتصديق مطلقاً! هكذا، أقنع قاسماً بأنّهما كلاهما سقطا من عربة غجرٍ وليس لهما أيّ علاقةٍ بآل كيليرمان، دراستا وبقية أهل البيت. لذلك، كان ينوي الرحيل بحثاً عن أهلهما الحقيقيّين، وفي الليل، ينهب الثلّاجة ليجهّز زوّادة الطريق. وعندما بات مراهقاً، اعتنق أفكار الراستا ورفض تناول لحم الخنزير وثمار البحر، كما ترك شعره الأشعث يتشابك على شكل ضفائر. في إحدى السنوات، أخذته

دراستنا القلقة عليه إلى المبجّل هوفير الذي طمأنها. لا، الفتى غير مسحور، بل إنّ الربّ باركه بموهبة القدرة على التنبّؤ.

أكّد لقاسم قائلاً: «لقد أعلن الأطباء أنّني شُفيت. ضمنوا أنّني أستطيع استعادة مكاني بين الناس الطبيعيين».

خطا الشقيقان بضع خطواتٍ بصمت.

استأنف كلودومير حديثه: «أتدري ماذا تعلّمتُ طيلة السنوات التي أمضيتها في المستشفى؟ الجنون غير موجود!».

ثمّ ضرب جبهته قائلاً: «الأمر ببساطةٍ أنّ لكلٍّ منّا منطقه الخاصّ».

بعد هذا التأكيد الجميل، تابع الرجلان السير جنباً إلى جنب بالخطوات عينها. أخذ قاسم يعصر ذهنه كي يجد ما يقوله. سأل: «هل أنت على اطّلاعٍ على ما فعلته ماما؟».

هزّ الآخر رأسه بلا مبالاة.

– ما أستغربه هو أنّ ذلك لم يحدث قبلاً. أتتذكّر كيف كان يعاملها؟ لقد أقسم كيليرمان جونيور على أنّه سيقتله إن ضربها. أتعلم ما هو رأيي بذلك الوغد؟ لقد جنى علينا جميعاً بأنانيّته وقسوته.

هل كانت الأمور بهذه البساطة؟ ألم يكن كيليرمان نفسه ضحيّةً، أكثر من أبنائه وقبلهم؟

تابع كلودومير بصوتٍ غامض: «سأبحر لأنّني ذاهبٌ إلى البرازيل».

– إلى البرازيل؟

لم يكن ذلك مُفاجِئاً. لا أحد يعلم لماذا شعر كلودومير دائماً بالهوس تجاه هذا البلد. في الحادية عشرة من عمره، اكتشف الكابويرا *capoeira*،

نضال العبيد الإفريقيين القدامى المُرحَّلين إلى البرازيل. وجد في مكتبة البلدية منحوتاتٍ قديمةً من القرن السابع عشر، وخطر في باله أن يُخرج مسرحيةً مع قاسم ليعرضاها في صالة الاحتفالات ويحصلا على ما يكفي من المال للهرب من سوسي. لكن لسوء الحظّ، لم يكن قاسم، المتصلّب مثل دميةٍ خشبية، يمتلك المهارة المطلوبة، فتعثّر المشروع. ثمّ استهوته الكيلومبوس(*)، فحلم بتأسيس واحدٍ منها داخل إحدى الغابات المجاورة، حيث يعيش المرء من دون أبٍ ولا أمّ، من دون سقفٍ أو قانون. غير أنّ ذهن كلودومير، حالياً، لم يكن يفكّر على ما يبدو لا بكابويرا ولا بكيلومبوس. فقد أسهب في سرد قصّةٍ طويلةٍ ومشوّشة لم يبقَ منها في ذهن قاسم سوى أمرٍ واحد: إنّه ينتمي إلى جمعيّةٍ تدعى «الكوكب في خطر»، أعضاؤها، مثلهم مثل أعضاء جمعية السلام الأخضر (Greenpeace)، ينوون إيقاف مجزرة الغابات المدارية، إنقاذ الأشجار!

كرّر قاسم الذي لم يصدّق أذنيه: «إنقاذ الأشجار؟!».

مفهومٌ أن ينشط المرء لمواجهة الإيدز أو السلّ أو الداء العلّيقي، أو أيٍّ من تلك الأمراض التي تصيب الإنسان! أن يحتشد الناس ضدّ الجوع في العالم! لكن للاهتمام بإنقاذ الأشجار، يجب أن يكون المرء مجنوناً حقّاً! أخذ قاسم يتفحّص أخاه بطرف عينه، فانتبه فجأةً إلى الحمّى في عينيه، إلى تلعثمه غير المفهوم، إلى هيئته الفوضوية.

زمجر كلودومير: «البشر ضارّون. إنّهم ينهبون الكوكب. وما يفعلونه بالأشجار هو جريمتهم الأعظم. بالأشجار، أصدق أصدقائنا على مدى

(*) Quilombos: من اللغة البرتغالية، جماعاتٌ منظّمة أسّسها بصورةٍ رئيسيةٍ العبيد الهاربون من العبودية ليعيشوا فيها بحرّية.

الزمن. رئاتنا. الأوكسيجين الذي نتنفّس. تخيّل عالماً خالياً من الأشجار! لن يعود هنالك لا ظلٌّ ولا برودة».

لم يفكّر قاسم يوماً بهذا الجانب ولم يجد ما يردّ به. لم يبالِ كلودومير وتابع: «بعض الناس ينشطون من أجل البحر. أمّا أنا، فالبحر أخافني على الدوام. أنت تذكر أنّ الأهل كانوا يأخذوننا عندما كنّا صغيرين إلى شاطئ كالبورنيا. كان مليئاً بالكثبان. وكنّا نمضي ساعاتٍ في بناء قصورٍ من الرمل يأتي المدّ ليهدمها بدناءةٍ بركلةٍ واحدةٍ من كعبه. البحر مثل إحدى تلك النساء اللواتي لم يرغبن يوماً بي».

هو أيضاً؟ الأمر وراثيٌّ إذاً؟ هكذا فكّر قاسم. ما الذي فعلناه كلانا كي لا نحظى بالحب؟

– الأشجار هي سلامتنا وملاذنا. إنّها الصلة بين السماء والأرض.

فجأةً، توقّف كلودومير وسط الرصيف وأخذ يلقي:

في غابةٍ من الرخويات الرأسية الأرجل
صدَفةٌ كبيرةٌ كثيفة الشعر
من الجُلاف، على صخورٍ ورديةٍ يحتّها
بطن سمك المولا من هونولولو.

ثم طلب استحسان أخيه. لكنّ أخاه، كما نعلم، لا يتمتّع بالذائقة الشعرية.

– ما رأيك؟ بربّك، أليس جميلاً؟

لم تكن تدور في ذهن قاسم إلّا فكرةٌ واحدة. ما الذي سيفعله بهذه الشخصية المربِكة؟ كيف يتخلّص منه؟ فجأةً، التفت كلودومير إليه وقال بصوتٍ تشوبه الشكوى: «أنا جائع!».

جائع؟ هذا ما كان ينقص! غير أنّ أمراً ما -روح العائلة؟- لجمه فأخذ أخاه إلى أوّل مقهىً صغيرٍ صادفاه. ليست المقاهي الصغيرة أو المطاعم القذرة هي ما ينقص في مرسيليا. نجد فيها كلّ شيء. شطائر دائرية. فطائر. بيتزا. من نهم كلودومير وهو يأكل، كان بوسع المرء التساؤل عن آخر مرّةٍ أكل فيها. وعندما شبع، نظر إلى الساعة التي يعلّقها حول رقبته، بأسلوبٍ غريب.

- آن أوان ذهابي إلى روبي.

فسأل قاسم المنتقل من مفاجأةٍ إلى مفاجأة: «وما هو روبي؟!».

قال الآخر مختالاً: «إنّه مركبنا. اشتريناه من شركة كيونار لاين، أي إنّنا انتزعناه من مخالب الرأسمالية العالمية. هذه الليلة، سنعقد فيه اجتماعاً مهمّاً لأنّنا لن ننطلق إلا غداً. فور أن ينتهي هذا الاجتماع، سأنزل إلى اليابسة مجدداً. أين يمكننا الالتقاء؟».

أعطاه قاسم أوّل عنوانٍ خطر في باله، عنوان مقهى «برازيرو»، ونظر إليه وهو يبتعد. هل سيطلب منه كلودومير أن يستضيفه لقضاء الليل؟ في هذه الحالة، إلى أين سيأخذه وهو الذي ليس لديه سقف؟ وكما في كلّ مرّةٍ يحتار فيها، ذهب إلى عثمان ليسأله النصح.

في ذلك اليوم، كان عثمان يبيع بسهولةٍ كنزاتٍ مصنوعةً من خيوط الأكريليك، على الرغم من ألوانها الصارخة - الأخضر والأزرق والبنفسجي. استمع بانتباهٍ إلى حديث صديقه، ثمّ سأله بنبرةٍ جادّة: «هو شقيقك؟ من الأب عينه؟ من الأمّ عينها؟».

هزَّ قاسم كتفيه وشرح بشيءٍ من التوتّر: «ليس في عائلتي تعدّد زوجات. إخوتي وأنا ليس لدينا إلّا أبٌ واحد وأمٌّ واحدة. الأب والأمّ عينهما».

أكّد عثمان: «جميع الرجال متعدّدو الزوجات! بعضهم علناً. بعضهم الآخر سرّاً».

واصل استجوابه: «هل يكبرك أم يصغرك؟».

– يكبرني!

– في هذه الحالة، عليك أن تفعل كلّ شيءٍ من أجله. أن تستضيفه بقدر ما يريد. أن تمنحه المال إن كان محتاجاً للمال.

رفع قاسم نظره إلى السماء: «المال؟ من أين تريدني أن أجد المال؟!».

استأنف عثمان: «أصلاً، حتّى لو لم يكن يمتّ لك بصلة، أليس الضيف هبةً من الله؟».

على الرغم من أنّ الوقت لم يكن قد تجاوز الثامنة مساءً، إلا أنّ النديمين ذهبا إلى «برازيرو»، باعتبار أنّ المكان هو أيضاً مطعمٌ متواضعٌ يعرض ليلاً لحماً مشوياً على الفحم لزبائنه المقرّبين. بطبيعة الحال، وجدا هناك جوزيف بهيئته الجنائزية، جالساً خلف كأسٍ من الجعة. استقبل قاسماً بابتسامةٍ عريضةٍ وضربةٍ على كتفه وقال له بنبرة سرور: «يبدو أنّك تخلّيت عن فكرة الزواج. أنت لا تعلم مقدار هنائك».

انزعج قاسم وفضّل عدم الردّ. طلب مشروبه المفضّل، وفي حين انطلق عثمان بحماسةٍ لاستمالة إحدى الجميلات، استقرّ هو على الطرف الآخر من النضد. انصرف تفكيره كلّه إلى أخيه. يا لها من عائلة، تلك التي أنجبها كيليرمان ودراستا! زعران، مدمنو مخدّرات، مجانين! هكذا إذاً، كلودومير المسكين خرج من مستشفى للأمراض العقلية!

لكن هل هذه هي الحقيقة؟ لطالما كان كلودومير كذوباً، قادراً على جعلك تغذّي الأوهام. اقترب جوزيف من قاسم وفي يده كأس.

- يبدو أنّنا سنلتقي أخيراً بأخيك الأكبر؟

في تلك اللحظة، وصل المذكور وعلى رأسه قلنسوة، مرتدياً سترةً يميل لونها إلى الأخضر. نظر حوله بهيئةٍ مستنكرة وهتف قائلاً: «غريبةٌ هي الأماكن التي تذهب إليها!».

صافح جوزيف الذي قدّم له كأساً من الجعة. فرفض: «أنا لا أشرب. هل توجد غاباتٌ في بلدك؟ كيف حالها؟».

فأجاب جوزيف كما لو أنّ السؤال عاديٌّ بالنسبة إليه: «لا توجد غاباتٌ في بلدي السودان. لكنّ البشر في حالٍ سيّئة. بل أقول إنّهم يقتتلون. لكن ربّما لم تسمع بحروبنا الأهلية، أليس كذلك؟».

هزَّ كلودومير رأسه نفياً وشعر قاسم بالعار من هذا الأخ الرثّ الهندام والذي لا يفقه شيئاً.

على العكس من ذلك، بدا جوزيف سعيداً بأنّه وجد من يستمع إليه. طلب كأساً جديداً من الجعة. ثمّ استأنف حديثه: «عشتُ بطمأنينةٍ وقتاً طويلاً. في بلدٍ تجتاحه النزاعات، لم أكن أتدخّل في السياسة. لقد تزوّجتُ مجدّداً في نهاية المطاف لإسعاد أهلي بفتاةٍ أثق بها من منطقة بروس، تنتمي إلى شعب الدندي. كنت أعمل في وزارة الاستثمار الإنساني. ذات يوم، أتى رجال شرطة لتوقيفي. أشبعوني ضرباً. نُسب إليّ أنّني عضوٌ في جيش التحرير الوطني. رموني في السجن. أمضيت فيه خمس سنوات، تعرّضت في كلّ يومٍ منها للضرب والتعذيب. ثمّ ذات صباح، أُخلي سبيلي. من دون كلمة تفسيرٍ واحدة».

قال قاسم في نفسه إنّه سبق له أن سمع هذا السرد! وتذكّر سرد الشيخ النيجيري. هل تتكرّر الحكاية عينها في كلّ مكان؟

- عندما عدتُ إلى بيتي، لم أجد فيه أحداً. فقد اغتصب الجنجويد زوجتي أثناء زيارةٍ لها لأمّها وقتلوها. أمضيت سنتين وأنا أبحث عن عمل. لم تكن لديّ أيّ فرصة، لأنّني أسود وكاثوليكي. آنذاك، كنت أنام أمام كاتدرائية القدّيسة صوفي. أفتّش في الفضلات. وفي نهاية المطاف، استمعتُ لنصائح. رحلتُ إلى جيبوتي ومن هناك أتيت إلى هنا.

سأل كلودومير بتعاطف: «وهل وجدت عملاً على الأقلّ يا صديقي المسكين؟».

يبدو هذان الاثنان متّفقَين تماماً! هكذا فكّر قاسم.

- أنا لا أتشكّى. أنا أعمل في مجال البناء.

غير أنّ الوقت كان يمرّ، فتزداد سماكة الدخان الذي يحفر ظلّاً على وجوه الزبائن. أمّا الفتيات المتاحات والمغرمون بالمتع الليلية، فيرقصون وهم يتزايدون التصاقاً كلٌّ منهم بشريكه، ضمن صخب أوركسترا أتت هذه المرّة من الكونغو، زائير سابقاً.

التفت كلودومير نحو قاسم وطرح عليه السؤال الذي كان يخشاه: «هل تستطيع أن تؤويني؟ اطمئن، ليس لوقتٍ طويل! هذه الليلة فحسب».

على طول طريق العودة إلى فندق «سيغليون»، حدّث قاسم نفسه باستياءٍ عن هؤلاء المجانين، هؤلاء المرضى العقليين الذين يأتون من دون إخطارٍ مسبقٍ وينتظرون منك أن تؤويهم. مشى كلودومير وراءه بثلاث خطواتٍ وهو ينشد بصوتٍ مرتفعٍ قصيدته المفضّلة:

في غابةٍ من الرخويات الرأسية الأرجل
صدَفةٌ كبيرةٌ كثيفة الشعر

من الجُلاف، على صخورٍ ورديةٍ يحتّها
بطن سمك المولا من هونولولو.

بما أنّ الساعة كانت قد قاربت الثانية صباحاً، فلم يكن لذلك أهمّية. شعر المارّة النادرون بالخوف عندما وصل إلى مسامعهم ذلك الصوت المدوّي كالرعد، فحثّوا خطاهم.

كان فندق «سيغليون» ملكاً لعائلةٍ إيطاليةٍ قديمةٍ اختارت القدوم إلى فرنسا لتعيش فيها بعد خلافاتٍ مع البابا. لكنّ مصاعب مادّيةً أرغمت الورثة على بيعه لإدارة الإقليم التي أصبحت تؤوي فيه موظّفيها المرموقين. وهو مبنىً أرستقراطيٌّ أنيق، ينتصب وسط حديقةٍ تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف مترٍ مربّع ومزروعة بالأوكالبتوس والدفلى ومساكب البنفسج.

«أنت تسكن هنا؟»، هتف كلودومير بذهول.

كان قاسم قد حضّر تفسيراً مُقنِعاً: «أحد أصدقائي، وهو المفوّض الأعلى للاندماج، يؤجّرني غرفةً عنده».

فتح البوّابة. لكنّ الآخر لم يبدُ مستعجلاً على التقدّم وبقي في مكانه، يستنشق الهواء حوله: «أنا أشمّ رائحةً كريهة...».

– رائحةً كريهة؟!

– إنّها رائحة.. الشرّ.

للشرّ رائحةٌ إذاً؟ هل لهذا السبب كتب بودلير «أزهار الشرّ»؟

ـ ... إنّها الرائحة التي تتسلّق حول السجون وبيوت المولعين جنسياً بالأطفال ومعسكرات الإبادة. كما أنّنا نستنشقها أيضاً...

فقال قاسم وهو يشعر بالاضطراب رغماً عنه بسبب جدّية النبرة: «توقّف عن التلفّظ بالسخافات وسارع إلى الدخول!».

لاحظ أنّ سيّارة المرسيدس في المرأب، ما يعني أنّ رمزي في البيت. ما الذي سيحدث لو أنّه يقبع في مكانٍ ما في الظلّ بعينين مفتوحتين عن آخرهما مثلما يحبّ أن يفعل؟ رمزي كالقطط، يحبّ الظلمة حبّاً جمّاً. ما الذي سيقوله؟ تلفّت كلودومير ذات اليمين وذات اليسار مثل حيوانٍ مترقّبٍ وقال بصوتٍ مرتفع: «صديقك هو أميرٌ للظلمات...».

كمّم قاسم فم أخيه بيدٍ وأمسكه بقوّةٍ من ذراعه باليد الأخرى، وسحبه إلى الداخل. عبرا سلسلة غرف الطابق الأرضي وهما يتلمّسان طريقهما، محاولَين عدم الاصطدام بالأثاث، ثمّ سلكا الدَّرَج المفروش بالسجّاد. كم يصُرّ في كلّ درَجة! عندما أصبحا في غرفة نوم قاسم، خلف الباب الموصود، صاح كلودومير وقد امتقع وجهه: «إن كانت لديّ نصيحةٌ أقدّمها لك، فهي مغادرة هذا المكان بأسرع ما يمكن إن كنت لا تريد التورّط في قضايا قذرة، شديدة القذارة. صديقك.. وحش!».

فأجاب قاسم وهو يرمي بمنامةٍ على رأس شقيقه قائلاً: «نَمْ!».

.6

عندما استيقظ قاسم، كانت الغرفة مغمورةً بالنور وكلودومير قد اختفى. كأنّ ما عاشه مجرّد حلم.

في صالة الطعام، وجد رمزي يتناول إفطاره، فيدهن بالزبدة شرائح من الخبز الأبيض وهو يتصفّح الجرائد. بعد أن قبّله، وجّه إليه نظرةً متفحّصة: «ما الذي فعلته هذه الليلة؟ سمعتُك تعود متأخّراً. تبدو متعباً».

بدا لقاسم ثانيةً أنّه يطيع إرادةً طاغية، أعلى من إرادته. سمع نفسه وهو يحكي بالتفصيل المملّ عن زيارة أخيه.

ضحك رمزي: «أميرٌ للظلمات! كم ينساق! أصلاً ماذا يعني ذلك؟».

هزَّ قاسم كتفيه: «لا أعلم. كلودومير مجنون».

فقال رمزي بنبرةٍ قاطعة: «ليس هنالك مجانين. هنالك فحسب أناسٌ لا يفكّرون مثلنا. أين أخوك الآن؟».

– أفترض أنّه في مركبه. من المفروض أن يبحر اليوم.

مرَّ النهار من دون أحداثٍ مميّزة. كان يوم خميس، يوم المسبح بالنسبة إلى فتيان «اليد الممدودة». أي إنّه عملياً، لم يكن لدى قاسم ما يفعله، لأنّ

مدرّبي السباحة يهتمّون بكلّ شيء. ذهب للجلوس في المقصف وتحدّث إلى مشرفٍ آخر، عاد لتوّه من عطلةٍ قضاها في مدينة طبرقة بتونس ولا يزال مبتهجاً: «كان المكان ممتلئاً بالإيطاليات الجميلات بقدر جمال صوفيا لورين».

جميع هؤلاء النساء المعروضات على السليولويد أو على الورق المصقول واللواتي يدفعن الأغبياء للحلم!

مساءً، ذهب ليمضي بعض الوقت في «برازيرو»، مدركاً مرّةً أخرى مدى خواء وكآبة ساعات وجوده. اقترب منه جوزيف، لكنّه تجنّبه. لقد كره هذا الرجل الذي لم يؤذِه وعيبه الوحيد هو أنّه عاش مآسي كثيرة. لو أنّه فحسب تمكّن من الوصول إلى جسد أميناتا الممنوع عليه، المحتبس في مجمّع بومارشيه السكني! سمع قاسم بأنّ بابكر تغلّب على بغضه للبِيض ووظّف شاباً حاز مؤخّراً على الشهادة الثانوية من ثانوية مارسيل بانيول(*) ليعطي دروس جبرٍ وهندسةٍ لابنته. أخذت تعذّب قاسماً فكرة تلك الجلسات التي ينفردان فيها معاً.

ليلاً، لم تكن أحلامه عطوفةً عليه أبداً. رأى نفسه عارياً تماماً، ضائعاً في غابةٍ وسط أشجارٍ كثيفة الأغصان مثل ذراعَي كالي(**). ثمّ ظهر كلودومير مسلّحاً ببلطةٍ وأخذ يلاحقه ليقتله.

في اليوم التالي، عندما وصل إلى جمعية «اليد الممدودة»، سمع الجميع يتحدّثون عن الموضوع عينه. الخبر مكتوبٌ هنا، في الصفحة الأولى من جريدة «لومارسييّه» اليومية. ففي اليوم السابق، اقتُحم مركب «روبي» في

(*) Marcel Pagnol (1895–1974): كاتب روائي ومسرحي وسينمائي ومنتج فرنسي.
(**) Kali: إلهة هندية.

ميناء مرسيليا وأوقف من كانوا على متنه، ثمّ اقتيدوا إلى مخفر الشرطة. نُشرت صورٌ تمثّل سفينةً بائسةً نوعاً ما، أشبه بقاربٍ يبدو وكأنّه ينتظر لحظة تحطّمه السعيدة. على سطحها، مقابل قوّات النظام، مجموعةٌ من الحمقى الذين لم يتعرّف قاسم بينهم على أخيه. هل يمكن أن يتعرّف الإنسان على شخصٍ ما في صور الجرائد؟ أكّدت جريدة «لومارسييه» أنّهم إرهابيّون خطرون متورّطون في اعتداءاتٍ مختلفة. فقد عُثر في مخازن «روبي» على ترسانةٍ من الأسلحة الخفيفة والثقيلة. إلى أين كانت تتّجه؟ لن يخفى ذلك وقتاً طويلاً. إذ سيأتي القاضي الشهير بابيول المتخصّص في الإرهاب من باريس على وجه السرعة ليستجوب هؤلاء الأشخاص وربّما ليُدينهم.

حدث أمرٌ مأساوي. ففي حين كان رجال الشرطة يحاولون تطويق الإرهابيّين، رمى واحدٌ منهم بنفسه في الماء للهرب. وقبل أن يتمكّن أحدٌ من إخراجه، غرِق لأنّه لم يكن يعرف السباحة. اسمه كلودومير مايومبه، يبلغ من العمر أربعةً وعشرين عاماً، وينحدر من مدينة ليل. ركض قاسم حتّى رصيف الميناء كالمجنون. لكنّ صفّاً من رجال الشرطة، بالزيّ القتالي والخوذات والجزمات، حال بينه وبين هدفه. لم يكن قاسم قد لاحظ قبلاً مقدار بشاعة الأوباش في كلّ مكان، في «بورتو فيراي» مثلما في مرسيليا. فهم جسيمون، ضخام الخدود، يشدّون على مقابض المسدّسات بقبضاتهم. يصفهم ميشيل ليريس[*] على النحو التالي:

«إنّهم وحوشٌ فظّة، تفوح منهم رائحة العرَق، مؤخّراتهم ضخمة وقلفاتهم غير مغسولةٍ جيّداً»

رائع، أليس كذلك؟

(*) Michel Leiris (1901-1990): كاتب وشاعر وإثنولوجي وناقد فني فرنسي.

عندما تلاقت نظراته بنظراتٍ ضاريةٍ من أحد أولئك الحرّاس الشرسين، هرب بأقصى سرعةٍ من دون أن يبالي بشيء. وصل إلى مربّع «إدغار بو» السكني، وهو ساحةٌ صغيرةٌ هادئةٌ قرب كنيسة القديس بارتيليمي القديمة، توقّف فجأةً. يا إلهي، لقد مات أخوه. يمكن القول إنّه قُتل! هل سيبقى مكتوف اليدين؟ في مثل هذه الحالة، لا يستطيع عثمان مساعدته، فموت كلودومير يتجاوز كفاءاته. وهو لا يستطيع الاعتماد إلّا على نفسه. خطرت في باله ألف خطّةٍ لكنّه رفضها من توّه. إلى أيّ مستشفى نُقل كلودومير؟ لم تقل الجريدة ذلك. انتهى به المطاف إلى أن يحوم أمام كلّ مستشفى على أملٍ سخيف، أن يلحظ فيه دليلاً ما. لكنّه لم يكن يدري أنّ عددها كبيرٌ إلى هذا الحدّ! كلّ واحدٍ منها يختلف عن غيره من المستشفيات. بعضها مبانٍ قديمة، عُمّرت من حجارةٍ أبلاها الزمن ويعود تاريخ بنائها إلى العصور الوسطى، أبوابها منخفضةٌ وواجهاتها صمّاء. وبعضها الآخر مبانٍ حديثة، بل فائقة الحداثة، عُمّرت من الزجاج والخرسانة. هذه المستشفيات بتنوّعها تُظهِر مدى معاناة البشر! لم يفكّر في ذلك قبلاً. رجالٌ ونساءٌ من الأعمار كافّةً، من الحجوم كلّها، الوجه متجهّمٌ أو باكٍ صراحةً، يدخلون ويخرجون ويتلاقون ويتصادمون. سيّارات إسعاف، سيّاراتٌ خاصّةٌ تتوقّف في تنافرٍ صوتيٍّ مدوٍّ. يركض حمّالو نقّالاتٍ في الاتّجاهات كلّها، محمّلين بحملهم البائس. بعد بضع ساعات، وبعد أن تبيّن عدم جدوى سعيه -لكن ما الذي كان يتوقّعه؟- عاد إلى «اليد الممدودة». في غمرة يأسه، باح بسرّه إلى السيّد كاستالدو الذي كان يقال عنه سرّاً إنّه راهبٌ ترك سلك الرهبانية، ولطالما تعامل معه بلطف. استمع إليه السيّد كاستالدو برصانة، ثمّ تأكّد من عدم وجود أيّ متلصّصٍ في الجوار وقال بنبرة متآمر:

«لو كنت مكانك، لتجنّبتُ لفت الأنظار. بل لتركت المنطقة لبضعة أيّام. إذ لن تتأخّر الشرطة في اكتشاف أنّ لهذا الكلودومير مايومبه أخٌ في مرسيليا، وأنّ هذا الأخ هو أنت. وبدءاً من تلك اللحظة، عليك أن تخشى كلّ شيء. اتّهامات بالتواطؤ. توقيف. ألا تقرأ الصحف؟ إنّها مليئةٌ بمثل هذا النوع من القضايا».

مغادرة المنطقة؟ إلى أين؟ تخيّلَ كيف ستكون ردّة فعل شقيقتيه في حال ذهب للاحتماء عندهما في مدينة ليل.

عاد يجول على غير هدىً في المدينة وقد تملّكه الذعر. بدا له أنّ ألف خطرٍ يظهر تحت خطواته. أنّ ألف زوجٍ من العيون ترقب تحرّكاته. أنّه حتّى العناصر المكلّفون بتنظيم السير يتابعونه بنظرةٍ مرتابة. ثمّ حاول تهدئة نفسه. فكلودومير قد عرف السلام أخيراً، بعد تقلّباته كلّها.

«الله غفورٌ رحيم».

أعاده المساء إلى «برازيرو». هنالك، ساد الضجيج المعتاد. وجد فرقةً من الرأس الأخضر تعزف وتغنّي أغنية فادو.

صرخ عثمان: «مات! هذا مستحيل!».

وصاح جوزيف: «البارحة كان بصحّةٍ ممتازة!».

قال قاسم متلعثماً: «هذه الأمور تحدث».

واصل جوزيف: «هذا يذكّرني بموت أمّي. حملت بسبعة عشر طفلاً. كانت تبدو وكأنّها قد بُنيت من الكلس والرمل(*). لم تُصَب يوماً بنزلة برد. ثمّ ذات يوم، سقطت وسط السوق وأنفها على البسطة التي تضع عليها

(*) تعبيرٌ يشير إلى البنية القويّة.

البطاطا الحلوة لتبيعها. كان عمري يومئذٍ ثلاث سنوات. كنت آخر العنقود. وعلى الفور، ارتبط أبي بامرأةٍ كانت عشيقته منذ سنوات.

لا! لن يبقى هنا ليستمع إلى هراءٍ كهذا. فضّل العودة إلى فندق «سيغليون». في الترامواي، استفزّته عصبةٌ من الشبّان العاطلين عن العمل والعدوانيين، لكنّه لم يلحظ ذلك لشدّة استغراقه في أفكاره.

كانت سيّارة المرسيدس في المرأب، وتتلألأ أضواءٌ في النوافذ.

وجد رمزي، آخر شخصٍ يتمنّى رؤيته في تلك اللحظة، ينتظره بألفةٍ في غرفته.

أشار إليه أن يجلس إلى جانبه على السرير وعانق كتفيه بمودّة. بدأ حديثه من دون مقدّمة: «لقد فكّرتُ طويلاً. لن ننجز شيئاً في هذا البلد مهما فعلنا. نحن لسنا لا من اللون المناسب ولا من الدين المناسب».

همس قاسم: «أنتَ تتدبّر أمورك جيّداً على ما يبدو!».

ثمّ أضاف بضغينة: «لا تستطيع مقارنة شرطك بشرطي».

- أنت مخطئ. صحيحٌ أنّني أخالط أقوى الناس وأوثقهم صلةً بالنافذين. لو أنّك تعلم ما هي الوعود التي قُطعت لي عندما وُظّفت! لكن لم يتحقّق الوفاء بأيٍّ منها. أنا مجرّدٌ من أيّ وسيلةٍ للفعل. ليس هنالك سوى حلٍّ واحد: الرحيل من هنا!

هزَّ قاسم كتفيه: «الرحيل! إلى أين سنذهب؟».

صمت رمزي قليلاً كما لو أنّه يلطّف تأثير أقواله، ثمّ وجّه ضربته: «سوف نستأنف "التزيينات"».

- نستأنف "التزيينات"؟

المحكوم بالإعدام الذي يُبلَّغ بتاريخ إعدامه لا يشعر بيأسٍ أشدّ من اليأس الذي شعر به قاسم في تلك اللحظة.

واصل رمزي: «أيّ بلدٍ تمثّل "التزيينات" فيه مؤسّسةً مربحةً كلّ الربح؟ أخبرتك بذلك قبلاً: الولايات المتّحدة الأميركية. هل تريد أن أعيرك كتاباً كتبته امرأةٌ حول هذا الموضوع؟».

لم يكن قاسم يعلم ما سيفعله بهذا العرض ولم يردّ. واصل رمزي بثقة: «سنذهب إذاً إلى هناك. لقد حسبتُ حساباً لكلّ شيء. في البداية، سنسكن عند عمّي، جبريل النووي. هو يعيش في نيويورك منذ قرابة عشرين عاماً ويمتلك فيها مطعماً في الشارع 118. ونظراً لأنّ قوانين الدخول إلى الأراضي الأميركية أصبحت بالغة الصرامة منذ اعتداءات 2001، فسوف أستعيد هويّتي الأوروبية: دومينيك تيسّو دي سافيدرا، أحد أقارب سيرفانتس. أمّا أنت، فليس لديك ما تخشاه بطبيعة الحال. أنت فرنسيٌّ وستبقى فرنسياً».

لم يعد قاسم يستطيع تمالك نفسه، فأجهش فجأةً. غير أنّه لم يعلم ما يبكي عليه: على كلودومير الذي لم يعرف كيف يحميه؟ على هذا الرحيل الذي يخشاه؟ تمكّن أخيراً من أن يقول وهو يتلعثم: «لا أريد الذهاب إلى أميركا».

سأله رمزي بالنبرة التي يُستجوَب بها طفلٌ يجانب العقل: «لماذا؟».

ـ إنّه بلدٌ عنصري. فهناك لا يحبّون لا السود ولا الخلاسيّين!

قهقه رمزي: «وهنا؟ هل يحبّونهم أكثر؟ البلاد كافّةً تتساوى مع بعضها بعضاً بالنسبة إلينا. ففي كلّ مكان، يتّهموننا بالشرور كلّها. نحن العشبة الضارّة التي يريد الناس حرقها. لكنّ ذلك ليس سببك الحقيقي».

عانق قاسماً بقوّةٍ أكبر: «هل ترفض بسبب تلك السنغالية الصغيرة التي كانت في الحفل معك؟ يقال إنّك كنت تريد الزواج بها لكنّ أباها عارض الزواج. لحسن حظّك! أيّ حياةٍ كنت تعدّ نفسك لها!».

هكذا إذاً، كان يعلم!

واصل رمزي من دون غضب: «لقد أخفيتَ عنّي كلّ شيء، لكنّني أعرف كلّ شيء. أينما كنت ومهما فعلت، سأعرفه. لا فائدة، مهما خبّأت عنّي. وبالعودة إلى أميناتا هذه، هي ليست مخلوقةً لك، مثلما لم تكن مخلوقةً لك حفصة أو إيبوني ستار».

تحلّى قاسم بالقوّة الكافية للاحتجاج: «وما أدراك؟! أنت لا تعرفها. إنّها مثقّفة جدّاً. أكثر ثقافةً منّي».

بدرت عن رمزي حركة ازدراء: «ابنة عاملٍ مهاجر، ترعرعت في مسكنٍ شعبيٍّ في الضواحي».

أكّد قاسم: «هي تعشق الشعر».

لم يكن رمزي يصغي إليه، وواصل بازدراء: «فتاةٌ من "الجيل الثاني"، هذه هي الصفة التي تُطلق على أمثالها. لا هويّة لها. لا بلد ولا ثقافة».

قال قاسم منتحباً: «ربّما لهذا السبب أحبّها! نحن متماثلان. إنّها تشبهني. أنا أيضاً خاوي الوفاض. أنا أيضاً لا أعلم من أنا. ليست لي قيمةٌ لا لشيءٍ ولا لأحد».

قبّله رمزي بحرارة وهمس قائلاً: «هيّا! هيّا! وماذا عنّي؟ أليست لك قيمةٌ عندي؟!».

عندما بقي قاسم وحيداً، ارتمى على سريره والألم يعتصر روحه. لم

يخطر في باله للحظةٍ أن يعارض إرادة رمزي. ما دام الآخر قرّر الرحيل، فسوف يتبعه. ما دام الآخر قرّر استئناف «التزيينات»، فسوف يطيع، مهما كلّفه الأمر.

قبيل أن يخلد إلى النوم، انتبه إلى أنّه لم يذكر كلودومير، فشعر بأنّه دفن أخاه بيديه.

.7

حرصاً على الحقيقة، يجب علينا ذكر سلوك قاسم في الأيام التي سبقت رحيله، لأنّه لم يكن سلوكاً مشرّفاً.

قدّم استقالته رسمياً لجمعية «اليد الممدودة». بل إنّ الإدارة نظّمت حفل وداعٍ على شرفه في صالّةٍ زيّنتها البالونات الحمراء. توالت خطابات المديح للسيّد مايومبه، لمرحه وكرمه وللحماسة التي ينقلها إلى غيره. وبعد ذلك، قُدِّمت للأطفال شرائح البطاطا المقلية ومشروب الكوكا كولا، في حين قدّمت فرقةٌ من البهلوانات الأرمن استُقدمت بأجرٍ منخفضٍ عرضاً بالكرات القرمزية.

لم يحاول الأطفال إخفاء قلّة حماستهم، حتّى عندما ألقى أحدهم قصيدةً من مدغشقر مترجمةً إلى الفرنسية، اختيرت بسبب كونها متعدّدة الثقافات:

شكراً من أجل الأدغال!
شكراً من أجل الشمس!
شكراً من أجل
البرد!



فليذهب السيّد مايومبه ليشنق نفسه في مكانٍ آخر! هذه هي المعاني الواضحة التي شفّت عنها نظراتهم.

ودّع قاسم مرسيليا وهو يشقّ طريقه بين محبّيها الكثُر. تحدّى زمر السائحين الذين يذرعون دروب الميناء القديم وتسكّع لآخر مرّةٍ على طول رصيف البلجيكيّين، مستنشقاً رائحته الواخزة المنبثقة من المياه المالحة والسمك الطازج، محاطاً بصياح الباعة البدينين ذوي الأشداق الكبيرة. بل إنّه كاد يدخل متاحفها التي لم يوافق يوماً على اجتياز عتبتها حتّى عندما توسّلت إليه أميناتا أن يفعل. في المقابل، شعر بالعجز عن الذهاب لمواجهتها في مجمّع بومارشيه السكني على الرغم من أنّ قلبه ذاب حناناً وهو يتخيّلها تشتبك مع مسائل الجبر والهندسة. ما الذي سيقوله لها؟ ما الذي سيشرحه لها؟

عشيّة رحيله، لم يُطِق صبراً، فدخل إلى مقهى «برازيرو» سعياً للقاء عثمان بعد أن تجنّبه بحذر. في ذلك المساء، كان الجوّ في المقهى مشحوناً أكثر من المعتاد. فالفرقة الموسيقية أتت من إفريقيا الجنوبية والجميع مبتهجون.

بدا جوزيف مبتسماً، خلافاً لعاداته، وهو يغازل سودانيةً تتكلّم لغته. اضطرّ قاسم للصياح كي يسمعه: «أتيت للتوديع! أنا راحلٌ غداً إلى أميركا!».

فصاح جوزيف بالنبرة عينها: «إلى الولايات! يا لك من محظوظ! لطالما كان ذلك حلمي. أن أذرع أرصفة نيويورك».

أمام كآبة قاسم، شجّعه: «في ذلك البلد فحسب يستطيع زنجيٌّ أن يُظهِر شجاعته».

بدا قاسم غير مُصدِّق، فعلى الرغم من قلّة ثقافته، سمع على العكس من ذلك كلاماً عن إعدام الزنوج وعن الكلاب البوليسية التي تلتهم «الفهود السود».

أصرّ جوزيف: «انظر إلى كولن باول. ابن مهاجرين!».

في هذه الأثناء، اقترب عثمان الذي لم يُبدِ أيّ ضغينة، وشجّع قاسماً بتربيتة محبّة. كانت مشاعره أكثر تعقيداً. فقد بدا محتاراً بين القلق والحزن والغبطة والإعجاب.

قال: «انتبه جيّداً لنفسك! يقال إنّ الأميركيّين يكرهوننا، نحن المسلمين، منذ الحادي عشر من أيلول. يقال إنّهم يحتجزوننا في معسكرات اعتقال عبر أوروبا. رأيت ذلك في التلفزيون. توجد معسكراتٌ في كلّ مكان، حتّى في كوبا».

احتجّ جوزيف الذي لم يكن يخفي تعاطفه مع الشيوعية: «أنت مريض! ليس في كوبا! هذا مستحيل!».

لم يأتِ قاسم لمناقشة العلاقات بين الأميركيين والمسلمين أو الإيديولوجيا في كوبا. لقد أتى للحديث عن محبوبته أميناتا، ليحاول التخفّف من الندم على سلوكه الذي لا يمكن وصفه. انتحى بعثمان جانباً وتوسّل إليه: «اذهب لمقابلة أميناتا من طرفي. قل لها إنّني أحبّها. إنّني لا أحبّ سواها».

فأجاب عثمان: «اذهب لتقول لها ذلك بنفسك. أنا متأكّدٌ من أنّها تفضّل سماع ذلك منك».

بكى قاسم: «لا أستطيع. لا أجرؤ. قل لها إنّني سأعود. إنّني لن أخونها أبداً».

علّق عثمان: «الناس يقولون ذلك، يقولون ذلك. ثمة فتياتٌ كثيراتٌ تحت الشمس».

فهو خبيرٌ في الوعود التي تذهب أدراج الرياح.

الأبيض

.1

جبريل الذي يطلق رمزي عليه لقب عمّه بدافع الاحترام هو في الحقيقة ابن عمّه، ابنٌ لعمٍّ أكبر من أبيه، وهو رجلٌ قصيرٌ حزين الملامح، يرتدي كندورةً تتجاوز كتنّورةٍ معطفه ذا اللون الترابي. لم ينبس جبريل ببنت شفةٍ أثناء الطريق من المطار. لذا، تمكّن قاسم من أن يتأمّل على راحته سيّارات الأجرة الصفراء التي تتسابق، ومنظر ناطحات السحاب خلف نهر «إيست ريفر»، هذه الصور التي عمّمتها السينما وبدت فجأةً حيّةً.

يسكن جبريل على التقاطع بين جادّة آدام كلايتون باول جونيور والشارع 110. أحاط البوّاب ذو الرداء الرسميّ رمزي بالاهتمام، غير أنّه ألقى نظرة ازدراءٍ على قاسم وتركه يتدبّر أمور الحقائب. تبقى الأمور متطابقةً على جانبَيْ المحيط. على عتبة الطابق الخامس، كانت بانتظارهم امرأةٌ استقبلتهم بحفاوة: لاشاسكونا، واسمها الحقيقيّ دولوريس، زوجة جبريل. قبل أن يستقرّ جبريل في نيويورك، عمل لسنواتٍ في مطابخ «إس إس فرانكونيا»، وهي باخرة رحلاتٍ سياحية تسلك طريق «فورت لاودرديل» وقناة بنما والإكوادور وبيرو وتشيلي والأرجنتين والبرازيل، ثمّ تعود إلى «فورت لاودرديل»، وتتكوّن حمولتها من المتبطّلين الأثرياء. أثناء

محطّةٍ في ميناء «مانتا»، في الإكوادور (لأولئك الكسالى في الجغرافيا)، التقت لاشاسكونا بجبريل. كانت تضع في النهار سمك الطون في العلب في مصنع غوستامار، إلى جانب ثلاثمئة وخمسين عاملة أخرى. كان ذلك العمل هو العمل الوحيد المأجور المتاح في الميناء الصغير. وفي الليل، تغنّي أغنياتٍ ملتزمة مع مجموعةٍ من عازفي موسيقا البايادا(*) المطرودين من أراضيهم. تشوّش جبريل بسبب الرائحة التي تنبثق منها لعدم تآلفها مع الاستحمام والدوش والكريمات، وكذلك بسبب جمالها -ولهذا تُلقَّب لاشاسكونا، إذ إنّها تشبه زوجة بابلو نيرودا الثالثة- فسارع للعودة إلى السفينة ليشتري زجاجةً من عطر شانيل رقم 5، المرذاذ، ماء التواليت، وطلب منها لدى عودته إلى الميناء أن تتزوّج به. قال إنّه مستعدٌّ للتخلّي عن البحر من أجلها. وافقت وهي تطلق هتاف أوصَنّا(**) مفعماً بالفرح، خلافاً لرأي عائلتها الكاثوليكية العنصرية التي كان هذا الزنجي المسلم بالنسبة إليها تجسيداً للشيطان. لم يكن ثمة تناغمٌ جسديٌّ بين الزوجين، لكنّهما صمدا. لم يعكّر سعادتهما إلّا حرمانهما من الأطفال. حاولت دولوريس تعزية نفسها عن هذا العقم بتربية الطيور الغريبة. تملك منها قرابة ثلاثين طيراً، تربّيها في أقفاصٍ مصنوعةٍ بأغصان الخوص: ببّغاواتٌ من نوع براكيت مختبئةٌ في معاطفها المصنوعة من الريش، وببّغاواتٌ سوداء الرأس، وطائرا كيتزل قرمزيان اشترتهما بسعرٍ باهظٍ من بائع طيور في سوهو، وطيور يقمَر، وعددٌ كبيرٌ من طيور البفن. بكت كثيراً عندما مات مورينو، طائر طوقان توكو الذي كان لديها، واضطرّ جبريل إلى رميه

(*) Payada: تقليدٌ موسيقيّ شعبيّ أصليّ في الأرجنتين والأورغواي وجنوب البرازيل وجنوب باراغواي.

(**) صرخةٌ تعبّر عن طلب المساعدة الإلهية.

مع النفايات. منذ عشرين عاماً تقريباً، تقاوم دولوريس الولايات المتّحدة الأميركية. فهي لا تتفرّج إلّا على القنوات التلفزيونية الناطقة بالإسبانية. لا تقرأ إلّا الصحف الصادرة بالإسبانية ولا تخالط إلّا «اللاتينيّات»، وهنّ عموماً من بورتوريكو أو الدومينيك، ينظّفن المنازل في المباني المجاورة. أمّا هي، فقد كدحت بما يكفي لترتاح، باستثناء عصر أيّام الأحد حيث تصنع شراب الشوكولا على الطريقة البيروفية، أي إنّه سميكٌ ومحلّى بإفراط.

تطلّ نوافذ غرفة قاسم على مشهد الاحتضار المهيب لأوراق أشجار «سنترال بارك». يسحقه هذا التكديس للقرمزي والذهبي، مع الظلّ الأرجواني لشجرةٍ مجهولة، هنا وهناك، أعلى، أكثر استقامةً، أكثر عموديةً. يأخذه الحال وهو ينظر أيضاً إلى رقصة سيّارات الأجرة التي لا تتوقّف. صحيحٌ أنّ السينما والتلفزيون جعلا نيويورك مألوفةً على مثال تلك الحيوانات البرّية التي نعرف أشكالها بفضل أطالس الجغرافيا، على الرغم من أنّها تبقى مخيفةً. فيلة. حمير وحشية. ضباع. فهود. نمور البنغال.

منذ أن تستيقظ نيويورك، تدخّن وتزمجر وتُطلِق ريحاً وتهمر وتتجشّأ سيولاً من البشر الذين تزدحم بهم الأرصفة والطرق، بحيث يشلّون السير على مدى النظر. لم يكن قاسم يغادر الشقّة قبل الخامسة مساءً، فيرتدي ملابسه بتعجّلٍ ثمّ يذهب، وهو يحاول ألّا يراه أحدٌ، لمساعدة جبريل في مطعم «كليمنجارو». يشبه هذا المطعم مطعم «فوتا تورو» وكأنّهما أخوان، وكان قاسم يندسّ فيه بالارتياح الذي يجلبه الدخول إلى ملاذ. فالأشخاص الأحياء في نيويورك يبثّون الرعب في قلبه. هؤلاء الضخام الذين لا يشبعون، ويذرعون الأرصفة بحثاً عن المخدّرات.

تفاهَم قاسم بسرعةٍ مع جبريل، بل بأسرع ممّا مع عثمان. فتماثُل

طباعهما تغلّب على الفارق في العمر بينهما. كلاهما غير ثرثارَين، أخرقان، لا يشعران بالراحة في الأماكن العامّة. يتشاطران الولع بالطبخ. وفي «كليمنجارو»، ينهمكان بالقدر عينه أمام المواقد، متواصلَين عبر تبادل الملح والبهار والشبت والكمّون. يمدّ جبريل الملعقة الخشبية فيفتح قاسم فمه ويغلق عينيه، ويوافق أو لا يوافق.

كان جبريل مسلماً مؤمناً. ويوم الجمعة، يأخذ قاسماً معه. يمشيان جنباً إلى جنبٍ وهما يتأبّطان سجّادة الصلاة حتّى مسجد الجادّة الثالثة، وهو يقع -للمفارقة- على بُعد خطوتين من الكنيس الذي يدلف إليه اليهود. في الماضي، لم يكن قاسم يتخطّى عتبة مسجدٍ من دون شعورٍ بعدم الارتياح. ألم يكن مجرّد محتالٍ شرّير؟ لكنّ هذه الخشية أخذت تتبدّد يوماً بعد يوم. هذا الدين هو دينه. وذلك لا يعود إلى الختان الذي فرضته أميناتا. لقد فاز به، اكتسبه، مثلما يكتسب عسكريٌّ رُتبه.

بعد الصلاة وبانتظار العودة إلى «كليمنجارو» -وكانت تلك النزوة الوحيدة في نظام الأسبوع المكوّن من العمل والنوم-، يذهب جبريل وقاسم لشرب الشاي الأخضر في مقهى «ملتقى الأصدقاء». ملصقاتٌ بالفرنسية، من فضلكم، في قلب الجادّة الثالثة. تحيط به مصابيح النيون لكنّه يصمد أمام جيرانه: بيتزا هات، ماكدونالد، دنكين دونتس. القسم الداخلي ذو طابعٍ بالغ الفرنسية. مفارش فيشي باللونين الأبيض والأحمر. على الجدران صورتان لآخِر رئيسَيْ جمهورية، أحدهما طويلٌ جدّاً والثاني أميل إلى القِصر، وعلى شفاههما الابتسامة الخفيفة عينها. وخلفيةٌ موسيقية، إيديث بياف(*):

(*) Édith Piaf (1915–1963): مغنّيةٌ ومؤلّفةٌ موسيقيةٌ وممثّلةٌ فرنسية.

بادام بادام،
كان يمشي راكضاً خلفي...

أو براسنس(*):

عندما كانت مارغو تفكّ صدّارها
لتقدّم القطرة لقطّها...

شعر قاسم بالذهول لعدد الناطقين بالفرنسية الذين تؤويهم نيويورك. فنّانون مزيّفون، مثقّفون مزيّفون، متبطّلون أصيلون، محترقون، رجال أعمالٍ لا أشغال لديهم، وجميعهم يتكلّمون بلكنةٍ مرعبةٍ لكنّهم يحافظون على هذا الاختلاف. كان هنالك ثلاثةٌ من المارتينيك، وأيضاً، ويا للمعجزة، غوادلوبيٌّ لا أكثر ولا أقلّ سواداً منه، شابن كما يقولون هناك، وُلد في وونش. غريبةٌ هي اللغة، فهي تربط ربطاً وثيقاً، وثيقاً، من دون اهتمامٍ بالألوان. بسرعةٍ شديدة، أصبح زاراميان المفضّلَ لدى قاسم، وهو خلاسيٌّ وضعه أشدّ غرابةً منه، لأنّه وُلد لأبٍ تركيٍّ وأمٍّ كندية أصابها في قلب مدينة أوتاوا داء الحبّ الذي يسري(**) وأرغمها على إنجاب أربعة أطفال. بات زاراميان يعامل قاسماً بطريقة معاملة رمزي له، كأنّه غلام، أخٌ صغيرٌ أو حيوانٌ أليف. غير أنّه كان أقلّ وسامةً وإغواءً من رمزي بكثير، ولم تكن مداعباته أو ملامساته له تثير اضطراباً لديه. يمكن القول إنّ رفقةً صريحةً سادت بين الشابّين. أخذ زاراميان يدعو قاسماً للتحليق بجناحيه ولأن يصبح راشداً.

(*) Georges Brassens (1921-1981): ملحّنٌ ومؤلّف أغانٍ ومغنٍّ فرنسي.
(**) تلميح إلى أغنية «داء الحبّ *La maladie d'amour*» للمغنّي الفرنسيّ ميشيل ساردو.

قال له وهو يشير إلى جبريل: «لن تعيش إلى الأبد عند هذا العجوز!».

فتمتم قاسم: «وإلى أين تريدني أن أذهب؟».

- إلى بيتي! أنا أبحث عن مستأجر.

ثمّ شرح له أنّه يعيش في شقّةٍ من ثلاث غرفٍ في إيسترن باركواي في بروكلين، كبيرةٍ عليه وحده وباهظة التكلفة بالنسبة إلى ميزانيته! لو أنّ قاسماً يتحلّى بشيءٍ من الجرأة، لابتسم له الحظّ بالتأكيد. فمن المعروف أنّ نيويورك تفّاحةٌ لذيذةٌ لمن يمتلك أسناناً قويّة!

لم يكن قاسم لمس امرأةً منذ أن ترك حبيبته أميناتا. لكن على الرغم من إخلاصه لها، فإنّ مشاعره نحو لاشاسكونا أصبحت أكثر فأكثر عنفاً. إذ كانت من النخب الأوّل من النوع الذي يحبّه! نحيلةٌ كغصن الجوّافة، بطنها أملس ويبرز فوقه صدرها، والرجال يلتفتون عندما تمرّ. كان بوسعها، بصوتها المغرّد الذي يتلفّظ بحرف الراء كما هو ويخلط بين حرفَيْ الباء والفاء، أن تطلب منه ما تشاء: فرز النفايات وتوزيعها في أكياسٍ بلاستيكيةٍ متباينة الألوان من أجل إعادة التدوير، تنظيف أقفاص الطيور، النزول إلى القبو للغسيل، المسارَعة إلى برودواي لشراء ألواح الشوكولا وبرشها. ولمكافأته على هذه الخدمات الصغيرة، تنفحه بضعة دولاراتٍ يوم الأحد لدى الخروج من كنيسة القدّيس يوحنا الإلهي، وهي الأوراق النقدية الوحيدة التي امتلكها، لأنّ جبريلاً لم يكن يدفع له المال مقابل عمله في المطبخ. بعد الظهر، يقدّم الشوكولا للمدعوّين في أقداحٍ صغيرةٍ من الإكوادور، في حين أنّه كان عاجزاً عن أن يشرب منها. في طفولته، كان كيليرمان يميّز كلّ عيدٍ بطبقٍ خاص. ففي عيد الميلاد، يكون الطبق خنزيراً رضيعاً مشويّاً يصل إلى المائدة وهو يلتمع بالهلام،

وفي فتحة خشمه قرنٌ من الفلفل في حين تمتلئ أذناه بالبقدونس. ويوم ثلاثاء المرفع، يكون الطبق فطائر مقليّة. وفي عيد الفصح، الكالالو. أمّا في عيد العنصرة، فطبق الماتيتيه بالسلطعون البحري. وفي عيد ميلاد أحد أفراد الأسرة، يكون الطبق هو الشودو. والأحد الشوكولا بالفانيليا. كانت إيرمين، شقيقة كيليرمان الكبيرة، ترسل له بانتظامٍ طروداً من عيدان الكاكاو الحلو والشوكولا السوداء والمرّة. لماذا يثير هذا المشروب فيه مثل هذا الحنين؟ ها هو ذا يرى مجدّداً أبويه وقد تقدّم بهما العمر وأصبحا واهنين مثلما ظهرا له يوم زيارته إلى سوسي، ويدرك أنّها الصورة الأخيرة التي ستبقى في ذاكرته. كيف يمكن تخيّلهما يعيشان منفصلين؟ كيليرمان تحت شمس الأنتيل القاسية، ودراستا في مزرعةٍ في رومانيا.

بعد أن تحتسي لاشاسكونا الشوكولا مع صديقاتها، تستمع إلى أغانٍ فلكلورية. كانت تحبّ القول إنّها لو ثابرت، لصنعت لنفسها مجداً ولما كانت، في الخامسة والأربعين من عمرها، تذوي في بلدٍ من البرابرة والمنحرفين.

بلغ من قوّة شخصيّتها أنّ رمزي نفسه، وهو الذي لم يكن يهتمّ لا بالنساء ولا بالرجال، بدا واقعاً تحت سحرها. فكان يقدّم لها علب ماكياج من نوع جيمي مابيلّين وبورجوا وبلاك أوبن، إضافةً إلى عطورٍ فرنسيةٍ مرتفعة الثمن. يجب القول إنّ ذلك لم يفِد في شيء. فقد ارتابت به، مثل أميناتا، منذ الوهلة الأولى وناصبته العداء. تحكي عنه وهي ترتجف: «هل رأيت عينيه؟ إنّه ليس إنساناً، بل الشرّ مجسّداً. إبليس. عندما ينظر إليّ، أعلم أنّه يتخيّلني ميّتةً وينساق إلى شتّى صروف الفظائع مع جثّتي. قيل لي...».

هنا، تخفض صوتها ويخيّل لقاسم أنّه عاد إلى «بورتو فيراي»، عندما كانت أسوأ الحكايات تُحكى عن رمزي.

فور وصول رمزي إلى نيويورك، أجرى تحوّلاً جذرياً جديداً. فقد ارتدى رداء مقاومٍ سياسيٍّ وبات يجمّل نزاعاته مع بيغ بوس، فيذكر محادثةً يزعم أنّها حدثت بينهما: «قلت له: اسمع أيّها الرئيس! الثورة عذراء شرسةٌ أيّها الرئيس. لا أحد يستطيع النوم بالقوّة في سريرها».

أخذ يتطوّر في فضاءٍ آخر. ولئن كان هو أيضاً يقيم عند جبريل، فلم يكن أحدٌ يراه هناك مطلقاً. فهو في الخارج أثناء البرد، يسارع إلى مواعيد غامضة. لا يعود أبداً قبل الفجر. لطالما اعتنى بمظهره في الماضي، لكنّه الآن متأنّقٌ حقيقي. تخلّى عن ملابسه الإسلامية وأخذ يعتمر قبّعاتٍ من اللبّاد تظلّل عينيه الرماديّتين، وسيجارٌ له خاتمٌ لا يفارق زاوية فمه. في هذا البلد الذي وصله توّاً، بدا كأنّه يمتلك كرّاس عناوين مهمّاً ويتعشّى كلّ مساءٍ محاطاً بعصبةٍ من السود والخلاسيين والآسيويين، في صالون «كليمنجارو» الخاص. يترك ديوناً مخيفةً لجبريل الذي يخشى على أمواله ويضغط على قاسم بالأسئلة: «هل تعتقد أنّه سيسدّد لي أموالي؟».

طيلة ثمانية أيّام، انفرد رمزي بكورنيل وهيوستون جاكسون. كان كورنيل جاكسون وتوءمه هيوستون قد أدارا ظهريهما لبؤس ألاباما وصعدا إلى نيويورك، فأصبح أحدهما مديراً لسلسلةٍ من دور دفن الموتى تدعى «جاكسون فيونيرال هوم»، والثاني مؤسّساً لخطٍّ لإنتاج موادّ التجميل، خطّ «كوين أوف شيبا». لكن لسوء الحظ، بعد انطلاقةٍ مبهرة، أخذت أشغالهما تتراجع وكانا على وشك إغلاق جزءٍ من دور دفن الموتى التي يمتلكانها. ما الذي يأمله رمزي منهما؟ مغازلة الخاسرين ليست من شيمه.

لكن في المساء التاسع، عُقدت صفقةٌ غامضة.

عندما أتى قاسم تلبيةً لنداء رمزي الذي كان يفيض فرحاً، وجد الرجال الثلاثة جالسين حول الطاولة ومن حولهم تفوح رائحة سيجار الهافانا وكونياك كورفوازييه التي كانوا يستهلكونها بوفرة.

قال رمزي: «أقدّم لكما قاسم مايومبه، مساعدي».

كان كورنيل وهيوستون عملاقين يبلغ طول أحدهما متراً وخمسةً وتسعين سنتيمتراً وطول الآخر متراً وثمانيةً وتسعين سنتيمتراً، على جبهتيهما حاجبان كثّان ورماديّان. أمرٌ واحدٌ يميّز بينهما. فصوت كورنيل بالغ الحدّة، يثير الضحك عندما يُربط بهذا الجسد الضخم. أمّا هيوستون، فصوته جهورٌ قويٌّ ورخيم. رسما ابتسامة مجاملةٍ باتّجاه قاسم. أدرك رمزي تأثير هذا الشابّ الصغير ذي العين العوراء والشعر الأشعث والرداء الرياضي الصارخ الألوان المصنوع من الأكريليك، فأضاف: «إنّه يبدو هكذا. لكن لا تنخدعا. لقد أحسنت تدريبه وهو مطّلعٌ اطّلاعاً جيّداً على "التزيينات". لقد خضنا جولاتٍ معاً في "بورتو فيراي". أليس كذلك يا قاسم؟».

آنذاك، قرّر الشقيقان جاكسون أن يشدّا على يده من دون حماسة.

تنهّد رمزي عندما أدارا الظهر.

– هذا البلد غريب. مهما قيل عنه، فهو منقسم، في القرن الحادي والعشرين. البيض مع البيض والسود مع السود والآسيويون مع الآسيويين، وهكذا دواليك. منذ أن وُجدت «جاكسون فيونيرال هوم»، أي منذ عام 1975، لم "يزيّن" كورنيل إلّا أناساً من لونه. لاحِظ أنّ هذا الأمر ليس من

شأننا. ما يهمّ هو أنّه ليس من داعٍ هنا لبذل الجهود من أجل فرض "التزيين". فهو موجودٌ أصلاً في عادات الأميركيين، سوداً وبيضاً.

تأوّه قاسم: «سنعمل إذاً في "جاكسون فيونيرال هوم"؟».

أجاب رمزي: «بدءاً من يوم غد! في الثامنة والنصف صباحاً».

ثمّ التقط معطفه المعلّق واعتمر قبّعته، وطبع قبلةً على جبين قاسم ثمّ مضى هو أيضاً.

بعد أن بقي قاسم بمفرده، وضع رأسه بين يديه. تولّد لديه إحساسٌ بأنّه غائصٌ في حوضٍ مليءٍ بالثلج. استئناف «التزيينات»؟ لم يكن ثمة شيءٌ يثير استياءه أكثر من ذلك. كم يشعر بالراحة في مطابخ «كليمنجارو»! لكن الآن، بعد أن تبع رمزي حتّى نيويورك، كيف يقول له لا؟

وارب جبريل الباب، ملتفّاً بمعطفه وعلى رأسه قبّعةٌ صوفيّةٌ تصل حتّى العينين وتبتلع نصف وجهه: «هلّا نمضي؟».

أنزلا قواطع الكهرباء وشغّلا نظام الإنذار. ثمّ ساعد قاسم جبريلاً في تثبيت الحواجز الحديدية التي يُفترَض فيها أن تحمي النوافذ من اللصوص.

في الخارج، اكتشف أنّ الثلج تساقط، مستعجلاً إلى حدّ أنّه لم ينتظر عيد الشكر، وهذا الوشاح الأبيض الملفوف حول المجمّع السكني ذكّر قاسماً بأوشحةٍ أخرى، بحالات حدادٍ باتت بعيدةً، لكنّها لم تصبح أبداً طيّ النسيان.

كلّ المدن جميلةٌ عندما يحلّ الظلام. فعتمة الليل رحيمةٌ، تلفّها بين ثناياها. تخفي طرقها غير المرسومة جيّداً والمباني القبيحة والأبنية الباهظة الثمن. لكنّ نيويورك ملكة الليل، كرّستها أجيالٌ من المعجبين. لا ينضب

دفق المشاة والسيّارات أبداً. تحت أنوار أعمدة النور الشبيهة بالفوانيس، يصبح هذا الدفق رقصةً، باليه يديره أعظم مصمّمي الرقصات، ويتحوّل المشهد إلى كرنفالٍ ضخم. غير أنّ قاسماً كان، في تلك اللحظة، قليل التأثّر بهذا الجمال، إذ شعر بأنّه على وشك ذرف الدموع.

قال لاهثاً وهو يمسك بقبضة جبريل: «اسمع يا بابا، اعذرني فلن أعود معك. سوف أذهب إلى "ملتقى الأصدقاء"».

حدّق جبريل في وجهه. ما الذي دهى هذا الشاب؟ في مثل هذا الوقت! لم تكن تلك شيمه، فهو رصينٌ ومرتّبٌ مثل ورق تدوين النوطة الموسيقية. دولوريس هي التي ستستاء. اختفى قاسم في العتمة من دون أن ينتظر جواباً وسارع في الذهاب، غير عابئٍ بالانزلاق.

فلنختتم! ما الذي كان يأمل به قاسم؟ ما الذي كان سيحدث لو أنّه عثر على زاراميان في «ملتقى الأصدقاء»؟ ربّما تغيّر مجرى حياته لو حدث ذلك. غير أنّ مصائرنا مكتوبةٌ لنا سلفاً. لم يرَ زاراميان على الرغم من تجوّله في الصالة الكبيرة وهو يشقّ طريقه بين الشاربين، بل حتّى بعد أن نزل إلى القبو. اضطرّ لشرب الشاي الأخضر بالنعناع بمفرده.

قرابة منتصف الليل، قرّر العودة إلى البيت.

.2

هكذا، سلك قاسم ورمزي صباح اليوم التالي طريق إحدى دور «جاكسون فيونيرال هوم». لم تكن تلك الدار بعيدة، إذ تقع في مكانٍ أعلى قليلاً، في هارلم، الشارع رقم 135. على اليمين واليسار تنتصب الـ *brownstones* الشهيرة، تلك المنازل الباهظة الثمن المبنية من الحجارة البنّية والتي كانت تعيش فيها في الماضي العائلات البرجوازية السوداء. تتضمّن دار «جاكسون فيونيرال هوم» نصف دزّينةٍ من القاعات المتدرّجة في فخامتها. كلّ شيءٍ يعتمد على السعر الذي يوافق المرء على دفعه لذرف دموعه. لا يلفت المبنى النظر من الخارج، فهو رباعيّ أضلاعٍ ضخمٌ نوعاً ما، تعلوه، ويا للغرابة، قبّةٌ حجريةٌ تعلوها مسلّةٌ طويلة. أمّا الداخل، فيثير الدهشة، إذ لم يبخل عليه كورنيل لا بالمرمر ولا بالزجاج الملوّن ولا بالتماثيل ولا باللوحات. كان يقال إنّه ذهب إلى اليونان، موطن الأضرحة، لإثراء خياله. وُضِعت بفواصل منتظمة جرارٌ بيضاء مملوءةٌ بالأزهار المتفتّحة المتماثلة في اللون: الزنبق والغاردينيا والورد والسوسن. في كلّ مكانٍ يتردّد بخفوتٍ صوت ألحان قدّاسٍ تعرّف عليه قاسم وهو يرتجف: قدّاس دفوراك، المفضّل لدى أونوفريا...

وجد قاسم مجدّداً أكثر ما يكرهه، الرائحة. تلك الرائحة التي لا تُضاهى، وتلتصق حسب اعتقاده بالملابس والجلد والشعر. هذه الرائحة التي يعثر عليها في الأطعمة التي يأكلها والنبيذ الذي يحتسيه والملاءات والأغطية التي يلتحف بها.

عيّن كورنيل لهما مساعداً اسمه بِن، وهو أشبه بكازيمودو أميركيٌّ من أصلٍ إفريقي سيّئ الهندام، فظّ، مئزره ملطّخٌ على الدوام بالدم وبآثار السجائر، لديه عادةٌ رهيبة، الدندنة من بين أسنانه. لم يكن يوفّر شيئاً: *My Funny Valentine, Like a Rolling Stone, Red Sails in the Sunset* وكلّ أغاني مارفن غاي(*). استؤنف في هارلم الروتين الذي ترسّخ في «بورتو فيراي». إذ يعمل الرجال الثلاثة معاً ويؤدّون الجزء الأكبر من المهمّة. ثمّ ينسحب بِن وقاسم، تاركَين رمزي يجري اللمسات الأخيرة. إذ يكرّر إنّه يحرص على البقاء بمفرده في تلك اللحظات لأنّه لا يثق إلّا بموهبته، فيلبّي رغبتَه بِن وقاسم عن طيب خاطر، بسبب شعورهما بالإنهاك. يستفيدان من ذلك بتناول الطعام في الكافيتريا. ومع الوقت، نمَتْ بينهما صحبة، ولو أنّها لم تتطوّر إلى صداقة. لم يكن بِن يتحدّث إلّا عن نفسه، مذكّراً قاسماً بضروب مناجاة رفيقه في الماضي، عبد القادر. لكن هنا، لا توجد مأساةٌ عاطفية. يحكي بِن عن حياته ولا يملّ قاسم من الاستماع إليه. فهو لم يقرأ لأيّ كاتبٍ أميركيٍّ من أصلٍ إفريقي، ووجد حديث بِن أفضل من رواية. وُلد بِن في فقرٍ مدقعٍ في ماكون، وهي مدينةٌ صغيرةٌ جنوبي الولايات المتّحدة. ذات مساء، فجّ والدُه الذي شرِب أكثر من المعتاد رأسَ أمّه بالبلطة. على أثر ذلك، حاولت دوائر الخدمات الاجتماعية عبثاً إيجاد عائلةٍ تتبنّاه هو

(*) Marvin Gaye (1939–1984): مغنٍّ ومؤلّف أغانٍ وملحّنٌ أميركي.

وأخته. فقد كانا، لسوء الطالع، أسودَيْن أكثر ممّا ينبغي. ثمّ أُوكل أمره إلى امرأةٍ من الأقارب البعيدين، مدمنةٍ على المخدّرات، تنسى تحضير الطعام عندما تتناول جرعتها. في العشرين من عمره، عرف الربّ بفضل جماعةٍ إنجيليّةٍ علّمته أيضاً القراءة والكتابة. وصل إلى نيويورك بحثاً عن عمل، فالتقى إلهه الجديد مجسّداً بكورنيل جاكسون. كان لا يشبع من الحديث عندما يتعلّق الأمر بوصف ما يقدّمه الشقيقان جاكسون لجماعتهما. فيكرّر قائلاً: «إنّهما ليسا رجلين عاديّين، بل قدّيسان!».

ذات مساء، أوقف بِن ثرثرته المعتادة وتوقّف عن مضغ شطيرة اللحم بالجبن الخاصّة به، ثمّ حدّق في عينَيْ قاسم مباشرةً: «منذ متى تعمل معه؟».

بدرت عن قاسم إيماءةٌ غامضة: «منذ وقتٍ لا بأس به. عملنا معاً في إفريقيا».

– وما الذي يفعله عندما يصبح بمفرده، في رأيك؟

قال قاسم وهو يتلعثم: «يضع اللمسات الأخيرة! أحمر الخدود، المساحيق، طلاء الأهداب. إنّه خبيرٌ بخاصّةٍ في طريقة رفع الأهداب».

قطّب بِن حاجبيه: «قلت لي رفع الأهداب؟!».

حنى قاسم رأسه: «أجل! إنّه فنٌّ عظيم».

تجهّم بِن: «ألا يبدو لك ذلك غريباً؟ شخصياً، أراهن على أنّه يفعل أمراً آخر تماماً!».

– وما هو هذا الأمر؟

انحنى بِن وملأ منخارَي قاسم برائحة نفَسه الكريهة: «هل تعرف عنوان ذلك الفيلم الذي تلعب بطولته مارلين مونرو وعنوانه "بعضهم يفضّلها ساخنة"؟ هنا، العكس بالأحرى هو الصحيح. إنّه يحبّهنّ باردات».

أرفق جملته بضحكةٍ لئيمة. شعر قاسم بالفزع وأصرّ على عدم الرغبة في الفهم: «ماذا تعني؟».

فقال بِن شاتماً: «لا تتظاهر بأنّك أكثر حماقةً ممّا أنت عليه!».

قال ذلك ثمّ ذهب، مستاءً، لتقشير برتقالته على طاولةٍ أخرى.

نظر قاسم إلى ظهره العريض المغطّى بقميصٍ صوفي، قماشه على شكل مربّعاتٍ حمراء وبيضاء.

قال في نفسه: أوَلم تراودني مثل هذه الشكوك؟

تذكّر الاتّهامات التي تفوّه بها أفرادٌ مختلفون مثل حفصة وأديمار وإيبوني ستار وبيير جيل، وانتابته رغبةٌ شديدةٌ بالتقيّؤ.

بعد بضع ساعات، ذهب ليلاقي رمزي في سيارة الليموزين الفاخرة المستأجرة. هتف هذا الأخير عندما رآه: «ماذا بك؟».

أمّا هو، فبدا في غاية السعادة. مستنداً إلى الوسائد الجلدية وفي يده كأسٌ من الويسكي، كان يدخّن سيجار هافانا وملامحه تدلّ على الارتياح، على السعادة. سرد له قاسم حديثه مع بِن بصورةٍ تلقائية، وقد خرج عن طوره، من دون أن يعلم أيّ أمرٍ يطيع. لم يبدُ على رمزي أيّ انفعال، واكتفى بالسؤال: «هذا إذاً ما قاله؟».

ثمّ أغلق جفنيه وقال باسترخاء: «لا تسمح لمثل هذا الأمر البسيط بتعذيبك. من هو بِن هذا؟ مجرّد نملةٍ يدوسها جنود سليمان، مثلما يقول الكتاب المُنزل».

إذ إنّه عاد لذكر القرآن في كلّ مناسبة.

كان قاسم يكره الحفلات التي يقيمها الشقيقان جاكسون في نهاية الأسبوع، بقدر ما يكره العمل في دار دفن الموتى.

يسكن كورنيل وهيوستون، العازبان كلاهما، دارةً اشترياها أيّام تألّقهما من أحد أقطاب صناعة النقانق، تضمّ ما لا يقلّ عن خمسٍ وعشرين غرفةً تحت سقفٍ على شكل معبدٍ صيني، لأنّ صاحبها السابق كان مغرماً بشنغهاي. تقع الدارة في نيوجرسي، وسط غابةٍ يصطاد فيها الناس الغزلان صيفاً. أمّا شتاءً، فلو أنّ الأشجار كانت أقلّ تجرّداً من أوراقها والأرضَ أقلّ اكتساءً بالجليد، لذكّر هذا المنظر قاسماً بمنظر القصر الرئاسي، بخلاف أنّه لم يكن يحتوي أشباحاً. كانت لياليه بالغة الطول، إذ يمضيها وهو يتقلّب في سريره من دون أن يتمكّن من النوم. وغرفة نومه واسعةٌ إلى حدّ بثّ الرعب في قلبه. المساحة حول سريره تُشعِره بالفراغ. عندما تجرّأ لأوّل مرّة على الخروج إلى الحديقة، وقد أضناه أرقه المعتاد، انقضّ عليه حارسٌ يرتدي ملابس رائد فضاء وهو يشرع بندقيّته. كان أميركياً من أصلٍ إفريقي في نحو العشرين من العمر، جهد لإكساب وجهه الطفوليّ تعبيراً مهدِّداً. قال له: «يا معلّم! انتبه لنفسك! هنا نطلق النار بدايةً، وبعد ذلك نتأكّد».

احتجّ قاسم: «لا تطلق عليّ صفة "المعلّم"! أنا لست معلّماً لأحد».

فقال الآخر بتبجيل: «ألستَ مساعد الدكتور رمزي؟».

أقنعه قاسم: «هو القويّ ربّما. أمّا أنا، فلا!».

سأل الحارس ذو العينين اللامعتين: «هل صحيحٌ أنّ الرئيس نفسه كان يخاف منه في بلده؟ هل صحيحٌ أنّه يستطيع أن يصبح غير مرئيٍّ مثلما في الفيلم، أو أن يقفز في الهواء مثل الرجل الوطواط أو الرجل العنكبوت؟».

هكذا إذاً، الهذر عينه والأساطير عينها تعبر البحار. هل الناس ساذجون بالقدر عينه أينما كانوا؟

في ما بعد، ولكثرة تصادف قاسم والحارس الشابّ جو في الحديقة

المتجمّدة، باتا رفيقين. يستغلّان سقوط حجرٍ من أحجار السور ويقفزان من فوقه. يخفي الثلج صوت سقوطهما ويستقلّان الحافلة إلى راتكليف، وهي منطقةٌ متواضعةٌ من الخارج، لكنّها تستضيف مراقص ممتازة. ولا سيّما مرقص «فلامنغو». ومثلما أنّ مطعم «كليمنجارو» يشبه «فوتا تورو» شبهاً كبيراً، فإنّ مرقص «فلامنغو» يشبه «برازيرو». وهذا برهانٌ على أنّ البؤس والولع بالجنس مرتبطان في كلّ مكان.

بات قاسم يتساءل: أهذا ما يختصر حياتي؟ أمارس في النهار العمل الذي أكرهه. وفي الليل، أتنقّل من ملهىً ليليٍّ إلى آخر. أضع عثمان أو جو محلّ أديمار. ما السبيل إلى منح معنىً لحياتي؟

بما أنّ قاسماً لم يكن يتوقّف عن التحديق ببنات ملهى «فلامنغو»، باشتهاءٍ ممتزجٍ بالرعب، فقد عثرن له على لقب، مثل بنات «برازيرو»، يكاد يطابقه: «الفاقد».

كانت ذكرى أميناتا تعزّي قاسماً في عفّته.

أميناتا. ناتا ميا.

ماء الحبّ الذي سكبتِه لي،

هل سأعثر يوماً على نبعه؟

ما الذي تفعله الآن؟ هل بكته كثيراً؟ هل نسيَته؟ لم يكن يجرؤ على أن يكتب لها، مع علمه بأنّ كلّ يومٍ إضافيٍّ من الصمت يجعل صفحها عنه أصعب.

كانت حفلات الاستقبال في دارة كورنيل وهيوستون باهتةً حقّاً.

لا يصادف المرء فيها سوى أميركيين من أصلٍ إفريقيٍّ أو لاتينيٍّ وبعض الآسيويين. سياسيّون ومغنّون وكتّابٌ وممثّلون في السينما وصحافيّون،

يأتون بكامل أناقتهم. وعلى الرغم من أنّ كلّ واحدٍ منهم يزعم، في المحادثات الانفرادية، بأنّه يتمتّع بشهرةٍ واسعة، إلّا أنّ محادثاتهم الجماعية تدور بلا كللٍ ولا مللٍ حول «غياب الأقلّيات عن المشهد». وفي حال تمكّن أحدهم من رفع نفسه إلى القمّة، فهو لا يفعل شيئاً لجماعته ويكتفي بتكرار صوت سيّده.

كيف يمكن تغيير موازين القوى؟ هذا ما كانوا يتساءلون عنه بتوقّد.

لم يكن قاسم يأبه كثيراً بهذه المسألة المهمّة. استخدم كورنيل وهيوستون رئيس طهاةٍ يعود أصله إلى نيو أورلينز، خبيراً في تحضير ألذّ أطباق ملفوفات القريدس أو أرز جامبالايا. فكان قاسم، كلّما أتيحت له فرصة، يتّجه إلى المطابخ حيث يملأ منخاريه بعمقٍ بالروائح التي يفتقدها. غير أنّ تلك الزيارات المسروقة لم تُعجِب رئيس الطهاة، وهو شخصٌ غير متعاونٍ لا يقبل أيّاً كان إلى جانبه، كما لم تعجب رمزي الذي كان يقول له باستمرار: «عسى ألّا يخلطوا بينك وبين الخدم! اللعنة! أنت لست طاهياً!».

أنا ماذا؟ هكذا كان قاسم يتساءل، وقد أُحيل ثانيةً إلى تساؤلاته المعتادة.

آنذاك، يثمل بحزنٍ بفودكا سميرنوف ويتفرّس في الفتيات الجميلات، النادرات، إذ إنّ غالبية الفتيات الموجودات هنّ، كما يمكن أن نستنتج، شابّاتٌ طموحاتٌ يخفين مفاتنهنّ بأطقمٍ محتشمةٍ من ماركاتٍ شهيرة. كاياما جميلةٌ ومثيرة، تتوافق في شكلها مع ما يحبّه قاسم لدى النساء، فبشرتها بلون الشاي الفاتح وشعرها مصبوغٌ بالحنّة ومرفوعٌ بأناقةٍ إلى قمّة الرأس. وبما أنّ مغامرات قاسم السابقة جعلته متبصّراً، فقد فهم من

فوره بأنّها لا تهتمّ إلّا برمزي عبره هو. تهمس في أذنه بالأسئلة الدائمة: «هل صحيحٌ أنّ رئيس بلده كان يخاف منه؟»؛ «هل صحيحٌ أنّه يمارس السحر؟»؛ وتخفض صوتها: «يقال إنّ...».

أقاويل! أقاويل!

ذات مساء، بعد واحدةٍ من تلك الحفلات الخالية من الفرح، كان قاسم ورمزي عائدين إلى نيويورك عبر الطريق السريع. كان قمر ليل الشتاء المقطوعُ بالسكّين يقبع، بارداً، كجثّةٍ في السماء. فجأةً، أطلق رمزي تنهيدة رضاً عميقة: «لقد تمكّنت أخيراً من إقناع كورنيل وهيوستون! وصدّقني عندما أقول لك إنّ الأمر لم يكن سهلاً! أعمالهما تتدهور. إنّهما يتأسّفان، لكن هذا كلّ شيء. أشتغل عليهما منذ عدّة أسابيع! أعركهما مثلما تُعرك عجينة الخبز».

ضحك من مزحته بملء شدقه.

سأله قاسم: «إقناعهما بماذا؟».

– بالتحرّك الإيجابي. هما مؤمنان. يذهبان إلى الكنيسة كلّ يوم أحد.

بدأت متابعة قاسم له تخفّ بالتدريج. بات صوت رمزي مُلِحّاً: «ما نحتاجه هو وباءٌ جيّدٌ يعيد تعويمنا. في بروكلين وبرونكس ونيوجيرسي وكلّ القطاعات التي يمتلك فيها كورنيل دوراً جنائزية. آنذاك، ستدرّ علينا عمليات "التزيين" ثرواتٍ طائلة».

أمِل قاسم بأن يكون سمعه قد خانه، فردّد قائلاً: «وباء! ماذا تعني؟».

سادت لحظة صمت. كرّر قاسم سؤاله لكنّ الكلمات أخذت تختنق في حلقه: «هل هذا يعني أنّ ما يُحكى عنك صحيح؟ هل كانت لك يدٌ في الوباء الذي انتشر في "بورتو فيراي"؟».

هزَّ رمزي كتفيه: «ومن يكون في رأيك؟ كيف تتوقّع أن يكون الأمر غير ذلك؟».

تأكّد رمزي من إحكام إغلاق الزجاج الذي يفصلهما عن السائق وتحدّث حديث الراضي عن نفسه: «التقيتُ بالإيطاليّ ألدو مورافيا أثناء عشاءٍ في القصر الرئاسي. كنت أذوي في سامسارا وأتساءل عن سبيل الخروج من الغفلية والملل الذي أشعر به بسبب ذلك المنفى. أمّا هو، فقد أتى من أومبريا وفي ذهنه مشاريع عديدة. كان يحضّر لخطّ نيفرتيتي للتجميل ويسعى للحصول على الثروة بفضلها. فهِم كلٌّ منّا على الفور كيف يمكنه الاستفادة من الآخر. أصبحنا شريكين ثمّ صديقين».

تذكّر قاسم تلك الحيوات الفتيّة المحصودة وألم الآباء والأزواج والعشّاق والأصدقاء والحداد الذي جثم على المدينة ثمّ تأوّه: «هذا رهيب! هذا رهيب! كيف فعلتما ذلك؟».

واصل رمزي، بتباهٍ شديدٍ ومن دون أن ينضب معينه: «كنت أعمل في مختبري في سامسارا منذ خمس سنوات على نسغ البافو، وهي شجرةٌ تحتوي على سمٍّ زُعاف. لقد جعلته غير قابلٍ للكشف. غير قابل للكشف، أتسمعني؟ باختصار، كانت فكرتنا شديدة البساطة. يكفي إدخال كمية ضئيلة جدّاً من البافو في قلم حمرة، فتمتصّ الفتاة جزءاً منه وهي تتزيّن، ثمّ وهي ترطّب شفاهها، وتموت. وتكون المسألة قد حُلّت».

بات قاسم يذرف دموعاً سخيّة. واصل رمزي كما لو أنّ شيئاً لم يكن: «اخترت مع ألدو صبغةً جميلة، شديدة الشعبية، أحمر تانغو(*). طرحنا في الأسواق علباً رخيصةً وأصبح أحمر شفاه تانغو أحمر الشفاه الذي يقتل».

(*) Tango: لون برتقالي فاقع.

صاح قاسم: «وما هي المصلحة التي وجدها ألدو مورافيا هذا في ارتكاب جرائم كهذه؟ وأنت؟ وأنت؟!».

قال رمزي متباهياً: «نستطيع أن نقول أوّلاً: النقود. لقد حقّقنا أرباحاً طائلةً تُعدّ بالملايين. عندما كان الوباء في ذروته، لم يعد ألدو يستطيع إنتاج ما يكفي من أجل "التزيينات". غير أنّ الأمر لم يقتصر على المال».

قال حالماً: «إنّه.. إنّه.. شعورٌ بالقدرة؟ لا أعلم حقّاً ما هو...».

صمتَ ثمّ استأنف بنبرة الرضا عينها: «قدّمتُ إحدى تلك العلب الترويجية لأونوفريا. كانت تعشق تزيين وجهها، تجميل نفسها. وهكذا، تأكّدتُ من أنّ كلّ شيءٍ يسير على ما يرام. وأنت تعرف التتمّة».

قال قاسم باكياً: «أونوفريا كانت صديقتك! أنت بنفسك قلت لي ذلك. وأنت قتلتها».

- صديقتي! صديقتي! لقد كانت بخاصّةٍ ابنة بيغ بوس الذي عشقَته وكأنّه إله.

على يمين الطريق السريعة ويسارها، كانت الشاخصات المضيئة تتهاوى، تشابك بحميّةٍ دعاماتها. أمّا لدى قاسم، فما يحيط به ليلٌ دامس السواد، حدادٌ وخراب.

شرح رمزي بمهنيةٍ عالية: «هذه المرّة، سوف نعمل بالطريقة عينها. لقد اخترنا أحمر شفاه "برويزد هيبيسكوس"، وهو يحظى باستحسانٍ كبيرٍ هنا. سيكون سلاحَنا، أحمر الشفاه الذي يقتل. تواصلتُ مع مختبرٍ صغيرٍ سوف يصنع المادّة الأوّلية...».

دارت أفكارٌ مضطربةٌ في ذهن قاسم.

أخذ يقول في نفسه: كنتُ أتساءل عمّا إذا كان منحرفاً. والآن أعلم منه شخصياً بأنّه قاتل، *serial killer*. أخطر قاتلٍ متسلسلٍ في تاريخ البشرية. مجنون. إبليس شخصياً. لم أعد أستطيع البقاء معه.

كان مستعدّاً للقفز من السيّارة في التقاطع التالي، للركض بأقصى سرعته والضياع في قلب حشد نيويورك الهائل. ما أخافه على الدوام، ما لم يستسلم له البتّة، أصبح إلزامياً. لم يعد يستطيع مواصلة العيش مع رمزي. أن يشترك بتلك «التزيينات» يعني أن يكون شريكاً في جرائمه.

عندما توقّفت السيّارة أمام بناء جبريل، تمتم قاسم: «عمتَ مساءً. لن أعود إلى البيت للنوم. سأذهب لأشرب كأساً أخيرةً مع زاراميان».

اكتفى رمزي بتوجيه أمرٍ له: «إيّاك والتفوّه بكلمة! مفهوم؟».

الحمد لله، كان زاراميان موجوداً، بابتسامته وهيئته الشبيهة بهيئة لاعب كرة قدم، يفرغ زجاجة جعةٍ وهو جالسٌ إلى النضد. داعب شعر قاسم. بالطبع لا يزال عرضه قائماً. بالطبع سيستقبله بسرور. لكنّه لسوء الحظّ سيستقلّ الحافلة في الفجر باتّجاه كندا. سيغيب قرابة ثمانية أيّام.

ضربا موعداً في الأسبوع التالي.

.3

اضطرّ قاسم إذاً لمواصلة محنته والعودة إلى الشارع 135.

بما أنّ رمزي وهيوستون كانا قد سافرا إلى ألباني لمقابلة سياسيّين -بسبب وجود مطامح لدى هيوستون هناك- فقد أخذ يعمل بمفرده مع بِن الذي لم يعد يوجّه له الكلام. ذات صباح، لم يظهر هذا الأخير. وأعلنت له جين، وهي عاملة استقبالٍ يحبّها قاسم بسبب صدرها السخيّ، أنّه لم يعد يريد العمل معهم، متذرّعاً بأنّ أموراً غريبةً تحدث في «جاكسون فيونيرال هوم».

قال قاسم متلعثماً: «أيّ أمور؟».

هزّت جين كتفيها: «الأمر غير واضح، لكنّه يزعم بأنّ لديه أشياء كثيرة يمكن أن يحكي عنها للشرطة».

- للشرطة؟!

ازدرد قاسم إفطاره، حزيناً وقلقاً. في حدود الثالثة بعد الظهر، ظهر كورنيل جاكسون ليشرب كأساً مع موظّفيه، مثلما يحبّ أن يفعل كربّ عملٍ مثالي، لتشجيعهم على أن يستبسلوا في أداء مهامّهم. وإذا ما حكم

المرء من الانحناءات وهيئات المجاملة التي تستقبله، فقد كان يجسّد حقّاً في نظر الجميع ربّ العمل الطيّب. ربّ العمل الذي، بعد أن نجح، يحيط بعنايته الأشخاص الأقلّ حظّاً. كان *role-model*، نموذجاً يجب الاقتداء به، على مثال حفنةٍ من الأشخاص الآخرين. لكن لم يكن قاسم قد لاحظ أبداً إلى أيّ درجةٍ تعبّر الثنيات حول فمه عن المخاتلة ومقدار التهرّب في نظراته.

مدَّ له يداً رخوة: «كيف حال العمل؟».

حلم قاسم بَرَدٍّ جريء، مثقلٍ بالتلميحات التي تسمح له بسبره. ما الذي يعرفه عن تصرّفات رمزي؟ إلى أيّ حدٍّ هو شريكٌ في تلك التصرّفات؟ أيمكن أن يكون رمزي يستغلّه من دون علمه؟ غير أنّه لم يجد الكلمات المناسبة، كعادته. لم يعرف أن يقول شيئاً وتمايل على ساقيه.

في اليوم التالي انتشر خبر موت بِن. أزمة قلبية. لم يلحظ أحدٌ وفاته على الفور، لأنّه كان يعيش بمفرده في شقته ذات الحجرتين الواقعة في الشارع 175. من انتابه القلق هو البوّاب الذي يمازحه كلّ مساءٍ لدى عودته من العمل. عُثر عليه ميتاً في حمّامه. جرى التحنيط في «جاكسون فيونيرال هوم» في الشارع 135. دفع كورنيل كلفة إعادة الجثمان إلى ماكون وأشاد الجميع مرّةً أخرى بسخائه.

لحسن الحظ، أتت نهاية الأسبوع. عاد رمزي من ألباني وهرب قاسم من الجميع فجأةً.

ليس من دون عناء.

فعادةً، كان يحضّر لجبريل ولاشاسكونا عندما يعود من «كليمنجارو» منقوعاً من ماركة Celestial Seasonings، يُفترَض فيه أن يضمن هضماً

حسناً ونوماً هانئاً. كان الزوجان ينسحبان إلى غرفة نومهما بعد أن يشربا المنقوع، ويسمع قاسم همس صوتيهما، يليه صوت شخير جبريل. النوم! كيف يستطيع رجلٌ أن ينام إلى جانب لاشاسكونا؟ لو أنّها كانت إلى جانبه، لملأ فمه بها، لأشبع منها نفسه، لالتهمها.

ليلة قرّر الهرب، اضطرّ لانتظار أن تبلغ الساعة الثالثة صباحاً قبل أن يسمع شخير جيرانه. فقد تناقش الزوجان بحدّة. حول ماذا؟ لن يعلم قاسم ذلك أبداً. مشى على رؤوس أصابعه حتّى باب الدخول. شعر أنّ وجوده يسير على دربٍ يجهل مساره، فارتعد قلبه. في مثل هذه الساعة، يكون البوّاب ذو الزيّ الرسميّ قد أنهى مهمّته. كما أنّ مداخل الشقق تكون خاويةً واعتقد أنّه يرى ظلالاً أشدّ تهديداً من تلك التي كانت تسكن القصر الرئاسي.

عندما وصل إلى الرصيف، سارع إلى «ملتقى الأصدقاء» حيث ينتظره زاراميان، مثلما اتّفقا. بما أنّ المسكن مؤمّن، فيجب العثور على عمل.

عاش قاسم لمدّة شهرين ما جرّبه في مرسيليا. زجَّ بنفسه في مئات المصاعد ودفع مئات الأبواب وخضع لمئات المقابلات. كان ثمّة عددٌ من الوظائف المتاحة، لكن لم يشأ أحدٌ توظيفه. والسبب في ذلك الرفض المستمرّ بسيط. إذ سواءٌ أكان أرباب العمل المحتملون شباباً أم مسنّين، طوال القامة أم قصار القامة، نحيلين أم بدينين، صلعاناً أم ذوي شعر، وأيّاً كان لون بشرتهم، فهم يتوقّفون عند التساؤل عينه، وهو تساؤلٌ يطرحونه في البداية كما لو أنّه ليس لديهم وقتٌ يهدرونه وكأنّه التساؤل الوحيد ذو الأهمّية: «ما السبب في تسميتك هذه؟ هل أنت مسلم؟».

وفي كلّ مرّة، يشعر قاسم بشعورٍ يجتاحه ويفاجئه. إذ ينتصب ويجيب

عن السؤال: «أجل! بل يمكن أن أقول إنّني متديّن. لا أفوّت صلاة الجمعة في المسجد ولا أيّاً من الصلوات الخمس. أينما كنت».

لم تكن الإجابة مجرّد استفزاز. فقد بدا له أنّه مشى في دربٍ محفوفٍ بالمخاطر، مزدحمٍ بالعقبات، أنّه واجه أسوأ الأخطار واكتسب جماعته الدينيّة مثلما يكتسب المرء لقب مجدٍ أو أحد تلك الأوسمة التي لا تبخل بها الجمهورية الفرنسية: وسام الفنون والآداب، وسام الاستحقاق الوطني، وسام جوقة الشرف.

بفضل دراسته في باريس وخبرته في الخارج، والشهور التي أمضاها إلى جانب بيير لونورمان الذائع الصيت في أوساط الطهاة، قال له صاحب مطعمٍ فرنسي في تريبيكا: «أنا أريد مساعدتك. لكن يجب علينا حالياً نحن الفرنسيين توخّي الحذر الشديد. سوف نعلن بقوّةٍ إنّك وُلدت في مدينة ليل وسوف نناديك باسمك الثاني، كريزوستوم، وتكون الأمور على ما يرام».

رفض قاسم العرض بعزّة نفس.

في نهاية المطاف، وبفضل أحد رفاق زاراميان، وُظّف قاسم في مراحيض «لاشوف سوري»، وهو مرقصٌ شديد الشعبية يقع في «ميتباكينغ ديستريكت»، في قلب أبنيةٍ متشابكةٍ باليةٍ مريبة المظهر. وقد درَّ عليه هذا العمل الشائن ما يكفي لعدم الموت جوعاً.

لا تتطابق مراحيض «لاشوف سوري» الواقعة في القبو والمبلّطة بالأبيض والأسود مع ما يمكن أن يتخيّله الساذج. فهي ليست مكاناً يأتي إليه كلّ شخصٍ ليتخفّف من حاجاته الطبيعية المزعجة. إنّها مكانٌ ينزل إليه الراقصون، بعد أن يتخلّوا لوهلةٍ عن موسيقا حلبة الرقص، ليحقنوا أنفسهم بالمخدّرات أو يشمّوها، أو ليمارسوا الجنس جماعةً بين الشبّان، أو مع

فتاةٍ أو عدّة فتيات. ولئن كان عدد من ماتوا بسبب جرعة مخدّراتٍ زائدة قد بلغ نصف دزّينةٍ في السنة السابقة، فلم تكن هنالك حالات اغتصاب. لأنّ ممارسة الجنس في «لاشوف سوري» تحدث على الدوام بالتراضي. والمعتادون على الذهاب إلى المراحيض أسخياء مع من يعرف كيف يغلق عينيه عندما يجب عليه ذلك، ويبقي المكان نظيفاً قدر الإمكان ويحرص على الأمن. لا شجارات. لا طلقات نار. لذلك، كانوا يرمون في صحنه أكثر بكثيرٍ من السنتات الخمسين المطلوبة، بل أحياناً أوراقاً نقديةً مجعّدة. سرعان ما اعتاد قاسم على رائحة المطهّرات، وهي كانت بالنسبة إليه أقلّ إزعاجاً من رائحة «التزيينات»، وفي عتمة رطوبة هذا القبو يذهب ويجيء ويسود، مرتدياً زيّه الرسميّ الأحمر الذي طُبعت على ظهره حشرةٌ سوداء ضخمة. لم يكن يخشى سوى الأوقات التي يجب فيها إعادة الوعي لمن أفرطوا في الشراب وتنظيف قيئهم. عدا ذلك، كان يؤدّي المهامّ الأخرى ببراعة. فيمرّر بيدٍ خبيرةٍ الممسحة ويشدّ السيفون وينظّف المراحيض بالفرشاة، ويعبّئ موزّعات المناديل الورقية، ويبدّل ورق الحمّام الثنائي السماكة، ويجمع الإبر والمحاقن. وفي الفجر، يجرجر نفسه مرتجفاً وجيوبه مليئةٌ بحصاده من الدولارات باتّجاه قطار الأنفاق. لأنّ «ميتباكينغ ديستريكت» ليس حيّاً يبعث الطمأنينة في النفس، على الرغم من «تحسينه» اللافت. إذ تبدو المخازن القديمة التي تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى مبانٍ سكنية وكأنّها تؤوي زمرةً حيوانيةً مزعجة. وأكثر ما يثير الرعب في نفس قاسم هو قطار الأنفاق، الخاوي في مثل هذا الوقت. فيتهاوى على مقعدٍ غير مريح، ويصيبه الوسن ويفتح عينه بين حينٍ وآخر على بعض المشرّدين أو المقعدين أو الأوغاد أو المتسوّلين، حتّى موقف إيسترن بارك، حيث

ينزل. المثير للغرابة أنّه يتصرّف مثل زومبي ما دام في «لاشوف سوري»، فلا يفكّر في شيء. وبما أنّ بعض الفلاسفة قد عرّفوا السعادة بأنّها غياب الرغبات والمشاعر، فنستطيع القول إنّه كان سعيداً.

في المقابل، ما إن يخرج من مدخل قطار الأنفاق ويرى صفّ الأشجار المتصلّبة والسوداء في سجّادة الثلج وكأنّها لوحةٌ بقلم الفحم رسمها برنار بوفيه(*)، حتّى تنقضّ عليه الكلاب. يجهل أيّاً من تلك الكلاب هي الأشرس. كما لا يفارقه ألم الانفصال عن أميناتا.

أميناتا

ناتاي، ناتا ميا.

يضاف إليه ألم فقدانه جبريلاً الذي لطالما تعامل معه بأبويّة، حتى عندما كان يستغلّه، ولاشاسكونا المتطلّبة والحنونة في آنٍ معاً! لا بدّ أنّهما يعدّانه جاحداً، فقد اختفى تحت جنح الظلام من دون أن يوجّه لهما كلمة شكرٍ واحدة، بعد أن استفاد من ضيافتهما. كان عليه أن يتمالك نفسه كلّ يومٍ كي لا يتّصل بهما هاتفياً ويقدّم اعتذاره لهما، وكلّ يوم جمعةٍ كي لا يرسل لهما رسالةً عن طريق زاراميان الذي يشرب الشاي الأخضر في «ملتقى الأصدقاء» مع جبريل بعد أداء الصلاة، وكلّ يوم أحدٍ كي لا يركض إلى كاتدرائية القدّيس يوحنّا الإلهي ويشرح للاشاسكونا أسباب هروبه.

غير أنّ أشدّ الألم نبع من استمرار انفصاله عن رمزي. ففي «بورتو فيراي» ومرسيليا، كان يلمحه، ولو من بعيد، ويعرف نشاطاته. أمّا الآن، فهو لا يدري شيئاً عنه. يا لغموض قلب البشر! فعلى الرغم من الخوف والقرف اللذين يثيرهما رمزي في نفس قاسم، لم يعزّه شيءٌ عن غيابه.

(*) Bernard Buffet (1928–1999): رسّامٌ انطباعيٌّ فرنسي.

أغرق انفصاله عنه وجودَه في ظلامٍ دامس. يتخيّل الأيّام التي ستمضي وتنتهي من دونه، فيبقى جاثماً في سريره تحت الملاءات. وهذا كلّه كان يثير حفيظة زارامِيان الذي لم يكن متألّقاً لا في الصبر ولا في التسامح. فيصرخ: «تحرّك! اللعنة! هل أنت مغرمٌ به؟ هل أنت شاذٌّ أم ماذا؟!».

فيستغرق قاسم بسبب هذه التساؤلات في أشدّ حالات الارتباك.

يكرّر بينه وبين نفسه: أنا لست مثلياً. أنا أحبّ أميناتا وبرهنتُ لها على ذلك حين غمرتها بالمتعة. ما الذي أشعر به إذاً تجاه رمزي؟ ربّما يجسّد ذاك الذي وددتُ لو كنتُه. وسيماً. مغوياً. غير أخلاقي. ليس لديه أيّ وازع. كلّ ما يحتاجه المرء لينجح في الحياة.

بسبب هذه الشجارات، تدهورت العلاقات بين زاراميان وقاسم. فضلاً عن ذلك، اكتشف قاسم من أين يحصل زاراميان على سبل عيشه. إذ إنّه يدير شبكةً من اللصوص الذين يغيّرون مواصفات هواتف محمولة مسروقة ويبيعونها قرب المدارس. هؤلاء الناس هم جميعاً عديمو الشرف. لقد بدّل بقاتلٍ ذي طموحاتٍ هائلة سارقاً وضيعاً، ينهب المراهقين.

بات يكرّر في نفسه: يجب أن أرحل من هنا. وبسرعة!

لكنّ المدينة بقيت تخيفه بالقدر عينه. علِم أنّ رمزي قد انتقل هو أيضاً، بعد وقتٍ قليلٍ من رحيله من بيت جبريل. بات يسكن في حيٍّ أنيقٍ شمالي مانهاتن: «ريفرسايد درايف». كلّ يوم، ينتظر قاسم في أعماقه أن يتواصل معه الآخر، هاتفياً أو برسالة، ويؤلمه هذا الصمت.

معظم سكّان المبنى الذي يقيم فيه مع زاراميان من هايتي. وبسبب ذلك، أُطلق عليه لقب «إيبو ليليه»، تيمّناً بالفندق الشهير في بورتوبرانس، قبل انحدار البلد إلى الجحيم. الأبواب تبقى مفتوحةً رغم البرد. وعلى

العتبات جلسات، غدوٌّ ورواحٌ لنساءٍ ورجالٍ يتبادلون الأخبار ويقارنون بينها ويعلّقون على آخرها. وقعت مدينة ليوغان بين أيدي المتمرّدين. لا، بل هي ميرباليه. لا، بل جاكميل. يقال إنّ رائحة الجثث الكريهة تملأ لالو، الشارع الرئيسي في العاصمة. كم عددها؟ زعم بعضهم إنّ عددها هو نحو عشر جثث، في حين ذكر بعضهم الآخر عدّة مئات. لكنّهم، رغم الحداد والألم، كانوا يستيقظون على صوت رقصة المرينغا، وينامون على صوت رقصة الكومبا. ليلاً نهاراً، لا تتوقّف لا الموسيقا ولا صخب قنوات التلفزيون الناطقة بالكريولية. تعرّف قاسم بجاره على اليسار، وهو شخصٌ طويل القامة اسمه ليليان، هيئته جنائزية، يعمل في صحيفة «هاييتي ريبورتر» بعد أن درس الصحافة في جامعة كولومبيا. كان متخصّصاً في استخدام الأقوال المأثورة: «الحياة، يا عزيزي، مباراةٌ من نوعٍ خاصّ. لا منتصرون فيها ولا خاسرون. لا أحد يخرج منها حيّاً». أو: «الحياة، يا عزيزي، روايةٌ لغاري فيكتور(*). الخياليّ يفوز فيها على الواقعيّ».

لسوء الحظّ، لم يفتح قاسم يوماً كتاباً لغاري فيكتور، فهو لم يكن كثير القراءة، مثلما نعرف. وهذا أمرٌ مؤسف! كان ليليان يخفي شقاءً عميقاً تحت هيئات الفيلسوف التي يتّخذها. فعندما كان لا يزال رضيعاً، قتل الـ«طونطون ماكوت»(**) أباه وأمّه. وعندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، اغتالت عصابات «زينغليندوس» الإجرامية زوجته. وكان «الأشباح» قد أجهزوا توّاً على أخيه.

(*) Gary Victor (1958-): روائيٌّ وكاتب سيناريو وصحافيٌّ من هاييتي.

(**) tontons macoutes: ميليشيا شبه عسكرية أسّسها الرئيس الهاييتي فرانسوا دوفالييه عام 1958 بعد محاولة انقلابٍ عليه، وثابر ابنه من بعده على استخدامها حتّى سقوط النظام في عام 1986.

لطالما قال لقاسم: «أنت تشتكي باستمرارٍ من أنّه ليس لديك بلد. فكّر بأولئك الذين يمثّل بلدهم بالنسبة إليهم جرحاً ينزّ قيحاً متواصلاً في خاصرتهم!».

كان ليليان يحاول أن يستخرج من مآسيه كتاباً، ويحلم ببيع ملايين النسخ منه. يشرح قائلاً: «أنا أكتبه حالياً بالإنكليزية، خلف متراسٍ من القواميس ومن كتب تعليم الكتابة. الكتاب ليس طفلاً تتبنّاه، بل يجب صنعه بلغة من يقرأه».

على الرغم من الأخبار السيّئة القادمة من هاييتي ومن الاختلافات في وجهات النظر والشجارات العابرة، تشاطر قاسم وزاراميان وليليان أوقاتاً لطيفةً معاً. إذ كانوا بالعمر عينه، اثنين وعشرين عاماً. فيمتّع قاسم رفيقيه بجوانح ديكٍ روميٍّ يشتريها بالجملة من متجر التخفيضات القريب. وتباع فودكا سميرنوف بأدنى أسعارها عند باعة المشروبات الروحية. ها هو ذا قاسم يكتشف حميميةً لم يعرفها مع أشقائه. وقلوب بنات «إيبو ليليه» أوسع من قلوب بنات «فلامنغو». فعلى الرغم من كونه أعور ونحيلاً، لم يكنّ ليمانعن في حشر قاسم جيّداً بين أفخاذهنّ، لولا أنّه عاهد نفسه على الإخلاص لأميناتا وحرص على الوفاء بعهده.

لم يستطع يوماً التعافي تعافياً كاملاً من عواقب وجوده في السجن. إذ كان عليه استشارة طبيب للأمراض العينية كلّ أسبوعين. ليس لأنّه يمتلك أملاً سخيفاً في استعادة الرؤية بالكامل، بل لأنّه يشعر في بعض الأيّام بالتماعاتٍ تتراقص أمام عينيه اللتين تخترقهما إبرٌ غير مرئية.

ذات عصرٍ إذاً، ذهب إلى المستشفى. وفي صالة الانتظار، مدَّ يده إلى مجلّةٍ ممزّقةٍ لا تلفت النظر على الرغم من عنوانها المدوّي: *Black*

Renaissance - النهضة السوداء. وقع أثناء تصفّح المجلّة على إعلانٍ لمستحضرات «كوين أوف شيبا» للتجميل. صندوق مستحضرات تجميلٍ يرضي أشدّ الفتيات غنجاً معروضٌ مقابل مبلغٍ متواضع، عشرة دولارات، في حال قدّمن إجاباتٍ صحيحة عن بعض الأسئلة السخيفة:

1. ما هو اسم أوّل رئيسٍ للولايات المتّحدة؟
2. أين يقع البيت الأبيض؟
3. ما هو اسم أوّل إنسانٍ مشى على سطح القمر؟

ودرّة الصندوق هي أحمر الشفاه المسمّى «برويزد هيبيسكوس».

كاد قاسم يفقد الوعي. لم يكن الإعلان يسمح بأيّ شك: لقد بدأ رمزي ينفّذ مخطّطاته المشؤومة.

كيف يمكن إيقافه؟ عبر المسارعة بالذهاب إلى مقرّ الصحيفة؟ إنّه على مسافةٍ تزيد عن الساعة، في منطقة برونكس. وماذا بوسعه أن يقول في حال وافق أحدهم على استقباله؟ يستطيع تخيّل ما سيحدث بعد ذلك. لن يتوانى مدير التحرير عن أن يمتدح أمامه مزايا الشقيقين هيوستون وكورنيل جاكسون اللذين يقدّمان، بفضل شركاتهما، مئاتٍ ومئاتٍ من فرص العمل للجالية الأميركية السوداء. وسوف يحثّه على أن يشرح بوضوحٍ أكبر وسيكون عاجزاً حقّاً عن ذلك.

شعر بالاضطراب وقرّر العودة إلى بيته.

ما إن خرج من المستشفى حتّى تساقط الثلج، فابتهج بهذا البياض الصقيعي الذي خُيِّل إليه أنّه يتساقط من السماء لتخفيف قلقه. في «إيسترن باركواي»، كانت الجرّافات قد بدأت ضجيجها. وفي إحدى زوايا الشوارع، أخذ شبّانٌ سودٌ يتراشقون بكتل الثلج وهم يصيحون بالكريولية:

- Babaï, Titid ! Babaï ! Lanfè two bon pou-w !

واضحٌ أنّهم من هايتي.

هكذا علِم بسقوط حلقةٍ في سلسلة الدكتاتوريين. لا أزهار ولا أكاليل. اجتاحته موجة فرح. على الأقلّ، سيكون ليليان سعيداً. أن يحدث أمرٌ مماثلٌ لبيغ بوس أمرٌ ميئوسٌ منه. حثّ خطاه. ومع اقترابه من المبنى الذي يسكنه، وصلته أصوات احتفال. من الأعلى إلى الأسفل، كانت الطوابق التسعة مُنارةً وأصنافٌ شتّى من الموسيقا تنبعث من النوافذ. في المدخل، يتبادل أناسٌ القبلات ويتعانقون ويبكون. ويرقص آخرون على العتبات وفي الممرّات وعلى السلالم. أمسكت بيده امرأةٌ بدينةٌ صادفها عند ليليان، تقود مجموعةً راقصةً.

دافع عن نفسه بخجل: «أنا لستُ من تاهيتي».

- لا يهمّ! هذه السعادة للجميع!

تسلّقت المجموعة الراقصة حتّى الطابق الثامن وعادت للنزول إلى الطابق الأرضيّ، دخلت إلى شققٍ تشتعل فيها باستمرار شموعٌ أمام مذابح للفودو، خرجت منها ثانيةً وهي تؤرجح أردافها وتصيح بأعلى أصواتها. آنذاك، رأى قاسم زاراميان وليليان واقفَين في فتحة باب، ساكنَين وصامتَين. قفز زاراميان باتّجاهه وانتزعه بالقوّة من موكب الراقصين، ثمّ قال وهو يتأتئ: «نحن نبحث عنك منذ ساعات. لاشاسكونا ماتت».

.4

همست له بعذوبةٍ مضيفةٌ بزيٍّ بنفسجيٍّ من الحذاء حتّى القبّعة: «إنّها ترقد في قاعة "سويت برايار"، الباب رقم 6».

بهيئةٍ حزينة، كما لو أنّها على وشك ذرف الدموع، أخذت تتكلّم بصوتٍ منخفضٍ إلى حدّ أنّ قاسماً لم يسمع شيئاً عملياً. لم يتجرّأ على أن يطلب منها تكرار كلامها، فمشى في الممرّ من دون وجهةٍ محدّدة، ثمّ فتح أحد الأبواب فوقع على مجموعةٍ من المجهولين المرتدين الحدادَ، نظروا إليه باستغراب، فخرج معتذراً وواصل بحثه.

انتهى به المطاف للعثور على بغيته. هناك كان يُعزف قدّاس فوريه(*) الجنائزي. عبر الدخان المعطّر المنبعث من البخور والأعشاب العطرية، انبثق من الضباب شكل، شكل التابوت المفتوح، الهائل الحجم، متربّعاً على منصّة.

في هذا الغمد المنجّد بالمخمل الأبيض، لم يكن جثمان لاشاسكونا يكشف شيئاً مميّزاً. لم يتغيّر شيءٌ في هذا الوجه الذي لطالما حلم بتقبيله.

(*) Gabriel Fauré (1845–1924): عازف بيانو وأورغ ومؤلّفٌ موسيقيٌّ فرنسي.

صدَفة الجفنين المحدّبة، قوس الحاجبين المكتمل الجمال، البشرة المخمليّة، وابتسامةٌ تكاد لا تُرى تشدّ الفم المزيّن.

كيف كانت لحظاتها الأخيرة؟ هل خافت؟ ممَّ؟

لم يكن تعبيرها المصطنع يشي بشيء.

بحث مترنّحاً عن مجثى ليركع. لم يكن عدد الناس كبيراً حوله. فباستثناء الصديقات المخلصات «اللاتينيات»، لم يكن هنالك سوى جبريل، خائر القوى، يمسك رأسه بين يديه. تسلّل قاسم إلى جانبه. لا تخرج أيّ كلمةٍ من الشفتين عندما يكون الألم ثقيلاً إلى هذا الحدّ. لكنّه تمكّن بعد هنيهةٍ من أن يقول بصوتٍ متقطّع: «ما سبب موتها؟».

مسح جبريل دموعه: «أزمة قلبيّة».

– هل كان قلبها مصاباً؟

هزَّ جبريل رأسه: «لا! لكن هذا ما قاله الأطبّاء».

– هل أجري تشريحٌ للجثّة؟

– تشريحٌ للجثّة؟ لماذا؟

وضعت البيروفية لوانا إصبعاً على شفتيها وتوجّهت إليهما بـ«صهٍ» صارمة، فاضطرّا للخروج. وعندما أصبحا في الخارج، انساق جبريل للانتحاب: «لم أرَها يوماً مريضةً طيلة أعوام حياتنا المشتركة التي تجاوزت عشرين عاماً. كانت أقوى منّي بنيةً. في الثالثة بعد الظهر، عندما ذهبتُ إلى "كليمنجارو"، كانت بأفضل حال، تجلس في الصالة وتستمع إلى أسطوانةٍ لألبيرتو كوابو، تلقّتها قبيل ذلك. أتعرف ألبيرتو كوابو، شاعرها المفضّل؟ وعندما عدتُ في الواحدة أو الثانية صباحاً، وجدتها ممدّدةً على أرضيّة الحمّام. متصلّبة. ميّتة».

ارتفعت وتيرة بكائه: «لولا رمزي، لما عرفتُ كيف أتصّرف. اتّصلتُ به من فوري على هاتفه الخليوي. كان يتمشّى مع أصدقاء. تركهم وأتى من فوره. أنا لم أكن قادراً على فعل شيء. كلّ شيءٍ معقّدٌ هنا في أميركا، ثمّ إنّني لا أعرف اللغة الإنكليزية. اهتمّ بكلّ شيء. هو من أخذ "التزيين" على عاتقه. دار دفن الموتى هذه ملك أحد أصدقائه».

فكّر قاسم: أعلم ذلك أكثر ممّا يجب. ثمّ قال بصوتٍ مرتفع: «اسمعني، اسمعني جيّداً! حاول أن تتذكّر! هل كان بين أغراض دولوريس في الحمّام صندوق مستحضرات تجميل من نوع "كوين أوف شيبا"؟».

نظر إليه جبريل مصعوقاً. كيف يمكن أن تخطر في باله أفكارٌ بهذه السخافة في لحظةٍ كهذه؟ كرّر مصدوماً: «صندوق مستحضرات تجميل؟ كانت لديها عدّة صناديق».

– هل أهداها رمزي شيئاً مؤخّراً؟ هل كان بين أقلام الحمرة الخاصّة بها قلم حمرة "برويزد هيبيسكوس"؟

كان واضحاً أنّ جبريلاً لم يكن يعرف كيف يجيب.

استأنف قاسم بحماسةٍ شديدة: «تذكّرْ، تذكّر!».

رفع إليه جبريل نظرةً مفعمةً بعدم الفهم، فضغط عليه: «عليك أن تثق بي. رمزي ليس مثلما تعتقد. إنّه رجلٌ خطر! مجرم!».

تراجع جبريل. باحت تعابير وجهه بأنّ «الرجل الخطر»، «المجرم»، هو بالأحرى قاسم. شوّه غضبٌ غير معهودٍ قسماته البسيطة: «رمزي ابن الأخ الأصغر لأبي. أخٌ بالرضاعة، لأبٍ واحد، لأمٍّ واحدة. وأنت تتفوّه بالترّهات ضدّه؟!».

في هلع قاسم واستعجاله، داس بقدميه القواعد المقدّسة الخاصّة بالقرابة، بالعائلة. فقدَ جبريل كلّ تحفّظ: «لقد نصحني بالفعل بأن أرتاب بك. يبدو أنّك كاذب. فأنت لست مسلماً حسب قوله، أليس كذلك؟!».

ما الذي يمكن أن يقوله ليشرح الأمر؟ لن يفهم، مثلما لم تفهم أميناتا.

صرخ جبريل: «ستذهب إلى جهنّم منكفئاً على وجهك، لمجرّد أنّك افتريت! رسول الله هو من يؤكّد ذلك!».

هرب قاسم.

قال في نفسه وهو يزجّ بنفسه في قطار الأنفاق: رمزي هو من قتلها. مثلما قتل أونوفريا. استخدمها كفأر تجارب ليتأكّد من فعّالية قلم الحمرة.

أعاد تشكيل تسلسل الأحداث في رأسه وفي لحظةٍ معيّنة، تحت تأثير الانفعال، أخذ ينتحب بقوّةٍ بلغ منها أن لان قلب جارته، فمدّت له منديلاً ورقياً.

شرح لها: «فقدتُ توّاً امرأةً أحببتها كأمّي».

هزّت رأسها بتعاطف.

في تلك الليلة، حلم قاسم. أم أنّها كانت ذكرى تكثّفت كأنّها حلم؟

كان صغيراً. ذهب مع كيليرمان ودراستا والأشقّاء والشقيقتين إلى شاطئ فرانكونيا. وهناك، لم تكن ثمّة تلالٌ رملية. ثلاثة كيلومتراتٍ من رملٍ يمتدّ مسطّحاً، رتيباً، تتناثر عليه الطحالب هنا وهناك، خشنةً مثل شعر العانة. أخذ كيليرمان يتخبّط في الماء مع الأطفال المزوّدين كما يجب بعوّاماتٍ رخيصة، لأنّه لم يكن يتقن السباحة. دهنت دراستا بسخاءٍ كتفيها ووجهها بكريمٍ مضادٌّ لأشعة الشمس قبل أن تتمدّد على منشفتها.

أمّا قاسم الذي لم يتوقّف عن تأمّلها، فقد وضع رأسه بغرامٍ على ثديها، الأبيض والصلب على الرغم من ولاداتها. سمع طويلاً ضربات قلبها القويّة والمنتظمة. بدا له أنّ تلك الضربات تردّ على ضربات قلبه، وأنّ تيّاراً غامضاً وحارقاً يمرّ بين القلبين.

استيقظ مرتعباً. سارع إلى الطاولة وتجرّأ على الكتابة لأميناتا. يعرف كلٌّ منّا أنّ الرسائل تمثّل شكلاً لم يعد دارجاً للتواصل. ما الذي كانت مدام دوسيفينييه(*) ستقوله عن هذا التطوّر المحزن الذي لم تتوقّعه؟ وجميع كتّاب الرسائل العظيمين أولئك؟ في تلك الليلة، كان قاسم يحتاج إلى بياض الورق. انحنى طويلاً، مفكّراً بأسفٍ بالحياة البسيطة، الخالية من المشكلات، بتلك الحياة التي حرم نفسه منها بغباء.

خرج ليرمي رسالته في علبة البريد.

في الليل الأبيض والأسود مثل معطف المهرّج، لم تكن بروكلين نائمة. وهل تنام أصلاً؟ تحت قبّة السماء الهائلة الحجم، العملاقة بالنسبة إلى الأرض، كانت سيّارات الشرطة تطارد المجرمين. وسيّارات الإسعاف، تسبقها صفّاراتها، تسارع لالتقاط المحتضرين والموتى الجاثمين في أركان المدينة الأربعة. يا له من حصاد!

الخوف، الخطر، انعدام الأمن، هذا هو نوع الوجود الذي لا يريده.

(*) Madame de Sévigné (1626-1696): كاتبة فرنسية اشتُهرت بكتابة الرسائل.

.5

في اليوم التالي، عندما وصل إلى «لاشوف سوري»، استلم رسالةً من الإدارة تُعلِمه بتسريحه من العمل. لم تتضمّن الرسالة أيّ شرح، بل مجرّد تبليغٍ من الإدارة بأنّها لن تحتاج خدماته اعتباراً من آخر الشهر.

تجمّع العاملون الآخرون حوله مذهولين. ولا سيّما سيفورا، بائعة السجائر، المتأثّرة كما لو أنّها تشعر بالمسؤولية عن الحدث. قالت محتجّةً: «هذا ليس من حقّهم. هذا ظلم! ما الذي يلومونك عليه؟».

سيفورا مزيجٌ ناشزٌ من الأميركي الإفريقيّ الأصل والهندي. نحيلة، لكنّها ممتلئة. مفعمة بالانحناءات كسيّارة سباق. كانت قد ارتدت زيّها. تحت تنّورتها الحمراء، تبدو عبر شبك جوربيها الأسودين ساقاها الممشوقتان الجميلتان. كانت تقيم مع قاسم علاقاتٍ استثنائيةً تفعمه بالندم. فعلى الرغم من وعوده بالإخلاص، خان أميناتا عملياً معها. ذات مساءٍ كان فيه يحضنها بإحدى تلك النظرات الخجولة والشبقة التي اعتاد عليها، كافأته بأن دلّكت عضوه بيدٍ ساهية. تكرّرت العملية لاحقاً عدّة مرّات، من دون أن تفقد مطلقاً نظرتها المتحفّظة وهيئتها الملولة. ويوم الأحد، يوم عطلة «لاشوف سوري»، كانت تدعو قاسماً بانتظامٍ إلى مسكنها، حيث تعيش مع

ابنيها الصغيرين في «ليتل أوديسا»، وهو حيٌّ مثيرٌ للدهشة في هذه المدينة التي لا تني تثير الدهشة. فلدى الخروج من قطار الأنفاق، يعتقد المرء فجأةً أنّه وصل إلى مقاطعةٍ في الاتّحاد السوفييتي السابق. اللوحات وأسماء المحلّات والمطاعم ودور السينما تضيء بالأحمر والأخضر والأزرق، بأحرفٍ كيريلية(*). لكن بعد أن شعر قاسم بالسرور لدعوته بهذا التواتر إلى الغداء، أدرك أنّه ليس لديها سوى فكرةٍ واحدة: التشكّي لأذنٍ متعاطفةٍ من ذكوريّين لهم لونها وجعلوها تحبل مرّتين، ثمّ رحلوا. كثيراً ما كانت تختفي لساعاتٍ طويلة، تاركةً الطفلين في رعايته. وعندما يتشاجر الطفلان أكثر ممّا يحتمل، بعد قضاء ساعاتٍ أمام الرسوم المتحرّكة في قنواتٍ تلفزيونيةٍ مختلفة، يصحبهما إلى «كوني أيلند»، مدينة الملاهي المجاورة. البحر في آخِر حقل الثلج، مكفهرٌّ كالسماء، تتوالى فيه الأمواج. يرغب الطفلان في امتطاء لعبة «الإعصار»، لكنّ المال الذي تركته أمّهما لا يكفي وقاسم خاوي الوفاض. فيدخلان إلى مطعم ناثان، عابسَين ومتجمّدَين، ويأكلان الهوت دوغ.

هل يمكن أن يكون قد طُرد من العمل بسببها؟

ذات يوم، عندما عاد إلى شقّة سيفورا في وقتٍ أبكر من المتوقّع، وجدها في السرير مع رجلٍ ضخمٍ اسمه جهاد. اختار جهاد هذا الاسم بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً أمضاها في السجن بسبب السطو المسلّح، بعد فترات سجنٍ متباينةٍ أقصر زمناً لأسبابٍ متغايرة. لم تتأخّر سيفورا في التشكّي منه لقاسم. الاسم هو السمة الحربية الوحيدة لديه. فكلّ نهار، يبقى مستلقياً على السرير، تحيط به رائحة المخدّرات وضجيج أسطوانات

(*) cyrillique: نظام كتابة يُستخدم في عدّة أبجديات، منها الروسية والبلغارية وغيرها.

موسيقا الراب. يثرثر طيلة الوقت ضدّ البيض، ويقاطع نفسه أحياناً لتبرير اختيار اسمه:

– قال النبيّ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك، عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله».

ثمّ يعود للشخير. لم يكن بأفضل حالٍ إلّا مساءً. آنذاك يظهر في «لاشوف سوري» مصحوباً بصديقاته الأخريات، فيثير غضب سيفورا. كان يبدي محبّةً جليّةً لقاسم فيخاطبه بقوله Brother في كلّ لحظة. كما يوليه ثقةً كاملة، فيكلّفه بتلقّي الأرباح الطائلة التي يستقيها من بيع رزمٍ صغيرةٍ من المسحوق الأبيض لمستخدمي المراحيض وحسابها. هكذا بات قاسم يُمضي جزءاً من وقته منكبّاً على دفترٍ من القياس الكبير، يوازن أعمدةً:

مباع مدفوع إقراض

ولتعويضه، يمنحه جهاد بين حينٍ وآخر بسخاءٍ ورقةً نقديةً من فئة المئة دولار، تساعده في استكمال مصاريف الشهر. هذا معروف! الشرطة عديمة الرحمة. فقد وضعت حدّاً لهذه الأخوّة الجميلة بسجن جهاد مرّةً أخرى، لمدّة سنوات، في أحد سجون «فورت أوريغون»، في ولاية نيويورك. نوى قاسم أن يزوره مع سيفورا، والحال أنّها، تطبيقاً للمثل: «بعيدٌ عن العين بعيدٌ عن القلب»، أخذت تبحث عن شريكٍ آخر ولم يكن لديها وقتٌ من أجله.

في نهاية المطاف، ذهب قاسم إلى السجن بمفرده. غادر نيويورك لأوّل مرّة، من محطّة «بِن». كان القطار مكتظّاً بالركّاب، ووجد بصعوبةٍ مقعداً للجلوس بين سيّدتين سوداوين –إحداهما تلفّ وجهها بتشادور– ولم

يتأخّر في أن يستنتج أنّهما ذاهبتان لزيارة زوجيهما المسجونين هما أيضاً في «فورت أوريغون». لدى الخروج من المدينة، ضغط عليه المشهد. كلّ هذه الحقول المتموّجة من الثلج على مدّ النظر. بدا له أنّه يسير من دون أملٍ في العودة نحو طرفٍ من آخر العالم، قطبٍ غامضٍ لا هو القطب الشمالي ولا القطب الجنوبي. لم يكن في القطار، مثلما لاحظ، سوى أميركيّاتٍ من أصلٍ إفريقي يجلسن حوله، شابّات، مسنّات، نحيلات، بدينات، حزينات، ضاحكات، أنيقاتٍ أو مهملات الهندام. ليخال المرء أنّ الرجال هم وحدهم المسؤولون عن الجرائم العديدة في أميركا. تشجّع وقدّم كوب قهوةٍ لجاراته.

شرحت له إحداهنّ قائلةً: «في الماضي، كان البيض يُعدِمون رجالنا، فيشنقونهم على أغصان الأشجار. هل تعرف أغنية بيلي هوليداي(*)؟».

اعتذر قاسم وهو يشعر بالخجل: «أنا لست ملمّاً بالموسيقا».

استأنفت: «أمّا الآن، فلم يعد ذلك ضرورياً. لقد عثروا على وسيلةٍ أبسط ولم يعودوا يتكبّدون هذا العناء. صاروا يكتفون برميهم في السجن لأتفه الأسباب».

كانت تتحدّث من دون غضب، بشيءٍ من التسليم.

سجن «فورت أوريغون» مبنىً مخيفٌ حجارته رمادية، تعلوه عدّة أبراج مراقبة بسبب العدد الكبير من حالات الهرب في السنوات الأخيرة. فالسجناء يستفيدون من الغابة المنيعة التي تمتدّ حوله. وقد هزأ شخصٌ اسمه بيدرو لعدّة أشهرٍ من نحو ألف حارسٍ مصحوبين بكلابٍ بوليسية.

كان جهاد قد فقد بعضاً من وزنه، يرتدي ملابس الموقوفين الحمراء،

(*) Billie Holiday (1915-1959): مغنّية أميركية للبلوز والجاز.

ويبدو ضعيفاً ضعفاً غريباً من دون ضفائره، وأبدى فرحاً عميقاً عندما رأى قاسماً. بادره بالقول: «أتيتَ يا أخي! أين سيفورا؟».

قال قاسم مرتبكاً: «لقد كلّفتني بتقبيلك. لم تتمكّن من المجيء».

بدرت عن جهاد حركةٌ من كتفيه تعني أنّ على المرء توقّع كلّ شيءٍ من النساء. تولّت أمرَه جمعيةٌ من المحامين والمساعدين الاجتماعيين الذين يعملون على نحوٍ شبه مجّانيّ، ويبذلون جهودهم ليُخرِجوا من بين أنياب النظام القضائي مساكين فقراء، كثيراً ما يكونون ضحايا أكثر منهم مذنبين، والأهمّ أنّهم يحرصون على إعادة إدماجهم. هكذا تعلّم مهنةً، لأوّل مرّةٍ في حياته: الإلكترونيّات.

قال قاسم في نفسه: يا له من بلدٍ غريب! يتجاور فيه الأفضل والأسوأ، فلا يعلم المرء ما إن كان يجب عليه امتداحه أم التقوّل عليه.

قال جهاد منتحباً: «هذه المرّة، حُكم عليّ باثني عشر عاماً. باثني عشر عاماً يا صاحِ، تخيّل! سأكون في السادسة والثلاثين من عمري عندما أخرج من هنا. عجوزاً. وأنت، هل أنت بخير؟ ألم يزعجك أحد؟».

احتجّ قاسم: «ولماذا يزعجني أحدهم؟».

- كنت تعمل لصالحي.

في ذلك المساء، أدرك قاسم أنّ بيع المخدّرات في مراحيض مرقصٍ ليس أمراً قانونياً تماماً. وأنّه سُرّح من العمل لهذا السبب.

تفرّق موظّفو «لاشوف سوري»، لأنّ جوان فلوريس، المدير، الجاثم دوماً على صدورهم بإنكليزيته السيّئة كفنزويلي ورائحة فمه المنفّرة، ظهَر متباهياً كعادته. التحق قاسم بقبوه للمرّة الأخيرة. الأمر الغريب هو أنّه لم يبالِ عملياً بتسريحه من العمل وبالبطالة المحتملة التي ستعقبه. كانت

لديه همومٌ أخرى. في الواقع، لم يكن يفكّر إلّا برمزي. موت لاشاسكونا هو بداية العمليات. الوباء بدأ إذاً. هل قلم حمرة «برويزد هيبيسكوس» فعّال؟ ما من وسيلةٍ لمعرفة ذلك. كم من الجرائد يجب تصفّحها! كم من القنوات التلفزيونية يجب التفرّج عليها! كم من المحطّات الإذاعية يجب التقاطها للتوصّل إلى تكوين فكرةٍ عن الواقع! الأمر ليس مثلما كان في «بورتو فيراي» حيث تنتشر الأخبار بسرعة. فهذه المدينة عملاقةٌ بالنسبة لقزمٍ مثله!

لم يكن يرى شيئاً من قبوه. كان يعلم فحسب أنّ دفقاً من الثلج يتساقط على المدينة. عاصفة ثلجية حقيقية. لذلك، كانت السهرة ساكنة، إذ احتُجز اثنان من مرتّبي الأغاني في ضاحية كلٌّ منهما وكان الراقصون نادرين، وشهد تحرّك متعاطي المخدّرات تباطؤاً كبيراً. عندما رآها، بشعرها الأحمر المشعّث، شعر بضربةٍ حقيقيةٍ في قلبه. لاشاسكونا. ليخال للمرء أنّها عادت، أصغر سنّاً بثلاثين عاماً، لتزور مجدّداً أرضاً اشتاقت إليها. اقتربت منه وحدّقت فيه بمقلتَيها المتّسعتين واللامعتين، مقلتَيْ مدمنة مخدّرات، هكذا فكّر.

سألته: «هل لديك؟».

فأجاب بهزّةٍ من رأسه أن نعم.

– كم تريدين؟

– حسب السعر.

تلفّظ برقم. أومأت أن نعم. صفقةٌ معتادةٌ ومتحفّظة. تبادلت الأيادي أكياساً صغيرةً مغلّفةً بالنايلون وأوراقاً نقديةً خضراء. ثمّ سارعت إلى مراحيض الرجال، على الرغم من إمكانية تمييز تلك المراحيض بمباولها

المطابقة لتلك التي يستخدمها مارسيل دوشان(*). كانت ترتدي ملابس صيفيةً، ثوباً حريرياً بلونٍ أزرق زاهٍ يكشف كتفيها السمراوين، وتحمل تحت إبطها محفظةً كبيرةً مثلّثة.

ناداها لينبّهها إلى خطئها، لكنّها سحبت بسرعةٍ باباً خلفها. دخل زبونان أو ثلاثةٌ، ثمّ خرجوا. زبائن مداومون لا يستطيعون الاستغناء عن حلبة رقص، حتّى لو كان الطقس جليدياً أو مثلجاً. أشهدوا قاسماً على كلامهم وتبادلوا تعليقاتٍ حول الطقس.

- في أيّامٍ كهذه، يحلم المرء بالانتقال إلى كاليفورنيا!

- أو إلى فلوريدا!

- بل أفضل! إلى جامايكا. أمضيتُ فيها أسبوعاً العام الماضي.

فجأةً ظهرت سيفورا وعلى صدرها سلّة السجائر، بهيئةٍ لا تزال حزينة. سألت قاسماً: «هل رأيت صديقتي إيلينا؟ تلك الصهباء؟».

- إنّها في المراحيض.

أشار بيده إلى المراحيض، وأثناء صعودها السلالم مجدّداً، تابع بعينه متاهات مؤخّرتها. بعد قرابة ثلاثين دقيقة، وبما أنّ إيلينا لم تظهر مجدّداً، سمح لنفسه بأن يصيح من دون تحديد وجهة كلامه: «هل أنتِ بخير؟».

صمت. قلِق، فوضع جانباً بعصبيّةٍ رزم المناديل الورقية التي يبيعها، وهي من نوع تمبو بدولارٍ واحد. بعد ساعة، نفد صبره وقرّر الذهاب للطرق على الباب. لم تكن قد تكبّدت حتّى عناء إغلاقه بالمفتاح، فكان كافياً أن يدير القبضة. وجدها محصورةً في المساحة الضيّقة بين جدار المرحاض

(*) Marcel Duchamp (1887-1968): رسّامٌ وفنّانٌ تشكيليٌّ وأديبٌ فرنسي.

وحوضه، بوجهٍ أبيض كالجير الكلسي وعينين مقلوبتين، وتكشيرةُ حيوانٍ تكشف أسنانها. وفي الأرض محتوى حقيبتها. فضلاً عن مستحضرات التجميل الموجودة بالضرورة، لم يكن ينقص شيءٌ من المعدّات المعروفة لدى المدمنين على المخدّرات: ملعقة صغيرة سوّدتها النار، قدّاحة، محقنة، أكياس نايلون فارغة. اجتاحت قاسماً نوبة هلعٍ حقيقية. جرعة زائدة. الأمر يتعلّق بجرعةٍ زائدة! أمسكها من رسغي قدميها وجرّها إلى مقربةٍ من المغاسل. لا! لا يمكن أن تموت لاشاسكونا مرّةً ثانية. لا أحد يموت مرّتين. لن يتحمّل ذلك. لن يسمح الله بتكرار هذه الفظاعة. فقدَ صوابه وأخذ يدور حولها بلهفة.

لم يعرف قاسم مطلقاً من الذي أرسل إشارة الإنذار.

في غمضة عين، سارع للقدوم الفضوليّون بعد أن اجتذبتهم رائحة المآسي المريرة والمثيرة للغثيان، إذ لم يشاؤوا إضاعة شيءٍ من المشهد. وعلى الرغم من أنّ رجال الشرطة، وقد حضروا هم أيضاً بسرعة، صاحوا: «هيّا! لا تبقوا هنا!»، فلم يتحرّك الناس، وأخذوا يتهامسون ويتأسّفون ويلومون وهم يشرئبّون بأعناقهم للرؤية. في غمضة عين، رُمي قاسم أرضاً وقُيّدت يداه بالأصفاد، ثمّ دُفع بقسوةٍ إلى داخل سيّارةٍ لنقل السجناء مركونةٍ بمحاذاة الرصيف. بعد بضع دقائق، أُدخل إلى السيّارة أيضاً المدير جوان فلوريس الذي أخذ يُقسِم أنّ أموراً كهذه لم تحدث يوماً في مؤسّسته. لم تكن كلماته مفهومة، لأنّ الانفعال والخوف جعلا لكنته أقوى.

كانت تثلج.

بدت مصاريع السماء مفتوحةً وتسمح بمرور دفقٍ أبيض لا ينتهي، يخنق الشوارع والطرق ويُغرِق المارّة في صمتٍ يمكن وصفه بأنّه فوق

طبيعي. شيئاً فشيئاً، تحوّلت المدينة إلى ما يشبه قصر الجميلة النائمة، المحفوظ على نحوٍ سحري.

لماذا أنا محكومٌ دائماً بالاصطدام بالشرطة في كلّ مكان؟ هذا ما كان يفكّر فيه قاسم، يائساً.

فقد تلقّى تربيةً حسنة! المعمودية. المناولة الأولى. سرّ التثبيت. الإقامات عند الكشّافة. الجوقة في الكنيسة. علّمته دراستا منذ نعومة أظفاره أن يضمّ يديه على صدره ويرتّل «أبانا». في أيّ وقتٍ اختلطت الطرق المؤدّية إلى الخير والشرّ، إلى حياةٍ طيّبة أو سيّئة؟

يقع مركز الشرطة الذي توقّفت أمامه العربة أسفل المدينة، في حيٍّ أنيقٍ انتقلت إليه هذه القافلة من السيارات المزوّدة بصفّارات الإنذار وذلك السرب من رجال الشرطة المسلّحين. دُفع قاسم على ركبتيه فوق السجّادة الثلجية. نهض واقتيد بقسوةٍ إلى زنزانةٍ كريهة الرائحة وباردة كالثلج، ينام فيها على مقعدٍ رجلٌ آخر، أميركيٌّ من أصلٍ إفريقي. انتُزع الرجل من نومه، فانتصب على مرفقه وتفحّص قاسماً. يبدو أنّ ما رآه لم يعجبه، لأنّه عاد للاضطجاع، مستديراً نحو الجدار، وعاد للشخير. تمدّد قاسم على المقعد الآخر. لم يُبقِه القلق الشديد مستيقظاً، بل إنّه سرعان ما نام. كان نومه محموماً، ممتلئاً بالأحلام المزعجة كالكوابيس، يتدافع فيها رمزي ولاشاسكونا وجهاد وأميناتا وزاراميان والثلج على الأرصفة، ودراستا وكلودومير.

عندما فتح عينيه في الصباح وهو يرتجف برداً في النهار القذر الذي يتسلّل من شقّ الباب، وجد نفسه وحيداً، إذ اختفى الأميركيّ من أصلٍ إفريقي. بعد قليل، أتى شرطيّان لاصطحابه. أعادا الأصفاد إلى معصميه

وقاداه عبر متاهةٍ من الممرّات إلى مكتبٍ قليل الأثاث، حيث ينتظره شرطيّان آخران. أحدهما أشقر، نظرته فولاذية، والآخر أسمر، أكثر ميلاً للابتسام، على طريقة ستارسكي وهاتش(*)، وهو مسلسلٌ تفرّج عليه في طفولته. صافحه الرجلان بمودّةٍ مصطنعة، وقال أحدهما بنبرةٍ أرادها لطيفة: «أنا جيمس، وهذا ديك!».

تذكّر قاسم عنف اشتباكاته السابقة مع القانون في «بورتو فيراي». لكن هذه المرّة، أظهر جيمس وديك لباقةً حقيقية، نوعاً من الألفة. لكن لماذا وجدهما مخيفين إلى هذا الحدّ؟ تلقّيا إفادته -كان ديك ينقر على حاسبه- وأعادا قراءتها عليه، ثمّ قدّماها له ليوقّع عليها. بعد ذلك، طرحا عليه بعض الأسئلة بعفويةٍ ظاهرية: «هل كنت تعمل لصالح ريزر ماتلين؟».

كرّر قاسم بذهول: «ريزر ماتلين؟ من هو؟».

- لا شكّ أنّك كنت تعرفه أكثر بلقبه جهاد.

هزّ قاسم رأسه: «على الإطلاق! أنا لا أعمل لصالحه».

ألقى عليه الشرطيّان نظرة لوم: «كنت تبيع المخدّرات لصالحه. بل إنّك ذهبت لزيارته في فورت أوريغون».

قال قاسم بارتباك، مرعوباً بسبب هذه التفاصيل الدقيقة كلّها: «إنّه صديق. كان ذلك كلّه يتمّ في إطار الصداقة. لم يكن عملاً».

أمسك ديك ملفّاً وقال من فوره:

- كان اسمها إيلينا ألفارادو. بورتوريكية. تسكن في ليتل أوديسا. هل سبق أن قابلتها في بيت الـ *girl friend* خاصّتك سيفورا كينغ؟

(*) Starsky and Hutch: إشارة إلى مسلسل أميركي بطلاه شرطيّان، أحدهما أسمر، أميَل إلى السذاجة، والآخر أشقر، أكثر تحفّظاً وتفكّراً.

كان قاسم سيحتجّ قائلاً: «سيفورا كينغ ليست الـ*girl friend* الخاصّة بي!» عندما تذكّر الأمور الحصرية التي كانت تسمح له بها. اكتفى بالقول مؤكّداً: «على الإطلاق!».

- كانت من روّاد مرقص «لاشوف سوري».

هل النبرة تأكيدية؟ أم أنّ الأمر يتعلّق بسؤال؟

أجاب قاسم، والخوف يتملّكه أكثر فأكثر: «أنا أعمل هناك منذ شهرين فحسب. لا أزعم أنّني أعرف كلّ زبائن لاشوف سوري، لكنّني أستطيع أن أُقسم إنّني لم أرها قبل ذلك قطّ».

- لكن ألم تكن تعرفها؟ هل أنت متأكّدٌ من أنّك لم تتناول الغداء أو العشاء معها عند سيفورا كينغ؟

رفع صوته وهو يرتجف خوفاً: «بما أنّني أقول لكما إنّني لم أكن أعرفها!».

- لا تصرخ!

كانت النبرة قاطعة، مميتة. لكأنّ قاسماً تلقّى ضربة سوط. شعر أنّ جيمس وديك لا يصدّقان كلمةً ممّا يقول. حدّق به جيمس، فارتجف تحت نظرة تلكما العينين الفاتحتين للغاية واللتين لا تفصحان عن شيء.

- لماذا ذرفت دموعاً سخيّةً وأنت تضمّها؟ الشهود جميعاً يتّفقون على هذه النقطة. بدا عليك تأثّرٌ شخصيّ. بل بدوت يائساً. نما إلينا أنّك كنت متمدّداً فوقها. تغمرها بالقبلات.

قال قاسم، مدركاً عدم معقوليّة تفسيره: «ذلك أنّها كانت تشبه.. شخصاً عزيزاً جدّاً عليّ وخسرته منذ وقتٍ قريب».

راودته نفسه أن يتحدّث عن لاشاسكونا. غير أنّ خوفاً سخيفاً من توريط رمزي ردَعه. لم يقل شيئاً. فجأةً، أعلن ديك بنبرةٍ مرحة: «حسناً يا سيّد مايومبه، انتهى الأمر لهذا اليوم».

فهتف بذهول: «كيف ذلك؟».

اتّخذ الرجلان هيئةً وقورة: «في غضون بضعة أيّام، يومين أو ثلاثة، ستمثل أمام قاضي المحكمة الثالثة التي ستقرّر إن كان سراحك سيُطلق».

كاد قاسم يجهش بكاءً. ترك نفسه ليُقاد، مترنّحاً وشبه فاقدٍ للوعي، إلى الزنزانة. وجد فيها أميركياً آخر من أصلٍ إفريقي، باسماً، ودوداً. استمع بانتباهٍ إلى قاسم ثمّ عبس: «أمور المخدّرات سيّئةٌ على الدوام. بالنسبة لي، الأمر يتعلّق بالضربات والإصابات فحسب. سيُحكم عليّ ببضعة أشهر. ألم يسبق أن أوقفت؟».

قال قاسم مرتجفاً: «في الولايات المتّحدة، إطلاقاً! لكن في أماكن أخرى، بلى!».

ما الذي يمكن أن يجري في حال بحثوا في ماضيه؟ في حال نبشوا تجاوزاته في سامسارا و"بورتو فيراي"؟ انقضت الساعات التالية وهو يستمع إلى أوبيرون -هكذا كان اسمه- عازف القيثارة في فرقة موسيقية، يتحدّث بإطنابٍ عن موضوعٍ يجهله قاسم: الموسيقا.

- موسيقا الريغي تحتلّ مكانةً متعاظمةً في أميركا بفضل الهيب هوب. منذ بضع سنوات، لم يكن ثمة مكانٌ لها. بوب(*) العظيم نفسه لم يُقبَل على الفور.

(*) إشارة إلى بوب مارلي Bob Marley (1945-1981)، وهو مؤلّف أغانٍ وملحّنٌ ومغنٍّ جامايكي.

في حدود الواحدة بعد الظهر، قُدِّم لهما حساءٌ فاتر، التهمه أوبيرون بشراهة. ثمّ أتى شرطيّان لأخذه وبقي قاسم وحيداً مع أفكاره.

لا بدّ أنّها كانت الخامسة، وكان نعساً، محموماً، عندما فُتح الباب مجدّداً، وظهر على العتبة شخصٌ بالغ الضخامة، صاح قائلاً: «قاسم مايومبه!».

نظر إليه قاسم من دون أن ينهض. ما الذي يريدون منه أيضاً؟ ألا يمكن أن يتركوه بسلام؟ أنهضه الآخر من دون أيّ مراعاةٍ وأمره قائلاً: «اتبعني!».

سبقه عبر الممرّات وصولاً إلى مكتبٍ واسعٍ يلعب فيه رجلان بورق الشدّة وهما يستمعان إلى الراديو.

قال أحدهما وهو يقدّم له سجلّاً: «وقّع هنا!».

في نهاية المطاف، فهِم قاسم أنّه حرّ.

الثلج توقّف عن التساقط. والبساط النقيّ الذي غطّى البارحة الشوارع والأرصفة تغيّر لونه. ارتدى ثوب الحداد. جدرانٌ من وحلٍ مسودٌّ باتت تحاذي الشوارع. سار قاسم كالرجل الآليّ حتّى مدخل قطار الأنفاق ودسَّ نفسه فيه. لن تنمحي سريعاً ذكرى هذا الفاصل المخيف، هذا الاستجواب. شعر أنّه عالقٌ في شبكةٍ يجعلها كونُه لا مرئياً أشدّ تخويفاً وترهيباً. هكذا إذاً، كلّ تحرّكاته، مهما صغرت، معروفةٌ لدى الشرطة؟ لماذا تتجسّس عليه هكذا؟ ومنذ متى؟

في «إيبو ليليه»، كانت الشقّة فارغة. لم يكن زاراميان موجوداً. ما من أذنٍ متعاطفةٍ لتسمع حكاية مآسيه. ما من أحدٍ ليواسيه.

اضطجع في السرير.

فوجئ عندما وجد عملاً من دون مشقّة، بعد بضعة أيّام: في «بون بليزير». وسط جادّة فلاتبوش، على بُعد خطوتين من جسر بروكلين الرشيق الذي يتأرجح بجزل. «بون بليزير» متجرٌ كبيرٌ يقدّم ظهراً فطائر وشطائر مدوّرة لزبائن فرنكوفونيّين إلى حدٍّ كبير. لطالما شعر قاسم بالدهشة لوجود كلّ هذا العدد من الفرنكوفونيّين في نيويورك. لكن هذه المرّة، تعلّق الأمر على نحوٍ خاصٍّ بنساءٍ متزوّجاتٍ من أميركيين يكدحون، في حين أنّهنّ لا يمللن من مقارنة الولايات المتّحدة بفرنسا. لصالح هذه الأخيرة، بطبيعة الحال. فكلّ شيءٍ في الجنّة المفقودة أفضل وأجمل. لكنّ الغريب أنّه كان بين زبائن «بون بليزير» مجموعة أشخاصٍ تعود أصولهم إلى جزر واليس وفوتونا(*)، وصلوا إلى مانهاتن لسببٍ غير معروف. صاحب المحلّ، أكسل، وهو رجلٌ لطيفٌ ودائم الابتسام، أصله من مدينة نيس، كان عازف بيانو في الحفلات الموسيقية.

استفهم بصوتٍ لا يقلّ عذوبةً عن الألحان التي تُصدرها آلته الموسيقية: «من أيّ منطقةٍ أنت؟».

– أنا من ليل.

لم يبدر عنه أيّ استغراب: «ليل؟ في سنة 1990، قدّمتُ فيها حفلاً لا يُنسى. فقد طلب منّي الجمهور العودة ثماني عشرة مرّة. ثماني عشرة مرّة، أتسمعني؟!».

صحيحٌ أنّ مطابخ «بون بليزير» لم تكن تعادل لا مطابخ «دريم لاند» ولا مطابخ القصر الرئاسي ولا حتّى مطابخ «كليمنجارو». فهي تتألّف من

(*) Wallis-et-Futuna: جزر تقع في بولينيزيا، وهي من أراضي ما وراء البحار التابعة لفرنسا.

مجموعةٍ من الأفران العاملة بالأمواج القصيرة، الموضوعة بالتسلسل في ركن. يا لها من سعادةٍ أن تسمع تعبيراً تعرفه منذ الطفولة وتفهمه بلا عناء، بكلّ طبيعية! الأمر أشبه بمصادفة صديقٍ قديمٍ في الخارج. لأوّل مرّة، أدرك قاسم، مذهولاً، أنّ الفرنسية هي لغته. عندما كان طفلاً صغيراً، صحّح أخطاء دراستا وكيليرمان، وهي أخطاء كانت تدفعه للشعور بالخجل. وفي المدرسة، أُعجب برامبو وبودلير. أصبحت تلك اللغة، من دون أن يتنبه لذلك، لغته، إلى حدٍّ ما مثلما أصبح الإسلام دينه. سرعان ما تمتّع بالشعبية لأنّه أضاف إلى قائمة المأكولات شطائر وصفها بأنّها «كوبية» من دون أن يعرف حقّاً لماذا، بما أنّ قدميه لم تقوداه إلى كوبا يوماً - وكان لها أثرٌ واضح.

كان ذلك الأسبوع لا يُنسى حقّاً. وبالفعل، بعد شجارٍ أخيرٍ مع زاراميان -لأيّ سبب؟- أخذ أغراضه وانتقل إلى قطاعٍ من بروكلين مغايرٍ قدر الإمكان لذاك الذي غادره. كان القطاع السابق بسيطاً، بل ممتعاً؛ أمّا الآخر، فأقلّ بساطةً وإمتاعاً. فعلى تقاطعات الطرق يتجمّع رجالٌ مخيفو الهيئة، تتوقّعهم مستعدّين لمحاولة قتلك على الرغم من الجولات الدائمة التي يقوم بها رجال الشرطة. الشوارع تنزّ خطراً. تنبثق أعمدة الإنارة من جزر معتمةٍ لا يتمكّن النور الشحيح والمحمرّ من تبديد ظلمتها. والمبنى الذي وجد فيه قاسم مسكناً هو على صورة الحيّ. فلا يتبادل سكّانه، وجلّهم من الأميركيين من أصلٍ إفريقيّ أو من اللاتينيين، إلقاء التحيّة في ما بينهم. تتقاطع دروبهم بصمتٍ في الممرّات، يتكدّسون في المصاعد من دون أن ينظر كلٌّ منهم إلى غيره. وخلف الأبواب المصفّحة والأقفال المعزّزة الخاصّة بالشقق، يعيش كلّ ساكنٍ محتبساً، وهو يشعر بالخوف من جاره أو

بالكره تجاهه. يختفي أطفالٌ بانتظام، وتظهر صورهم المبتسمة والساذجة في بهو الدخول الذي تزيّنه تحذيراتٌ بلغتين من أشكال الآثمين كافّة. كان قاسم يعيش في رعب أن تصيبه ذات يوم نيران البنادق في صدره. أوصاه ليليان الذي ساعده في نقل أشيائه القليلة بأن يشتري سلاحاً. هو نفسه كان لديه سلاح. وقد منحه ذلك مادّةً ليتفوّه بقولٍ مأثورٍ من تلك الأقوال التي يحبّها: «يا عزيزي، عندما تعيش بين العور، تغلق عيناً. وعندما تعيش عند الأميركيّين أو عند الهايتيّين، تقتني سلاحاً».

عندما اكتشف قاسم مسجداً على بعد بضعة مبانٍ من بيته، شعر بأنّه أقلّ وحدةً وأخذ يتصالح تقريباً مع حيّه. حتّى إن لم يكن يرتاد ذلك المسجد سوى بوسنيّون نجوا من الإبادة الجماعية. بعد انتهاء الصلاة، كانوا جميعاً ينظرون خلسةً إلى هذا الأسمر. غير أنّهم كانوا جميعاً يركعون بالطريقة عينها ويصلّون:

﴿ولوْ يُؤَاخذ اللّه النّاس بِظُلْمهم ما تركَ عليها مِنْ دابّةٍ ولكن يؤخّرهم إلى أجَلٍ مُسمّىً فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾

ذات يوم جمعة، كان عائداً من المسجد عندما وجد عبارةً دُهنت على بابه بأحرفٍ سوداء هائلة الحجم: «*Fuck you. Go home*».

لماذا هذه الشتائم؟ بماذا أذنب؟ شعر كأنّه تلقّى لكمةً على وجهه من دون سبب. كان يترنّح على قدميه مثل ملاكمٍ تلقّى ضربةً عندما ظهرت الفتاة التي تسكن في الستوديو المقابل للستوديو الذي يسكنه، تتهاوى تحت ثِقل أكياس المشتريات.

اقتربت من قاسم وقرأت الشتيمة من فوق كتفه. شرحت من دون أن يتمكّن أحدٌ من معرفة ما إن كانت تؤمن بتلك الأحكام المسبقة أم تشجبها:

– الحقيقة أنّ الناس هنا لا يحبّون العرب.

قال محتجّاً: «أنا لستُ عربياً».

فردّت بدهشة: «أنت ماذا إذاً؟ من أين أنت؟».

اجتاحه دافعٌ غريزي. لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ آخر مرّةٍ تشاطر فيها الحميمية مع كائنٍ ما: «هل أستطيع أن أقدّم لك فنجان شاي؟ قهوة؟ شوكولا؟».

تردّدت وخفقت بجناحيها مثل طائرٍ خائف، لعلمها بضرورة التخوّف من الرجال. غير أنّ هذا الرجل بدا غير مؤذٍ أبداً. فأومأت برأسها موافقةً وطرحت مجدّداً السؤال الذي يسمعه على الدوام: «من أين أنت؟».

سبقها قاسم إلى الستوديو الخاصّ به. وأثناء نزعها معطفها وظهور مقدار شبابها وجمالها، ذهب لإحضار منشورٍ عثر عليه في «بون بليزير». دليلٌ سياحيٌّ له مهمّةٌ مزدوجة المشقّة: تحويل بلدان الجنوب الرازحة تحت ثقل البؤس أو سوء إدارة حكّامها إلى بلدانٍ يحلم المرء بالذهاب إليها ومتاحةٍ للمفلسين.

سعى جهده للشرح.

«زرقة السماء، نباتاتٌ متألّقة، أمواجٌ هادئةٌ في البحر الكاريبي، الفيروزي والدافئ، تؤرجحها الرياح التجارية أكثر ممّا تدفعها. غوادلوب بألوان الحلم. يبقى أن تُحفر على ملامح الجنّة هذه حيويةٌ ضاحكةٌ وقدَريةٌ في آنٍ معاً، حيوية السكّان الذين يستحضرون الماضي بإسهابٍ بحيث لا يستطيعون تخيّل مستقبلٍ آخر».

تنهّدت الفتاة: «يا إلهي، كان يجب أن أولد هناك!».

تحرّرت من قبّعتها غير الأنيقة فتراقصت كتلةٌ من الشعر الأسود على

كتفيها. بنشوةٍ طفولية، أخذت تتوقّف عند كلّ صفحة، مداعبةً بيدها الصور الفاخرة على الورق المصقول: «اجتماعٌ كبيرٌ لحاملي الأوشحة الزرقاء(*)». «جُزر الموانئ المؤقّتة للمغرمين بالرياح التجارية».

أخذت تكرّر: «يا للجمال! يا للجمال! هل بلدك هكذا حقّاً؟».

انتهى به الأمر إلى الاعتراف: «إنّه بلد أبي. أمّا أنا، فقد وُلدت في فرنسا».

بدت عليها خيبة الأمل، مثلما توقّع: «هل ذهبت إلى بلد أبيك؟».

اعترف بنبرة اعتذار: «ليس بعد. ما اسمكِ؟».

– لوبوف.

أخذت لوبوف تثرثر من دون توقّف، بل يمكن القول بصبيانية. التجأ أبواها، وهما روسيّان، إلى فيرجينيا وليس بمقدورهما مساعدتها، لأنّهما يرسلان معظم راتبهما إلى مسنّين بقوا في البلد يكسب أحدهم، وهو مهندس، ما يعادل عشرة دولاراتٍ شهرياً. لذلك، وبما أنّها لا تستطيع الاعتماد إلّا على نفسها، فهي تؤدّي عملاً غير معتاد ولا يعدّه الناس جدّياً. في المستشفى الخاصّ بالأطفال الروس المرضى -أجل! هذا موجود! نحن في أميركا حيث لا ينسى الناس أبداً المكان الذي أتوا منه-، هي جزءٌ من الفريق الذي يسلّي الأطفال المصابين بالسرطان. تعمل مهرّجة. يظنّ المرء أنّ كون المرء مهرّجاً أمرٌ سهل. لكن ليس ثمّة ما هو أصعب من هذه المهنة. لا يكفي أن تدهن وجهك أو أن تضع أنفاً كبيراً أحمر. يجب أن تدفع الناس إلى الضحك، وهذه موهبةٌ لا يتمتّع بها الجميع. يعلم قاسم، وقد قرأ موليير في المدرسة الثانوية، أنّ التهريج مهنةٌ صعبة!

(*) cordons bleus: لقبٌ يُطلق على الطهاة المهرة.

أمّا مساءً، فيتغيّر الديكور، إذ تنكبّ لوبوف على أنابيب اختبارٍ في مدرسة بوليتكنيك في الشارع السادس عشر، مصمّمةً على أن تصبح مُساعِدةً مخبرية. أحبّ قاسم هذه الثرثرة غير المفهومة إلى حدٍّ كبيرٍ بسبب الأخطاء النحوية التي لا تعدّ ولا تحصى وبسبب اللكنة. تمنّى ألّا تتوقّف أبداً.

فجأةً، نظرت إلى ساعتها.

- يا إلهي! عليّ الانصراف.

ارتدت معطفها وقبّعتها، فاسترجعت قباحتها.

صاح وهي تدخل الستوديو الخاصّ بها: «هل سأراكِ ثانيةً؟».

لم تردّ.

أغلق بابه مجدّداً وقد اجتاحه شعورٌ حادٌّ بالذنب. ما الذي يأمله من هذه الفتاة؟ ألن يتوقّف عن التحرّق رغبةً أمام أوّل تنّورةٍ يصادفها؟ لكنّ أميناتا لم تردّ على رسالته.

أميناتا. ناتا ميا.
كي أكون مخلصاً،
يجب ألّا يعيش الحبُّ منفصلاً.
أجيبيني،
ضمّيني إليك مجدّداً!

ترك الكتابة المهينة على بابه كما لو أنّه يحرص على إبقائها في ذاكرته، وسلك مجدّداً الطريق إلى «بون بليزير». بانتظار ساعة تقديم الوجبات، جلس في أحد أركان المطبخ وأخذ يقرأ الصحف. بالإنكليزية وبالفرنسية.

انتُخب رئيسٌ جديد. وجهٌ جديد. أكثر شباباً. أكثر تسلّطيةً. يثير القلق نوعاً ما على الرغم من ابتسامته الآنية. كم بدا ذلك بعيداً! في صحيفة «نيويورك تايمز»، وقع على معلومةٍ جعلته يقفز من مكانه.

العثور عل نصف دزينةٍ من الفتيات الأميركيات من أصلٍ إفريقيّ ميّتاتٍ في مهاجع جامعةٍ معروفة. بدا افتراض توقّف القلب الجماعي غير منطقي. وكذلك افتراض التسمّم الغذائي. ربّما يوفّر التشريح الذي أُجري بناءً على طلب العائلات إجابةً. وما يزيد من سوء الحادثة أنّه مع اختفاء هؤلاء الفتيات، يختفي فجأةً نصف عدد الأقلّية السوداء التي تتمكّن بصعوبةٍ من تأمين مقاعد في هذه المؤسّسة المهيبة.

عاد قاسم فجأةً إلى الواقع، فوضع الصحيفة من يده.

هو ليس بحاجةٍ إلى التشريح. فلديه الإجابة عن أسئلته. «برويزد هيبيسكوس» فعّال. لقد بدأت مذبحة البريئات.

بعد بضع دقائق، أتى أكسل ليصافحه، فهتف: «يا لها من هيئة! يخال المرء أنّك رأيت شبحاً».

فكّر قاسم برعب: لا، لقد رأيت الموت.

.6



يشكّل السفر من بروكلين إلى مانهاتن رحلةً حقيقية. فهو يعني الانتقال من بلدةٍ مزدحمةٍ بالسكّان، تسِمها البساطة، يقيم فيها مهاجرون من أصولٍ متعدّدة، إلى تجمّعٍ سكنيٍّ كوسموبوليتيّ ومحموم، غالباً ما يكون فاخراً، يثير الرهبة دائماً. لم يكن قاسم قد ذهب إلى بيت رمزي قبلاً. لدى خروجه من قطار الأنفاق، بدا له أنّه وصل إلى أرضٍ مجهولةٍ يلطّخها فقره. ليس في مدى النظر لا شخصٌ متشرّد، ولا متسوّل، ولا بوهيمي. تذرع الحيَّ باستمرارٍ سيّارات أمن، وعلى الرغم من البرد، يُنزِل رجال الشرطة نوافذ تلك السيّارات للتحديق في الدخلاء.

فكّر قاسم: لا خطر هنا في أن يُقطع عنقك مثلما هي الحال في جُحري. يخال المرء أنّه ليس في المدينة عينها. لكنّ الأمر مماثلٌ في أرجاء العالم كافّةً. فالأغنياء لا يريدون أن تكون بينهم وبين الفقراء صلة.

كان يجهل أنّ الباحثين الاجتماعيين يلحظون توسّع الهوّة بين الأغنياء والفقراء، على الرغم من الخطابات النبيلة. سرعان ما ستتحوّل هذه الهوّة إلى لسانٍ بحريّ، إلى نهرٍ مالحٍ لن يعود أحدٌ قادراً على عبوره.

تظاهر بأنّه عامل توصيل، فعبر من دون عقباتٍ كثيرةٍ حاجز بوّابٍ يرتدي الزيّ الرسمي، يقف في البهو مثل مدير الحفلات، واستقلّ المصعد حتّى عتبة الطابق السادس المغطّاة ببساط.

فتح البابَ خادمٌ هنديٌّ تبلغ وسامته حدّاً جعل قلب قاسم يغور في صدره. كان يرتدي زيّاً حريريّاً أبيض ويضع على رأسه عمامةً برتقالية. يخال المرء أنّه كائنٌ ربّانيٌّ هرب من منحوتة معبد. هل هو عشيق رمزي؟ عصرت الغيرة قلبه. عذّبه مجدّداً انجذابه المكبوت والذي لم يُعلَن قطّ صراحةً ولم يُحلّ قطّ بوضوح. فهِم أنّ انفعالاته أمام النساء، بل حبّه لأميناتا، لا قيمة لها أمام هذه الرغبة التي لن تُلبّى أبداً لسوء الطالع.

أبقى الخادم بحزمٍ الباب موارباً وهزّ رأسه: «إنّه يكتب!».

لم يكن يستطيع قبول أحدٍ إلّا بموعدٍ مكتوب. إذا كان يريد مقابلة السيّد مايومبه، فيستطيع العودة بعد ساعةٍ أو ساعتين... وسيعلم آنذاك ما إن كان يستطيع استقباله.

ذهب قاسم، مهاناً لكن مسيطراً على نفسه، ليكظم غيظه في أحد مقاهي برودواي. كان المقهى ممتلئاً بطلّابٍ يحيطون بأساتذتهم مثلما أحاط على الأرجح الرسل في زمانهم بيسوع. يتشرّبون كلماتهم ويحتضنونهم بنظراتهم المتعبّدة، ويسارعون لخدمتهم.

فكّر قاسم وهو يلوم نفسه: لماذا أغار منهم؟ كان بوسعي أن أكون أستاذاً لو أردت. لو أنّني بعد نيلي الشهادة الثانوية أمضيت وقتاً في متابعة دراستي. لكنّني كنتُ مستعجلاً. مستعجلاً على ماذا، أطرح الآن هذا السؤال على نفسي...

مستعجلاً على عيش حياةٍ بائسة!

على بعد خطوتين، تحرص الجامعة، وكأنّها ملاكٌ حارس، على بياض ثلجٍ لا يتحوّل إلى وحل. باحتها الواسعة مزروعةٌ بأشجارٍ تزيّنها أشرطةٌ من المصابيح الكهربائية فتجعلها ساحرة. هكذا أدرك قاسم أنّ عيد الميلاد يقترب. الميلاد ليس عيداً إلّا لأولئك الذين لديهم أهل، أصدقاء. الميلاد ليس لمن لا مأوى لديهم للقلب. مرّةً أخرى، تذكّر طفولته. تذكّر كيليرمان ودراستا وهما يجرّانه مع إخوته إلى قدّاس منتصف الليل. منذ أن انتزع ساخطون جمع التبرّعات من أطفال الجوقة، لم يعد القدّاس يُقام في منتصف الليل، بل في الثامنة مساءً. في الليل البارد والجافّ، كان أفراد العائلة يسيرون متتابعين.

في المنزل، يتقاسمون الهدايا الشحيحة: مجموعة أوراق لعب، حصّالة، شبشب مبطّن. لكن في إحدى السنوات -أين وجد أهله المال؟- تلقّى درّاجة. فبات يذهب وحيداً في عطلة نهاية الأسبوع على درّاجته إلى غابة هيلّو. غابة قيقب. كيف سيمضي أوّل عيد ميلادٍ له بوصفه مهاجراً في نيويورك؟ الأرجح أنّ الثلج سيتساقط. كما في أغنية *White Christmas* بينغ كروسبي(*). سترتدي مدينة الميسورين فراءها الفاخر وتدسّ ماساتٍ في شعرها. والمدينة الأخرى؟ ستواصل كما في الماضي سيرتها اليوميّة الدنيئة والعنيفة. القتل والسرقة يتواصلان أيضاً يوم 25 كانون الأول! لا تتضاءل لا حوادث القتل ولا حوادث السرقة. سوف يتفرّج على التلفزيون، الصاحب الوفيّ للوحيدين، ثمّ سيذهب إلى «بون بليزير» المزيّن لتلك المناسبة باللافتات الورقية المذهّبة التي سترسَم عليها أحرفٌ حمراء تتمنّى للجميع «عيد ميلادٍ سعيداً». ستُقدَّم فيه سهرةٌ تقليديّةٌ مخصّصةٌ للمنفيين

(*) Bing Crosby (1903-1977): مغنٍّ أميركيٌّ شهير.

الذين ستجعلهم المناسبة أكثر حنيناً، فيجترّون دونما مللٍ ذكرياتهم عن زوجة الأب المحبوبة.

بعد مرور ساعة، عاد إلى «ريفرسايد». وهذه المرّة، سمح له الخادم بالدخول.

يبدو أنّ «التزيينات» تدرّ مبالغ كبيرة! صحيحٌ أنّه اعتاد الفخامة التي يتمتّع بها صديقه منذ سامسارا. لكن بدا له أنّها تتجاوز الحدود في نيويورك. إذ يدخل نور النهار عبر الواجهة الهائلة الحجم التي تحتلّ جانباً كاملاً من مجموعة الصالونات. وعبر الزجاج يرتسم مشهد بطاقةٍ بريديّةٍ شوهدت سابقاً، لكنّ ذلك لا يقلّل من بهائها. تظهر أبراج نيوجرسي خلف الشريط المتموّج لنهر هدسون. أمّا الجانب الآخر، فتغطّيه لوحات. لذلك، ينتاب المرء شعور دخول صالة عرضٍ أو متحف. تتجاور أعمال فنّانين ممّن يتبنّون مدرسة الفنّ الفطري، أوروبيّين وروسٍ وكرواتيّين وهايتيّين. من بينها رسمٌ رائعٌ على الورق، بالريشة والحبر الصيني، لإيفان لاكوفيتش(*).

على الرغم من أنّ قاسماً لم يكن يفقه شيئاً في الرسم، فقد انتقل من لوحةٍ إلى لوحة وهو يشعر بالفضول والسحر والابتهاج. إذ إنّ تلك اللوحات ترمز، بطريقةٍ ما، إلى المسافة التي تفصل بين وجوده ووجود رمزي. للثاني الفخامة والملابس الفاخرة ومتع متذوّق الجمال. للأوّل الاشتباكات المؤسفة مع النظام والقانون. امتزجت حياتاهما في وقتٍ معيّن. لماذا انفصلتا؟

توقّف فجأةً أمام لوحةٍ بتوقيع شخصٍ يُدعى روبير سان بريس(**)

(*) Ivan Lackovic (1932-2004): رسّامٌ كرواتيٌّ يتبنّى المدرسة الفطرية.

(**) Robert Saint-Brice (1893-1973): رسّامٌ من هايتي.

عنوانها الملكة إرزولي *La Reine Erzulie*. تمثّل اللوحة امرأةً يلفّها ثوبٌ أحمر، لونه بلون عينيها، بلون الأفاعي التي تفحّ حول رأسها.

قال رمزي الذي ظهر فجأةً خلف ظهره: «أنت تتأمّل إرسولي زيه روج *Erzulie Jé Rouj*؟ أنا أيضاً أعشقها. هذه اللوحة تجسّد القدرة الشرّيرة التي تتحلّى بها المرأة».

أمام امتناع قاسم عن الإجابة، ألحّ رمزي: «أنت تعرف عن تلك القدرة شيئاً، أليس كذلك؟ أنت الذي أحببت كلّ ذلك الكمّ من السافلات!».

تغيّر مظهر رمزي مرّةً أخرى. فقد أسدل شعره الذي يتجعّد مثل شعرٍ مستعارٍ إفريقي، وبدّل بأطقمه الأنيقة قفطاناً من البروكار السميك، يرتديه فوق بنطالٍ غريبٍ متجعّد القماش. كان مجمل ما يرتديه يستثير في البداية الدهشة، ثمّ الإعجاب. يذكّر بزيٍّ قديمٍ لساموراي.

تساءل قاسم: ما الذي يلعبه الآن؟

قال رمزي: «أفترضُ أنّك أتيت لتشكرني».

– على ماذا؟

جلس رمزي على وسادةٍ من المخمل الأبيض وواجهه: «أو بالأحرى لتشكر هيوستون. أتعلم؟ إنّه طويل الباع. يعرف القضاة وقضاة الصلح والمحامين. سوف نحاول أن ندفع حزبه لتسميته مرشّحاً في الانتخابات الرئاسية القادمة. لن يكون ذلك أمراً سهلاً. لم يحدث أن تولّى الرئاسة شخصٌ أسود. سنحتاج ملايين».

قال قاسم متلعثماً، مذهولاً: «ماذا تقول؟!».

فأجاب الآخر: «أقول يا عزيزي إنّك لولاه لكنتَ تقبع حتّى الآن في

مفوّضيّة شرطة "تريبيكا"، أو في طريقك إلى "فورت أوريغون" لتلتحق بصديقك جهاد!».

إذاً هو يدين بإطلاق سراحه السريع وغير المفسّر إليه، إلى هيوستون؟ كيف علِما بما حدث له؟

قطع رمزي التفسيرات وهو ينظر إليه نظرة سخريةٍ من رأسه حتّى أسفل قدميه: «هل رأيت هيئتك؟ ألا يدفعون لك في غرفة التبويل تلك؟ آه! نسيت! لقد طردوك».

تذكّر قاسم هدف زيارته، فتجاهل هذه التهكّمات وسعى لأن يكون حازماً: «لم آتِ لأراك لهذا السبب، أعتذر منك. أتعلم لماذا أتيت؟».

ضحك الآخر بمكر: «قل الحقيقة! كنت تتحرّق لرؤيتي ثانيةً. أنا أيضاً، لا أخفيك. لكنّني أتركك تلعب لعبة الاستقلالية. وعندما تفرغ من تلك اللعبة، ستعود إليّ. وأنا سأكون موجوداً دائماً».

جهد قاسم ليبقى جامداً: «لا تمزح! لقد أتيت لأتحدّث معك عن الوباء».

تمطّط الآخر: «كلّ شيءٍ بأحسن حال. البنات يمتنَ ذات اليمين وذات الشمال كالذباب. إدارة الغذاء والدواء تشدّ شعرها وتحقّق في كلّ الاتّجاهات. لكنّها لن تجد شيئاً أبداً. هل تعلم كم درّت علينا "التزيينات" في دائرة بروكلين وحدها؟».

- لا أريد أن أعلم.

في هذه اللحظة، دخل شرينيفاس، الخادم، وهو يحمل على طبقٍ كوبين من الحليب وفواكه. انحنى نحو رمزي الذي أمسكه من كتفيه وقبّله

في رقبته، كما لو أنّ ذلك الأمر تلقائيّ، وهو يتوجّه بالحديث إلى قاسم: «إليك خبراً عظيماً! لم أعد "أزيّن" بنفسي».

كرّر قاسم بدهشةٍ لا تقلّ عن الدهشة التي كان سيشعر بها لو أنّ الأرض توقّفت عن الدوران: «لم تعد "تزيّن"؟».

قال رمزي بوقار: «لا! فقد أبلاني شرينيفاس من دائي. أواصل التأكّد من أنّ العمل يتمّ على نحوٍ جيّد. وظّفتُ "المزيّنين" بنفسي. لكنّني لم أعد أتدخّل في هذا الأمر. وبدلاً من ذلك، أقرض الشعر».

- أنت؟!

شرح رمزي راضياً: «لطالما أحببتُ الكتابة. منذ نعومة أظفاري. عندما أكتب.. أكون.. أصبح.. أمتلك آنذاك شعور امتلاءٍ لم يتمّلكني يوماً. شرينيفاس يؤكّد لي أنّني موهوبٌ وسأمضي بعيداً. ثمة أيضاً آخرون يقولون ذلك».

لم تبدُ على الخادم الوسيم أيّ انفعالات، كما لو أنّ رمزي لم يكن يتحدّث عنه. وضع أمام قاسم كأساً من الحليب وخصلةً من عنبٍ أسود يميل إلى البنفسجي، وانسحب من دون أن ينبس ببنت شفة، مثلما أتى.

رفض قاسم أيّ ابتعادٍ عن الموضوع واستأنف بجدّية: «لماذا تفعل ما تفعله؟ من أجل بعض المال وبعض المنافع المادّية؟ لهذا فحسب؟».

حدّق رمزي فيه: «لا تتظاهر بأنّك تحتقر المال. لماذا تنساق إلى كلّ الأمور الحقيرة التي تفعلها؟ أليس من أجل المال أيضاً؟ ليس هنالك من لا يهتمّ بالمال. المال هو الذي يدير العالم. لكن حذارِ! فالأشخاص من أمثالك هم الذين يُسجنون».

قال قاسم بعناد: «هل تعلم من أنت؟ أنت قاتلٌ متسلسل!».

رفع رمزي نظره إلى السماء: «كلماتٌ كبيرة! أيّ قيمةٍ لحياة الفتيات السخيفات النهمات لشطائر الهامبرغر والهوت دوغ؟ المستعدّات لمضاجعة أوّل من يقابلهنّ، مثل سيفورا؟».

أشار إلى اللوحات التي تحيط به: «هل تعتقد أنّ وجودهنّ يساوي في قيمته واحدةً من هذه التحف الفنّية؟».

قال قاسم وهو يجهش بالبكاء: «حياة لاشاسكونا لم تكن تساوي شيئاً في نظرك إذاً؟!».

هزَّ رمزي كتفيه: «لاشاسكونا كانت حقيرة. عاهرةً كالأخريات، الأخريات جميعاً. لديّ الدليل على أنّها كانت تخون العمّ جبريل».

أجهش قاسم بقوّةٍ أكبر: «أنت تكذب! أنت تكذب!».

نهض رمزي وأتى ليحضنه بين ذراعيه مثلما كان يفعل في الماضي. مسح وجهه بمنديله: «توقّف عن البكاء، فهذا يؤسفني. أنا أحبّك وسأحبّك دائماً، كن متيقّناً من ذلك. سيحضّر لك شرينيفاس غرفةً. هل ستبقى معي هذا المساء؟».

كان قاسم يعلم أنّ شيئاً ممّا يأمل به لن يتمّ بينهما. تمتّع بالقوّة الكافية لدفعه وسلوك طريق الخروج. في الممرّ، اصطدم بشرينيفاس الذي وضع بين يديه، بهيئةٍ مقتنعة، كتيّباً صغيراً، وتمتم قائلاً: «هذا كتابه!».

الغلاف باللون الأصفر الفاتح مزيّنٌ بصورةٍ لرمزي، لا يشبه نفسه، في وضعِ جديرٍ ببوذا، يداه مضمومتان على الفم المنفرج عن ابتسامةٍ غامضة. يحمل الغلاف الكلمات التالية، الأكثر غموضاً:

مدٌّ وجزر.

﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنِتُّم﴾.

ما الذي تعنيه هذه الحيلة الجديدة؟ دسَّ قاسم الكتيّب في جيبه وهو يتمتم بعبارة شكرٍ وسارع إلى المصعد. وفي أثناء ارتداء حذائه في الطابق الأرضي، عبرت البهو مجموعةٌ من الرجال، يسبقهم البوّاب الصاغر أمام أولئك السادة الموسرين والمفيدين. تعرّف قاسم بينهم على الأخوين جاكسون، كورنيل وهيوستون.

ما الذي يخطّط له هذان المحسنان المزيّفان؟

اجتاحه شعورٌ بالعجز، فتسلّل إلى الخارج.

الآن، كان الطلّاب يسارعون باتّجاه المطاعم، بزمرٍ ضاحكةٍ أو كثنائيّاتٍ يشدّ فيها كلّ شابٍ بغرامٍ ذراع فتاته. في باحة الجامعة، أخذت المصابيح تلتمع. وبطّن المدينة بياضٌ أشبه بالقطن.

لن يطول الوقت قبل أن يعاود الثلج تساقطه.

وبما أنّه لم يكن بعيداً عن دار «جاكسون فيونيرال هوم» الواقعة في الشارع 135، فقد ذهب ليحوم حولها. لو كانت لديه شكوك، لأقنعه عدد عربات نقل الموتى والسيّارات الخاصّة المتوقّفة قرب المبنى وجمهرة الأشخاص المرتدين الحداد والمسارعين إلى المداخل بأنّ الوباء في ذروته. ذكّره ذلك المشهد بأيّام «بورتو فيراي»، عندما كان رتل المركبات يمتدّ على طول الجادّة المؤدّية إلى «بيت الأرواح». لم يجد جين في مكتب الاستقبال، فقد حلّت محلّها فتاةٌ ترتدي زيّاً أنيقاً. لم يكن ما تأمّلته عينا قاسم المذهولتان هو تكوّراتها السخيّة، على غير العادة، بل أكداساً وأكداساً من الكتيّبات المماثلة لذلك الذي سلّمه إيّاه شرينيفاس. وكان جميع الذين يعبرون قاعة دار الجنائز يأخذون نسخةً. يتصفّحها بعضهم

بتقوى مثلما يتصفّح المرء كتاباً مقدّساً. والأكثر إثارةً للدهشة هو صور رمزي المعلّقة على الجدران، مبتسماً، رائعاً في زيّه الجديد ووقفته الجديدة، تجاور صور مشاهد مضيئةٍ ومريحةٍ مكرّسةٍ لجلب سلام الروح. ما الذي يعنيه هذا كلّه؟

بدا كأنّ الفتاة تعرّفت على قاسم، فقالت بعذوبة: «كم تشرّفنا زيارتك! صدّقني، نحن لا نزال نتأسّف على رحيلك ورحيل الرسول! العائلات تشتكي من أنّ المُزيِّنات لم يعدن مذّاك يتمتّعن بالألق الذي كنّ يتمتّعن به في الماضي».

قال قاسم متلعثماً: «الرسول؟».

بدت مستغربةً جهله. ألا يعلم أنّ الدكتور رمزي النووي قد أُعيدت تسميته بالإجماع بالرسول بفضل مساهمته الاستثنائية في رفاهية الجماعة؟

سأل قاسم مذهولاً، متسائلاً ما إن كان عليه أن يضحك أم يبكي أم يغضب: «وما الذي فعله؟!».

حدّقت فيه بشفقةٍ وشرحت بصبر. لقد طوّر الرسول أسلوب حياةٍ يسمح بتحويل الإنسانية بأكملها، في حال أولته الاهتمام الذي يستحقّه. وأسلوب الحياة هذا يظهر على شكل مجموعةٍ شعريّةٍ يجب التأمّل فيها كلّ يوم.

صحيفة «نيويورك تايمز» نفسها نشرت عنها عرضاً في آخر أعدادها، مقارِنةً هذه المرثيّات بتلك التي كتبها والت ويتمان(*). ويستكمل هذه التأمّلات الشعرية اليومية نظامٌ غذائيٌّ يسمح بمحاربة هذا الوباء الوطني الأميركي، لا بل العالمي، المسمّى: البدانة.

(*) Walt Whitman (1819-1892): شاعرٌ وكاتبٌ وصحافيٌّ أميركي.

- قلتِ لي البدانة؟!

تابعت بنبرة المتعمّق. هذا النظام الغذائي إلزاميٌّ بخاصّةٍ بالنسبة إلى مجتمع السود. فهو يمنع التمليح وقتل الحيوانات بالرصاص واللحوم الباردة والبسلّة الحمراء والسوداء، zyé nwoué، العصيدة، خبز الذرة، خبز البطاطا، أي باختصارٍ كلّ ملذّات المطبخ التقليدي الجنوبي، المعدّ بعنايةٍ منذ أقدم العصور. غير أنّ الفتيات اللواتي ينجحن في اتّباعه وخسران الوزن يكافأن بصندوقٍ مجّانيٍّ من مستحضرات التجميل من ماركة «كوين أوف شيبا»، يتضمّن أحمر الشفاه الشهير «برويزد هيبيسكوس».

ها نحن أولاء نعود إلى قلم الحمرة المسموم ذاك!

جمد قاسم في مكانه كالمشلول. دفعته مثابرة الخطّة واتّساعها للاضطراب. فالفتيات المسكينات يُطارَدن ويُهاجَمن من الجهات كلّها، في أرواحهنّ وفي لحومهنّ، ولا تبقى لديهنّ أيّ فرصةٍ للنجاة.

خلُصت موظّفة الاستقبال للقول: «الرسول أكثر من قدّيس، إنّه إله. وهو جميلٌ إلى درجة أنّه لا يمكن أن يكون من البشر».

انسحب قاسم متعثّراً.

ما الذي يجب عليه فعله؟ إخبار الشرطة؟ ارتعد وهو يتذكّر وجهَيْ جيمس وديك. لن يصدّقاه. هو من سيرميان به في السجن إذا تجرّأ على المثول أمامهما. ما قيمة كلمته كمهاجرٍ وخلاسيٍّ ومتاجرٍ بالمخدّرات وإرهابيٍّ مقابل كلمة جميع أولئك المحسنين للإنسانية؟! رمزي وكورنيل وهيوستون جاكسون...

في بهو مبناه، صادف لوبوف وهي تركض نحو مدرسة البوليتكنيك

فابتسمت له. كان مضطرباً إلى درجة أنّه لم يرها، ما أصابها في مقتل، لأنّها كانت تشعر بضعفٍ تجاهه. هكذا تسير الأمور. لم يكن قاسم يتوقّع أنّه لم يكن عليه سوى التلفّظ بكلمةٍ واحدة كي يمتلك امرأةً بمثل هذا الشباب وبمثل هذه الحلاوة...

.7

سرعان ما تراجعت حماسة زبائن «بون بليزير» الذين كانوا يستحسنون قاسماً. فليكن! يعرفونه خجولاً وقليل الكلام. لكنّهم جميعاً حسّاسون لعذوبته، لتهذيبه الفائق ولاستعداده لمساعدة الآخرين. لكن ألم يتحوّل إلى شخصٍ وقحٍ وفظّ؟ لم يعد ينتبه إلى شيء، وأصبح يرفع صحون الندماء بفظاظةٍ قبل أن تفرغ، ويخطئ في الطلبات، في حال تذكّرها أصلاً. كأنّه لم يعد يهتمّ سوى بقبض إكراميّاته. تجرّأ بعضهم على الهمس بأنّه يصبح مثل أولئك الأميركيين من أصلٍ إفريقي الذين يمثّل الشخص الأبيض عدوّاً على الدوام بالنسبة إليهم. عصر أحد الأيّام، قدّم قاسم فطائر محشوّةً بلحم الخنزير لطاولةٍ يجلس عليها زبائن دائمون يهود، فسحبه ربّ العمل، أكسل، الصريح على الدوام، إلى إحدى زوايا المطبخ: «قل لي ماذا يحدث. هل لديك متاعب مع الـ *girl friend* خاصّتك؟».

أجاب قاسم بحزن: «مع الـ *girl friend*؟ ليس لديّ *girl friend*!».

فكّر أكسل: ربّما تكمن المشكلة هنا.

واصل بصوتٍ مرتفع: «هل لديك مشكلاتٌ مالية؟».

قال قاسم: «لا! صحيحٌ أنّ أجري زهيد، لكنّني لا أطلب منك زيادة».

تظاهر أكسل بأنّه لم ينتبه إلى اللوم.

- ماذا يجري إذاً؟! الجميع يشتكون منك!

فكّر قاسم مطوّلاً. كم سيكون مريحاً لو أنّه يتحرّر ويعترف بكلّ شيء. في نهاية المطاف، قرّر ألّا يخفي شيئاً من الحقيقة. لكنّ قصّ حكايةٍ ليس أمراً هيّناً. الحكاية مثل شجرة. نرى الأغصان، نرى الجذع، ولا نرى الجذور التي تغوص في تربة الذكريات. قرّر قاسم العودة إلى لقائه الأوّل برمزي، في سامسارا، عندما كان يهيم وحيداً في الشوارع بعد اعتداء «دريم لاند». آنذاك، اعتقد أنّه محسن. امتلأت عيناه بالدموع عندما تذكّر ذلك الزمن. عندما صمت، هزّ أكسل كتفيه وحدّق فيه، غير مصدّق: «وتأمل بأن أصدّق هذا؟!».

قال قاسم بتعب: «أقسم لك على أنّ ما أقوله هو الحقيقة بحذافيرها. هل تعرف القول القائل: الحقيقة تتجاوز الخيال؟ هل تعتقد أنّني أستطيع اختراع أمورٍ كهذه؟ أنا عاجزٌ حقّاً عن ذلك، فأنا أفتقر إلى الخيال. لطالما كنت الأخير في دروس التعبير بالفرنسية».

قال أكسل بقلق: «يجب أن أفكّر! المأساة هي أنّ الناس هنا، بيضاً وسوداً، يعشقون المشعوذين. زعماء الطوائف، الواعظون، مخترعو الأنظمة الغذائية الوهمية، هؤلاء جميعاً يزدهرون».

تسلّح قاسم بدلوٍ ومكنسة وذهب لتنظيف صالة المطعم التي خوت من الزبائن. بات عدد الروّاد أقلّ منذ البارحة. كانت شمسٌ باردةٌ تتشبّث بالسماء وتداعب أشعّتها خدود المارّة الذين يملؤون الشوارع، بثيابهم الثقيلة. تحت قبّعاتهم، ظهر بعضهم شبيهين ببابا نويل، باستثناء كيس

الهدايا الواجب توزيعها. عند أحد تقاطعات الطرق، كان أعضاء في جيش الخلاص يرتدون زيّاً مزركشاً يغنّون ويجعلون أجراسهم الصغيرة ترنّ وسط اللامبالاة التامّة. أخذ قاسم يدوّر في رأسه الفكرة عينها مراراً وتكراراً. لو أنّ العدالة، بدل أن تهاجم السمك الصغير، البائسين المساكين مثل جهاد ومثله هو، تنقضّ على المذنبين الحقيقيين، لكانت الحياة بالتأكيد أكثر قابليةً للعيش.

قال رمزي ذات يومٍ ساخراً: «لا يُلاحَق إلّا صغار المجرمين».

أجل، هكذا يسير العالم! ربّما يصبح رمزي كاتباً مشهوراً. ربّما يُستدعى هيوستون لاحتلال أعلى المراتب الوظيفية! وهو، ما الذي سيكون عليه؟ سيبقى بائساً!

على الرغم من البرد، كان ليليان يذرع الرصيف ذهاباً وإياباً وقد عقد حول رقبته وشاحاً صوفياً أحمر، أمام المبنى الذي يسكن فيه قاسم. أعلن بتسليم: «اختُطف عمّي. وهؤلاء المجانين يطلبون من العائلة التي لا تملك جلد أردافها نصف مليون دولار فديةً. الاختطاف يتحوّل إلى لعبةٍ وطنية. لكنني لم آتِ لأتحدّث إليك عن هاييتي. لقد وصلتك رسالة».

صاح قاسم: «رسالة!».

قال ليليان الذي لم يكن يجهل شيئاً من غراميّات صديقه: «وهي مرسلةٌ من مرسيليا يا عزيزي! لا حاجة لأن يكون المرء متبصّراً ليخمّن من كتب إليك».

أميناتا. ناتا ميا.
هل صوتك هو الذي
يخرق الصمت أخيراً؟

لم ينتظر قاسم أن يدخل كي يمزّق بيدٍ مرتجفةٍ المغلّف المصنوع من ورقٍ بنّيٍّ رخيصٍ. فتح ورقتين مسطّرتين بالمربّعات، انتُزعتا من دفترٍ مدرسيّ. نظر إليه باستنكارٍ مستأجرون يقفون في البهو بانتظار المصعد:

ما هذا؟! لا يزال هذا العربيّ يتجوّل هنا!

لكنّه لم يلحظ تلك النظرات بسبب انسياقه للحماسة.

قاسم يا عزيزي،

العائلة كلّها تهديك السلام. لم أشأ أن أكتب لك قبل أن أتأكّد تماماً. البارحة، رافقتني ماما إلى مستشفى لودانتيك حيث أجروا لي فحصاً بالموجات فوق الصوتية: إنّه صبيّ. الحمد لله ربّ العالمين.

نظراً لوضعها، تخلّى بابكر عن إكراهها على العودة إلى المدرسة الثانوية. لم يعد أمر الشهادة الثانوية وارداً. لقد واتاها الحظّ كثيراً، لأنّها وجدت عملاً في «اليد الممدودة» حيث لم ينسوه. بل على العكس، فهم يتحدّثون عنه كلّ يوم. تهتمّ الجمعية حالياً بمحو أمّية النساء. وبسبب معرفة أميناتا بلغة الولوف(*) واللغة الفولانية، فقد وظّفوها على الفور. يا لمحو الأمّية من مهمّةٍ مثيرة! قريباً، ستتمكّن النساء المهاجرات من قراءة ديوان بابلو نيرودا «عشرون قصيدة حبّ وأغنية يائسة» مترجماً.

جسدي الريفيّ البدائيّ يحرثك
كي يثب الآن من أعماق الأرض.

ما من شكٍّ في أنّ أميناتا ستكون زوجةً ممتازة. فهي لم توجّه إليه أيّ لومٍ على تخلّيه عنها وهربه على الطريقة الإنكليزية، ولا عن شهور صمته

(*) wolof، لغةٌ محكيةٌ في السنغال وموريتانيا.

الطويلة. انتهت الرسالة على النحو التالي: «تلك التي لم تساورها الشكوك يوماً تجاهك».

أميناتا. ناتا ميا.
حبّنا شمعةٌ
يهتزّ لهبها،
يميل، لكنّه لا ينطفئ أبداً.

.8

يا لقلب الإنسان! فهو يفاجئنا باستمرار.

كان قاسم يعتقد أنّه يكره أميركا التي لم يراكم فيها، وايمُ الحقّ، سوى خيبات الأمل. لكن ها هو ذا يلاحظ عندما أوشك على مغادرتها أنّ ألف صلةٍ، خفيةٍ وضئيلة الحجم، نمت من دون أن يدرك ذلك، تربطه بهذه الأرض. الواقع أنّ تنبّؤات عثمان وجوزيف لم تتحقّق. تذكّر آخر محادثةٍ له معهما في مقهى «برازيرو». فقد أكّد جوزيف: «هذا هو المكان الوحيد الذي يستطيع زنجيٌّ فيه أن يُظهِر فحولته».

لم يتمتّع بالفحولة، مثلما خمّنت الفتيات في «برازيرو»، ثمّ في «فلامنغو». غير أنّ أسفاً انتابه. ماذا! لن يشقّ طريقه بعد الآن بمنكبيه بين شغّيلة أرصفة بروكلين، الراكضين سعياً للحصول على العملة الخضراء! لن يحشر نفسه بعد الآن، تضغط صدره مئات الصدور الأخرى، في فم قطار الأنفاق، المثير للغثيان مثل فم عجوزٍ لا يعتني بلثّته! لن يملأ بعد الآن عينيه بنور وذهب «تايمز سكوير»، ضائعاً بين جميع أولئك الذين خاب رجاؤهم بالحلم الأميركي ممّن ليس لديهم خيارٌ بديل!

ما الذي سيعود إليه؟ غصّ وهو يتذكّر مجمّع «بومارشيه» السكني،

برائحته التي تشبه رائحة الملفوف، أو وهو يتذكّر جمعية «اليد الممدودة» بمراهقيها المتمرّدين.

لكن كادت عقبةٌ كبيرةٌ تمنع مشاريعه كلّها. كيف يحصل على المال اللازم للسفر؟ هو يفضّل الموت على أن يطلب من رمزي. أمّا أصدقاؤه النادرون، ليليان وزاراميان وسيفورا، فهُم مثله معوزون. بقي أكسل. أقرضه هذا الأخير بسهولةٍ بالغةٍ السبعمئة دولار التي عنت الحرّية بالنسبة إلى قاسم. لم يطرح إلّا سؤالاً واحداً: «هل فكّرت جيّداً بخطوتك؟ أنت لا تزال يافعاً. بوسعك التسجيل في جامعةٍ ما والتحضير لنيل شهادة».

هزَّ قاسم رأسه بحزمٍ وأكّد، مدركاً أنّه لا يقول الحقيقة كاملة: «لطالما كرهتُ هذه المدينة، هذا البلد. لا شيء ممّا يقوله عنه الساذجون حقيقيّ».

ألحّ أكسل: «عرفتُ شاباً انطلق من لا شيء. أنهى دراسة الهندسة وهو يغسل الأرضيّات. واليوم، هو يجني ملايين الدولارات».

استأنف قاسم بحماسة: «الأهمّ أنّني لا أريد أن يولد ابني لقيطاً، من دون أن يعرف من هو أبوه، وأن يمضي حياته بعد ذلك وهو يبحث عنه. تكفي أصلاً صعوبة الحياة عندما يعرف المرء أباه».

ختم أكسل كلامه بحزن: «سأتأسّف على رحيلك!».

عندما خرج قاسم من «بون بليزير»، أثملته فكرة اقتراب حرّيته. لكن اختلط بذلك الشعور حزنٌ غريبٌ وشعورٌ حادٌّ بالندم. مثل ذاك الذي ينتاب من يدير ظهره للهب حريقٍ ولا يحاول إطفاءه. لكن ما الذي كان بوسعه فعله؟ أكان بوسعه مقاومة صعود رمزي؟ في اليوم السابق، أثناء مروره أمام مكتبة، رأى في الواجهة صورةً كبيرةً له إلى جانب نسخٍ من «المدّ والجزر». لم يكن بوسعه قياس تأثير هذه المجموعة الشعرية، أو بالأحرى

هذه التأمّلات الشعرية، لدى محبّي الشعر الحقيقيّين. لكنّه كان متيقّناً من أنّ وسامة رمزي وغرابته ستكفيان لاجتذاب عددٍ كبيرٍ من المشترين. كم هو غريبٌ مساره! «مزيّنٌ» أصبح كاتباً! هل تؤدّي الدروب كلّها إذاً إلى الأدب؟

لم تتوقّف عودة الدفء. لقد أفرط المتنبّئون الجوّيون في توقّعاتهم. ربّما لن يكون عيد الميلاد أبيض، وستتأسّف روح بينغ كروسبي.

فكّر قاسم وهو يقنع نفسه أنّ سعادته اكتملت: سأكون بعيداً يوم عيد الميلاد. مع زوجتي الصغيرة! أتفرّج على بطنها وهو يتكوّر! ما الأروع من بطن امرأةٍ حبلى؟ إنّه وعد الغد. أجل، القيم الحقيقية هنا: الزواج، الإنجاب، أي أن يزرع المرء حديقته!

ربّما لاحظنا قبلاً أنّ قاسماً لم يتميّز يوماً بالتصميم. فعشية رحيله، وعلى الرغم ممّا قرّره، لم يستطع مقاومة رغبةٍ عارمةٍ في رؤية رمزي مرّةً أخيرة. استقبله شرينيفاس بلباقة، لكنّه جعله ينتظر ما يقارب نهاراً كاملاً. الرسول يؤلّف. الرسول يتأمّل. الرسول يتحاور مع صحافيّين كنديّين، أتوا خصّيصاً من أوتاوا لمقابلته بصدد تعليمه المزدوج، الشعري والغذائي. من أيّ عالِمٍ يستوحي بالأخصّ؟ من ناسكٍ هنديّ أم من الصوفي أنتيفون الأثيني(*) الذي اكتشف قبل فرويد بوقتٍ طويلٍ الصلة الوثيقة بين الجسد والروح؟

اقترب الليل. وفوق نهر هدسون، كانت السماء قد ارتدت رداءها الأحمر عندما دخل رمزي أخيراً إلى غرفة الطعام. جلس قرب قاسم. لم

(*) Antiphon d'Athènes (480-410 ق.م.): أحد أهمّ خطباء شبه جزيرة أتيكا، وكان من سفسطائيّي مذهب اللذّة.

تعد رائحة «التزيينات» النفّاذة تفوح من جسده وملابسه، بل صدرت عنه روائح عطرٍ ثمين.

أعلن: «أنت ترتكب أكبر حماقةٍ في حياتك. تترك بلداً كلّ شيءٍ فيه ممكن، كلّ الآمال مسموحة. ومن أجل ماذا؟ ومن أجل من؟ المشكلة هي أنّك لم تربط يوماً عرَبتك بنجمة، مثلما يقول المثل».

تساءل قاسم عن النجمة التي ربط رمزي بها عربته هو، وهو الذي ينشر المآسي حوله. لكنّه لم يأتِ للتطرّق إلى موضوعاتٍ بغيضة.

قال بحزم: «لا أريد التحدّث عن هذا كلّه».

جذبه رمزي إليه وهمس قائلاً: «هكذا إذاً، تريد أن تتركني؟ تريد أن تضع المحيط بيننا؟ ما الذي فعلته لك؟ ألم أكن دائماً صديقك؟!».

تذكّر قاسم الكلمات المقدّسة.

«ألم يجدك يتيماً فآوى؟
ووجدك ضالّاً فهدى؟
ووجدك عائلاً فأغنى؟».

في نهاية المطاف، ألا يمكن أن يكون مجرّد ناكرٍ للجميل، يتسلّى بلعب دور حامي القانون؟ اجتاحته ألف ذكرى حلوة - مرّة في حين اجتاحه سيلٌ من المشاعر المتناقضة، الرعب، القرف، لكن بصورةٍ خاصّة الحنان والرغبة. استسلم شيءٌ ما في صدره، تمزّق بهدوءٍ مثل لباسٍ اهترأ من كثرة الغسيل. امتلأت عيناه بالدموع، وسمع نفسه يجهش بالبكاء مثلما لم يبكِ منذ سنوات، منذ أيّام طفولته في سوسي.

النهاية

ماريز كونديه

كاتبة روائية ومسرحية وناقدة من غوادلوب، المستعمرة الفرنسية الواقعة في منطقة البحر الكاريبي. بدأت نشر كتبها بعد أن تجاوزت الأربعين من عمرها، وتراوحت أعمالها بين الرواية، والمسرحيات، والأدب الموجّه للأطفال، والدراسات النقدية والسياسية. تستكشف في أعمالها موضوعاتٍ متعددة: الزنوجة، علاقة السود في منطقة الكاريبي بالقارة الإفريقية، الاستعمار، حقبة ما بعد الاستعمار، الكاتبات النساء... تنقّلت بين بلدانٍ عديدة وحازت عدداً من الجوائز، آخرها جائزة نوبل البديلة للآداب في عام 2018، لأنها «تصف ويلات الاستعمار وفوضى ما بعد الاستعمار بلغة دقيقة وبالغة التأثير. وهي تستحضر في رواياتها الأموات إلى جانب الأحياء، في عالمٍ يدور فيه الجندر والعِرق والطبقة باستمرار في تشكيلاتٍ جديدة».

من أبرز أعمالها: ملحمة «سيغو» بجزأيها، «بانتظار السعادة»، «آخر الملوك المجوس»، «هجرة القلوب»، «ديزيرادا»، «الحياة الآثمة». وقد نشرت آخر رواياتها بعد تجاوزها الثمانين من العمر.

رندة بعث

مترجمة سورية، حائزة على شهادة ماستر في الترجمة الفورية، وعلى شهادة دبلوم في الترجمة.

من بين الكتب التي ترجمتها:

في الرواية:

- «الطربوش»، روبير سوليه.
- «مزاج»، روبير سوليه.
- «الحياة الآثمة»، ماريز كونديه.
- «أزهار الظلمات»، ماريز كونديه.

في العلوم الاجتماعية:

- الأشكال الأولية للحياة الدينية - المنظومة الطوطمية في أستراليا، إميل دوركايم.
- الباب - مقاربة إثنولوجية، باسكال ديبي.
- أزمة الهويّات - تفسير تحوّل، كلود دوبار.
- بؤس العالم (الجزء الثالث)، بيير بورديو.
- مسألة الحرية في الفكر الإسلامي - الحل المعتزلي، أبو عمران الشيخ.
- شيخ الليل - أسواق صنعاء ومجتمعها، فرانك ميرمييه. (الترجمة بمشاركة محمد السبيطلي).



تصميم الغلاف نجاح طاهر

telegram @soramnqraa

يضطرّ "قاسم" الشابّ التائه، لتحمّل هويّات لم يخترها، ويدفع دوماً ثمن أخطاء لم يرتكبها. لكنّه يجد مهرباً من حياته وظروفه حين يقترح عليه الطبيب "رمزي النووي" السفر معه إلى بلد الزعيم "بيغ بوس" لإجراء عملية تحنيط لابنة الزعيم الشابّة التي توفّيت في ظروف غامضة.

يترافق وصولهما مع وباء غامض ينتشر في البلاد ولا يهاجم إلا الفتيات، فيجد "رمزي" فرصته في اقتراح مشروع "تزيين" المتوفّيات، وسرعان ما تواجهه التقوّلات والاتهامات. غير أن "قاسم" المنساق وراء الطبيب كالمسحور، والواقع تحت إيهامه، لا يستطيع التأكّد من صحّة ما يقال، ولا نفيه. فهل فعلاً للطبيب علاقة بالوباء؟



مقتحمةً هذه المرة غمار عالم جديد، تقودنا "ماريز كونديه" من لغزٍ إلى آخر، في حبكةٍ لاهثة، تدمج على نحو عجيب مسائل الهوية والعِرق والدين، لتحكي لنا عن "أزهار الظلمات"، اللواتي يرى "رمزي" أنهنّ وحدهن جديرات بالاشتهاء.








ISBN 978-9933-641-89-4
9 789933 641894 >